



عناصر الموضوع

مفهوم الرجاء	٨
الرجاء في الاستعمال القرآني	٩
الألفاظ ذات الصلة	١٠
الرجاء في حق المؤمنين	١٢
الرجاء في حق الكافرين	٢٤
أساليب القرآن في الحديث عن الرجاء	٢٧
وسائل تحقيق المرجو	٣٢
آثار الرجاء	٣٥

المجلد السادس عشر

مفهوم الرجاء

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (رجا) تدل على الأمل[1].

وهو نقيض اليأس، يقال: رجا يرجو[2].

وقد يجيء الرجاء بمعنى: الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣] أي: تخافون عظمة الله[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب: الرجاء: ظنّ يقتضي حصول ما فيه مسرّة[4].

وعرفه الكفوي بأنه: الطمع فيما يمكن حصوله، ويرادفه الأمل[5].

وعرفه الجرجاني بأنه: تعلق القلب بمحصول محبوب في المستقبل[6].

وبناءً عليه فمعنى الرجاء اصطلاحًا لا يختلف عن معناه لغةً.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٩٤.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١١/ ١٢٤.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٥٢.
(٤) المفردات، ص ٣٤٦.
(٥) الكليات ص ٤٦٨.
(٦) التعريفات ص ١٠٩.



الرجاء في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رجا) في القرآن الكريم (٢٨) مرة، يخص موضوع البحث منها(٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢١	﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[النساء: ١٠٤]
فعل الأمر	١	﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾[العنكبوت: ٣٦]
اسم مفعول	١	﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾[هود: ٦٢]

وجاء الرجاء في القرآن على وجهين[٢]:

أحدهما: الأمل والطمع: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾[البقرة: ٢١٨].

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء: ٥٧]. أي: يأملون ويطمعون في رحمته وجنته[٣].

الثاني: الخوف: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ٧] يعني: لا يخافون لقاءنا يوم القيامة، فهم لذلك مكذبون بالثواب والعقاب[٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾[النبأ: ٢٧] أي: لا يخافون حسابًا.

وعند التأمل نجد أن لفظة الرجاء من الأضداد[٥]، فتستعمل بمعنى الأمل والطمع، وبمعنى الخوف، وقرينة السياق تدل على المعنى المطلوب.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٣٠٤.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص١٧٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٣٠٨، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٢٧-٢٢٩.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٢٥١.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٢/ ١٢١.
(٥) انظر: الأضداد، ابن الأنباري ص٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأمل:

الأمل لغة:

تدل مادة (أمل) على معنين رئيسين، أحدهما: التثبت والانتظار[(١)]، ومنه: الأمل، بمعنى: الرجاء، فتقول: أملته أؤمله تأميلًا، وأملته آمله أملًا وإملةً على بناء جلسة[(٢)]. ومنه: التأمل، أي: التثبت في النظر[(٣)].

الأمل اصطلاحًا:

عرفه المناوي بقوله: الأمل: توقع حصول الشيء، وأكثر ما يستعمل فيما يبعد حصوله، فمن عزم على سفر إلى بلد بعيد يقول: أملت الوصول، ولا يقول: طمعت إلا إن قرب منها، فإن الطمع ليس إلا في القريب[(٤)].

الصلة بين الرجاء والأمل:

الرجاء والأمل لفظان متقاربان في المعنى، حيث يعرف أهل اللغة الرجاء بالأمل، والأمل بالرجاء، إلا أن المتأمل في معناهما في كتب اللغة يجد فرقًا طفيفًا بينهما، وهو أن الرجاء أكثر ما يستعمل فيما يقرب حصوله، بينما الأمل أكثر ما يستعمل فيما يستبعد حصوله.

وقيل: الأمل: آكد من الرجاء؛ لأن الرجاء معه خوف؛ فلذلك جاء بمعنى خاف نحو: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣][(٥)].

٢ التمني:

التمني لغة:

تدل مادة (مني) على تقدير شيء، ونفاذ القضاء به، منه قولهم: منى له الماني، أي: قدر المقدر، وتمني الإنسان: أمل يقدره[(٦)].

والتمني نوع من الطلب إلا أن الطلب يكون باللسان، والتمني شيء يهجس في القلب

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٠.
(٢) العين، الخليل بن أحمد ٨/ ٣٤٧.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٠.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٦٢.
(٥) المصدر السابق ص ١٧٤.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٢٧٦- ٢٧٧.

يقدره المتمني[١].

التمني اصطلاحًا:

التمني: طلب حصول الشيء، سواءً كان ممكنًا أو ممتنعًا[٢].

الصلة بين الرجاء والتمني:

الرجاء يكون مع بذل الجهد واستفراغ الطاقة في الإتيان بأسباب الظفر والفوز، والتمني حديث النفس بحصول ذلك مع تعطيل الأسباب الموصلة إليه[٣].

٣ الخوف:

الخوف لغة:

الخاء والواو والفاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على الذّعر والفزع[٤].

الخوف اصطلاحًا:

«خلاف الأمن، والأمن سكون النفس، والخوف من انزعاجها وقلقها»[٥].

وقال التفتازاني: «غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء»[٦].

الصلة بين الرجاء والخوف:

الخوف هو توقع حلول مكروه، أو فوت محبوب، والرجاء عكسه، توقع حصول محبوب، وهما قرناء لا ينفع أحدهما إلا بوجود الآخر، وهما من أركان العبادة التي لا تتم إلا باجتماعهما مع الحب[٧].

(١) الكليات، الكفوي ص ٤٦٨.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٦٦، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٠٩.
(٣) الروح، ابن القيم ص ٢٤٥.
(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٠.
(٥) الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري، ص ٢٠٣.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٦١.
(٧) الكليات ص ٤٦٨.

الرجاء في حق المؤمنين

الرجاء في الله تعالى، وفيما عنده من العبادات القلبية العظيمة.

وقد ذكر القرآن الكريم أن المؤمنين هم أهل الرجاء، وأهل حسن الظن بالله، الذين جمعوا بين حسن العمل، وحسن الرجاء، إذ الرجاء المحمود لا يكون إلا لمن عمل بطاعة الله، ورجا ثوابه، أو تاب من معصيته، ورجا قبول توبته، فأما الرجاء بلا عمل فهو غرور وتمنٍ مذموم.

ومن صور الرجاء التي أثنى الله بها على المؤمنين:

أولًا: رجاء لقاء الله:

قال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥] وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالمؤمن يرجو لقاء الله.

واختلف المفسرون في المراد بلقاء الله، على أقوال:

الأول: أن المراد بلقاء الله: رؤيته سبحانه وتعالى، فالمؤمن يرجو رؤية الله؛ ولهذا يعمل الأعمال الصالحة من أجل أن ينعم بهذه الرؤية، لعل هذا العمل الصالح يكون سببًا في رؤية الله جل وعلا.

الثاني: أن لقاء الله: ثوابه، فالمؤمن يرجو ثواب الله بعمله، ويخشى عقاب الله بعمله، فهو يصلي ويقرأ القرآن ويصوم، ويعمل الأعمال الصالحة من أجل حصول الثواب، والابتعاد عن العقاب.

الثالث: أن لقاء الله هو يوم القيامة.

وقد جمع هذه الأقوال كلها وغيرها أبو السعود، حيث قال: «﴿مَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾، أي: يتوقع ملاقاة جزائه ثوابًا أو عقابًا، أو ملاقاة حكمه يوم القيامة.

وقيل: يرجو لقاء الله عز وجل في الجنة.

وقيل: يرجو ثوابه.

وقيل: يخاف عقابه.

وقيل: لقاؤه تعالى عبارة عن الوصول إلى العاقبة من تلقي ملك الموت والبعث والحساب والجزاء.

على تمثيل تلك الحال بحال عبد قدم على سيده بعد عهد طويل، وقد علم مولاه بجميع ما كان يأتي ويذر، فإما أن يلقاه ببشر وكرامة لما رضي من أفعاله، أو بضده لما سخطه، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾، أي: فإن الوقت الذي عينه تعالى لذلك ﴿لَآتٍ﴾ لا محالة من غير صارف يلويه، ولا عاطف يثنيه؛ لأن أجزاء الزمان على التقضي والتصرم دائمًا، فلا بد من إتيان ذلك الجزاء أيضًا ألبتة، وإتيان وقته موجب لإتيان اللقاء حتمًا، والجواب محذوف، أي: فليختر

من الأعمال ما يؤدي إلى حسن الثواب؛ وليحذر ما يسوقه إلى سوء العذاب، كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وفيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى، وقيل: فليبادر إلى ما يحقق أمله، ويصدق رجاءه، أو ما يوجب القربة والزلفى»[١].

والمقصود: أن المؤمنين يرجون لقاء الله، فيعملون لهذا اللقاء، ويستعدون له، بعكس المنكر للقاء الله، الغافل عنه.

وقد اختلف في تفسير الرجاء على قولين:

فقيل: الرجاء: بمعنى الطمع والأمل، قاله سعيد ابن جبير[٢].

قال الزجاج: معنى من كان يرجو لقاء الله: من كان يرجو ثواب لقاء الله، أي: ثواب المصير إليه، فالرجاء على هذا: معناه: الأمل[٣].

وقيل: الرجاء: بمعنى الخوف.

قال القرطبي: «وأجمع أهل التفسير على أن المعنى: من كان يخاف الموت»[٤].

وقال السعدي: «يعني: يا أيها المحب لربه، المشتاق لقربه ولقائه، المسارع في مرضاته، أبشر بقرب لقاء الحبيب، فإنه آت، وكل آت إنما هو قريب، فتزود للقائه، وسر نحوه، مستصحبًا الرجاء، مؤملًا الوصول إليه، ولكن ما كل من يدعي يعطى بدعواه، ولا كل من تمنى يعطى ما تمناه، فإن الله سميع للأصوات، عليم بالنيات، فمن كان صادقًا في ذلك أناله ما يرجو، ومن كان كاذبًا لم تنفعه دعواه، وهو العليم بمن يصلح لحبه ومن لا يصلح»[٥].

ولما كان المؤمنون هم الذين يرجون لقاء الله، ويشتاقون له، ويعملون له، أخبر الله عن المشركين أنهم على الضد من ذلك فهم لا يرجون لقاء الله، أي: لا ينتظرون هذا اللقاء، ولا يحسبون حسابه، ولا يقيمون حياتهم وتصرفاتهم على أساسه، ومن ثم لا تستشعر قلوبهم وقار الله وهيبته وجلاله، فتنطلق ألسنتهم بكلمات وتصورات لا تصدر عن قلب يرجو لقاء الله.

قال الله تعالى: ﴿۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفرقان: ٢١]، فقد كانوا يستبعدون أن يكون الرسول بشرًا، وكانوا يطلبون، لكي يؤمنوا بالعقيدة التي يدعوهم إليها أن تنزل عليهم الملائكة تشهد بها، أو أن يروا الله سبحانه وتعالى فيصدقوا، وهو تطاول على مقام الله سبحانه، تطاول الجاهل المستهتر الذي لا

(١) إرشاد العقل السليم، ٧/ ٣٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٢٢.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٢٢.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٣/ ٣٢٧.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، ص ٦٢٦.

يحس جلال الله في نفسه، ولا يقدر الله حق قدره»[1].

وقال ابن عاشور: ورجاء لقاء الله: ظن وقوع الحضور لحساب الله...، ولقاء الله: الحشر للجزاء؛ لأن الناس يتلقون خطاب الله المتعلق بهم، لهم أو عليهم، مباشرةً بدون واسطة...، وعبر بفعل الرجاء عن ترقب البعث؛ لأن الكلام مسوق للمؤمنين وهم ممن يرجو لقاء الله؛ لأنهم يترقبون البعث لما يأملون من الخيرات فيه»[2].

والخلاصة: أن هذه الآية: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥] فيها حث الإنسان على أن يكون راجيًا في ثواب المصير إلى الله تعالى، فالرجاء سبب من الأسباب التي ينال بها العبد ما عند الله، من مغفرة ذنوبه، وهدايته، وتوفيقه، وإعانته على طاعته، ودخوله الجنة، ونجاته من النار، فالرجاء هو قطب الرحى الذي يدور عليه صلاح العبادة.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «ولولا روح الرجاء لعطلت عبودية القلب والجوارح، وهدمت صوامع، وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرًا، بل لولا روح الرجاء لما تحركت الجوارح بالطاعة، ولولا ريحه الطيبة لما جرت سفن الأعمال في بحر الإرادات»[3].

ولا يقال: إن الرجاء اعتراض من العبد على ما سبق به حكم الله، فليس الأمر كذلك، بل إنما هو تعلق بما سبق به الحكم، فإن العبد إنما يرجو فضلًا وإحسانًا ورحمةً سبق بها القضاء والقدر، وجعل الرجاء أسباب حصولها، فليس الرجاء اعتراضًا على القدر، بل هو طلب لما سبق به قدر الله.

وقد ذم الله الكافرين الذين لا يرجون لقاءه، ورضوا بالحياة الزائلة، واطمأنوا إليها، فقد حكم لهم بأن مأواهم النار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ۝٧ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝٨﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وهذه الآية توضح لنا أن العبد إذا كان يرجو لقاء الله صادقًا مخلصًا في ذلك، فإن عاقبة ذلك ونتيجته يؤديان به إلى إصلاح عمله.

فهذه الآية فيها إشارة قاطعة إلى أن الرجاء لا يصح إلا مع العمل.

ورجاء العبد لقاء ربه الذي خلقه هو

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٥٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٠٨.

(٣) مدارج السالكين ٢/ ٤٣.

من أفضل ما يرجوه العبد المؤمن ويأمله، قال العلامة ابن القيم: «رجاء أرباب القلوب، وهو رجاء لقاء الخالق الباعث على الاشتياق، المبغض المنغص للعيش، المزهد في الخلق، هذا الرجاء أفضل أنواع الرجاء وأعلاها، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٥﴾ [العنكبوت: ٥]، وهذا الرجاء هو محض الإيمان وزبدته، وإليه شخصت أبصار المشتاقين؛ ولذلك سلاهم الله تعالى بإتيان أجل لقائه، وضرب لهم أجلًا يسكن نفوسهم ويطمئنها»(١).

ثانيًا: رجاء اليوم الآخر:

ومما ينبغي أن يرجوه المؤمن اليوم الآخر.

قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١].

وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الممتحنة: ٦].

(١) المصدر السابق ٢/ ٥٤.

ومعنى: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، أي: وارجوا بعبادتكم إياي جزاء اليوم الآخر، وذلك يوم القيامة(٢).

قال أبو السعود: «معنى: ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾، أي: توقعوه، وما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته»(٣).

والمراد باليوم الآخر: يوم القيامة؛ لأنه آخر الأيام، وقيل: وارجوا يوم الموت؛ لأنه آخر عمرهم(٤).

وإنما عبّر شعيب عليه السلام بلفظ الرجاء؛ لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين كما سبق.

والرجاء: الترقب واعتقاد الوقوع في المستقبل، وأمره إياهم بترقب اليوم الآخر يدل على أنهم كانوا لا يؤمنون بالبعث(٥).

ورجاء اليوم الآخر كفيل بتحويلهم عما كانوا يرجونه في هذه الحياة الدنيا من الكسب المادي الحرام، بالتطفيف في الكيل والميزان، وغصب المارين بطريقهم للتجارة، وبخس الناس أشياءهم، والإفساد في الأرض، والاستطالة على الخلق(٦).

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٤.
(٣) إرشاد العقل السليم ٧/ ٣٩.
(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤٦٨.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٤٧.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٣٤.

ثالثًا: رجاء رحمة الله:

ومن أعظم ما يرجوه المؤمن رحمة الله. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

فهذه الآية بينت أن من صفات المؤمنين أنهم يرجون رحمة الله، بمعنى: أنهم يطمعون في رحمة الله، ويرجون أن يدخلهم الجنة برحمته إياهم، وفضله عليهم.

عن الربيع بن أنس رضي الله عنه قال: «أثنى الله على أصحاب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وأنه من رجا طلب، ومن خاف هرب»[(١)].

والناظر لأول وهلة في هذه الآية يظن أن فيها رجاءً وترغيبًا، لكن المتدبر والمتأمل يجد العكس، وهو أن فيها تخويفًا وترهيبًا، حيث جعل الله تعالى رحمته لمن تحققت فيه هذه الأوصاف (الإيمان، والهجرة، والجهاد) وهي ثقيلة على النفس.

وهذه الأوصاف الثلاثة لأولئك المقربين الصديقين:

أولها: أنهم آمنوا، والإيمان تصديق للحق، وإذعان لحكمه، وتنفيذ لأوامره، وإخلاص في القلب، ونور في البصيرة، وذلك وحده كاف للجزاء، إن قام المؤمن به، وحقق لوازمه وخواصه، وصار شعاره ومظهره، وسريرته وحقيقته.

وثانيها: الهجرة، فقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟﴾، وكرر الموصول هنا للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل زائد على الإيمان يستحق وحده الثواب؛ لأنه ترك للمال والأهل، وطلب للعزة، وإعزاز الدين، بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين، وقد أمر الله بالهجرة عند الاستضعاف، ونهى عن البقاء تحت نير غير المسلمين.

ولذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠].

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٨.

وثالثها: الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو باب الجنة، وهو رهبانية هذه الأمة، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمن طلب منه الوصية: (وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام)[(١)].

ولقد بين سبحانه جزاءهم، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾، أي: إن أولئك المتصفين بهذه الصفات ليس من شأنهم أن يخافوا العذاب لخطأ غير مقصود في الجهاد، بل إنهم يرجون الرحمة والثواب[(٢)].

والمراد برحمة الله ها هنا:

يحتمل أن تكون الرحمة التي هي صفته، أي: أن يرحمهم.

ويحتمل أن يكون المراد ما كان من آثار رحمته.

وقد ثبت في الصحيح أن الله تعالى قال للجنة: (أنت رحمتي أرحم بك من أشاء)[(٣)]، فجعل المخلوق رحمةً له؛ لأنه من آثار رحمة الله؛ ولهذا قال: (أرحم بك).

أما الرحمة التي هي وصفه، فهي شيء آخر، فالآية محتملة للمعنيين، وكلاهما متلازمان؛ لأن الله إذا رحم عبدًا أدخله الجنة التي هي رحمته[(٤)].

فيكون في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ﴾ قولان:

الأول: أن المراد منه الرجاء، وهو عبارة عن ظن المنافع التي يتوقعها، وأراد تعالى في هذا الموضع أنهم يطمعون في ثواب الله؛ وذلك لأن عبد الله بن جحش -الذي نزلت فيه هذه الآية-[(٥)] ما كان قاطعًا بالفوز والثواب في عمله، بل كان يتوقعه ويرجوه.

فإن قيل: لم جعل الوعد مطلقًا بالرجاء، ولم يقع به كما في سائر الآيات؟

قال الراغب: قلنا: الجواب من وجوه:

أحدها: أن مذهبنا أن الثواب على الإيمان، والعمل غير واجب عقلًا، بل بحكم الوعد، فلذلك علقه بالرجاء.

وثانيها: هب أنه واجب عقلًا بحكم الوعد، ولكنه تعلق بأن لا يكفر بعد ذلك، وهذا الشرط مشكوك فيه لا متيقن، فلا جرم كان الحاصل هو الرجاء لا القطع.

وثالثها: أن المذكور ها هنا هو الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، ولا بد

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ١٨/ ٢٩٧، رقم ١١٧٧٤.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٨، رقم ٢٥٤٣.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٦٩٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ﴾، ٦/ ١٣٨، رقم ٤٨٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون، والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٦، رقم ٢٨٤٦.

(٤) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٦٤.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١٨٧، تفسير ابن أبي حاتم ٢/ ٣٨٨.

للإنسان مع ذلك من سائر الأعمال، وهو أن يرجو أن يوفقه الله لها، كما وفقه لهذه الثلاثة، فلا جرم علقه على الرجاء.

ورابعها: ليس المراد من الآية أن الله شكك العبد في هذه المغفرة، بل المراد وصفهم بأنهم يفارقون الدنيا مع الهجرة والجهاد مستقصرين أنفسهم في حق الله تعالى، يرون أنهم لم يعبدوه حق عبادته، ولم يقضوا ما يلزمهم في نصرة دينه، فيقدمون على الله مع الخوف والرجاء، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [المؤمنون: ٦٠].

القول الثاني: أن المراد من الرجاء: القطع واليقين في أصل الثواب، والظن إنما دخل في كميته وفي وقته، وفيه وجوه قررناها في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦].

وفي الآية دلالة على أن الذي يحق رجاؤه يعمل ما ذكر الله، ومن وصل إلى ذلك فحق له أن يرجو رحمته، فإن قيل: الإنسان راج لرحمة الله وإن لم يبلغ هذه المنازل!

قيل: إن الذي نسميه رجاءً لن لم يبلغ مثل هذه المنازل فهو تمن على الله، المعني بقوله عليه السلام: (والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني)[1].

أو رجاءً لتفصيل غير مستحق، وما ذكره الله عز وجل ها هنا هو الرجاء المستحق الذي وصف به المؤمنين في غير موضع، نحو قوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

إن قيل: لم ذكر المؤمنين برجاء الرحمة وهي لهم لا محالة؟

قيل: المؤمن وإن بذل الجهد في طاعته فواجب أن يكون بين نظرين: نظر إلى سعة رحمة الله عز وجل، ونظر إلى ما عسى أن يقع، أو وقع منه من ذنب فينتج له خوفًا[2].

ونظير الآية السابقة: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧][3].

فـ﴿أُولَٰئِكَ﴾ مبتدأ، ﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ صفة، أي: يدعونهم آلهة، أو يعبدونهم، والخبر ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾، يعني: أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة، وهي القربة إلى الله عز وجل، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ كغيرهم من عباد

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٥٠، رقم ١٧١٢٣، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٦٣٨، رقم ٢٤٥٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٦٠.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٦٢٥، رقم ٤٣٠٥.

(٢) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٤٩.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٣٩٥.

الله فكيف يزعمون أنهم آلهة[1].

وقال الطبري: «قوله: ﴿وَيَرْجُونَ﴾، أي: بأفعالهم تلك»[2].

والمقصود: أن من صفات هؤلاء المؤمنين أنهم يرجون رحمة الله تعالى على إيمانهم وهجرتهم وجهادهم.

فأثبت لهم الرجاء إشعارًا بأن العمل غير موجب، ولا قاطع في الدلالة، سيما والعبرة بالخواتيم[3].

قال القاسمي: «وإنما ثبت لهم الرجاء دون الفوز بالمرجو للإيذان بأنهم عالمون بأنّ العمل غير موجب للأجر، وإنما هو على طريق التفضّل منه سبحانه، لا لأنّ في فوزهم اشتباهًا»[4].

فوضع الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله موضع الرجاء من رحمة الله، ولم يعطهم الثواب والمغفرة والرضوان على القطع والتحقيق؛ وذلك ليقيمهم من هذا الرجاء على عمل دائم، وجهاد متصل، وهذا على خلاف ما إذا سوّى حسابهم بعد الهجرة، وبعد كل موقف من مواقف الجهاد، فقد يقعد بهم هذا عن أن يضيفوا جديدًا، أو يخفّوا للجهاد مرةً بعد مرة.

ثم إنه من جهة أخرى يرى الذين آمنوا -مجرد إيمان- ولم يهاجروا ولم يجاهدوا- يريهم شناعة موقفهم، ومغبّة تقصيرهم بتخلفهم عن ركب المهاجرين والمجاهدين، ويرفع لأعينهم بعد ما بينهم وبين مواقع رحمة الله ورضوانه؛ إذ يرون المهاجرين المجاهدين، ولمّا يلمسوا بأيديهم مواقع الرحمة والرضوان، وأنهم ما زالوا على رجاء! فكيف بالذين آمنوا ولم يهاجروا ولم يجاهدوا؟ إن المدى بعيد بينهم وبين أن يصلوا إلى جانب الأمن والسّلامة، وإن عليهم أن يحثّوا المطي إلى ميدان الهجرة والجهاد، ليلحقوا بركب المهاجرين المجاهدين، وليكونوا بمعرض من رحمة الله ورضوانه![5].

ورجاء المؤمن في رحمة الله لا يخيبه الله أبدًا، ولقد سمع أولئك النفر المخلص من المؤمنين المهاجرين هذا الوعد الحق، فجاهدوا وصبروا، حتى حقق الله لهم وعده بالنصر، أو الشهادة، وكلاهما خير، وكلاهما رحمة، وفازوا بمغفرة الله ورحمته[6].

رابعًا: رجاء ثواب الله:

ومن أنواع الرجاء المذكورة في القرآن رجاء ثواب الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا

(١) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٦٢-٢٦٣.
(٢) جامع البيان ١٤/ ٦٢٧.
(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٧.
(٤) محاسن التأويل ٢/ ١٠٩.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١/ ٢٤٢.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٢٨.

﴿تَأۡلَمُونَۖ وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فقوله: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾، قال مقاتل: يعني: من الثواب والأجر[(١)].

وقال البغوي: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾، أي: وأنتم مع ذلك تأملون من الأجر والثواب في الآخرة، والنصر في الدنيا ما لا يرجون.

وقال بعض المفسرين: المراد بالرجاء الخوف؛ لأن كل راج خائف أن لا يدركه مأموله، ومعنى الآية: وترجون من الله، أي: تخافون من الله، أي: تخافون من عذاب الله ما لا يخافون، قال الفراء رحمه الله: ولا يكون الرجاء بمعنى الخوف إلا مع الجحد، كقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤]، أي: لا يخافون، وقال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ١٣﴾ [نوح: ١٣].

أي: لا تخافون لله عظمةً، ولا يجوز رجوتك بمعنى: خفتك، ولا خفتك وأنت تريد رجوتك[(٢)].

قال في البحر: «﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرۡجُونَ﴾، هذه تسلية منه تعالى للمؤمنين، والتأسي فيه أعظم مسلاة»[(٣)].

ولفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، ويجوز أيضًا استعماله في الشر؛ لأنه مأخوذ من قولهم: ثاب إليه عقله، أي: رجع إليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله، سواءً كان خيرًا أو شرًا، إلا أنه بحسب العرف اختص لفظ الثواب بالخير، فإن حملنا لفظ الثواب ها هنا على أصل اللغة استقام الكلام، وإن حملناه على مقتضى العرف كان ذلك واردًا على سبيل التهكم، كما يقال: تحيتك الضرب، وعتابك السيف، أي: جعل الغم مكان ما يرجون من الثواب، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣٤][(٤)].

وفي جعل رجاء المؤمنين من الله في قوله تعالى: ﴿وَتَرۡجُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ إشعار للمؤمنين بأنهم في جانب الله تعالى، وأن رجاءهم عنده، وهو يجيب رجاء المؤمن ودعاءه، ويؤيده بنصره: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وليس للمشركين من يرجون إلا أن يكون أصنامًا لا تضر ولا تنفع!

وإذا كان الرجاء من الله فهو رجاء من العليم بكل شيء، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، وينصر من ينصره بحكمته؛ ولذا قال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾،

(١) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤٠٤.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٩٨.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ٣٥٣.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٣٩٠.

أي: ثبت وتقرر أن العلم والحكمة من أسماء الله تعالى الحسنى[(١)].

وفي الآية رد على من يقول: لا يصح أن يعبد الله رجاء الثواب، فإن هذه عبادة التجار، وإنما يعبد الله لذاته حبًا فيه.

قال القاسمي: «وتدل على أن للمجاهد أن يجاهد لطلب الثواب؛ لقوله: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، فجعل هذا سببًا باعثًا على الجهاد، هذا معنى كلام الحاكم، ونظير هذا: لو صلى لطلب الثواب أو السلامة من العقاب، وقد ذكر في ذلك خلاف، فعن الراضي بالله: يجزي ذلك، وقواه الفقيه يحيى بن أحمد، وعن أبي مضر: لا يجزي؛ لأنه لم ينو الوجه الذي شرع الواجب له»[(٢)].

ونظير الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩].

قال السمعاني: «قوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾، أي: لن تهلك، ولن تفسد، والمراد من التجارة: ما وعده الله من الثواب»[(٣)].

وقال يحيى بن سلام في تفسيره: «قوله: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾، أي: لن تفسد، وهي تجارة الجنة، يعملون للجنة، ولهذا قال: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾، ثوابهم في الجنة، ﴿وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٠]، أي: يضاعف لهم الثواب، قال الحسن: تضاعف لهم الحسنات، يثابون عليها في الجنة»[(٤)].

فهؤلاء الذين يكثرون من قراءة القرآن الكريم، ويؤدون ما أوجبه الله تعالى عليهم، يرجون من الله تعالى الثواب الجزيل، والربح الدائم؛ لأنهم جمعوا في طاعتهم له تعالى بين الإكثار من ذكره، وبين العبادات البدنية والمالية.

قال الرازي: «وقوله تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ إشارة إلى الإخلاص، أي: ينفقون لا ليقال: إنه كريم، ولا لشيء من الأشياء، غير وجه الله، فإن غير الله بائر، والتاجر فيه تجارته بائرة»[(٥)].

ثم قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾ ذكر ما يوجب الخوف والرجاء، فكونه عزيزًا ذا انتقام يوجب الخوف التام، وكونه غفورًا لما دون ذلك يوجب الرجاء البالغ»[(٦)].

والمقصود: أن المؤمنين يرجون بأعمالهم وعباداتهم ثواب الله، وأجره في الآخرة.

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٨٣٧.
(٢) محاسن التأويل ٣/ ٣١٨.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٥٧.
(٤) تفسير يحيى بن سلام ٢/ ٧٨٧.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٢٣٧.
(٦) المصدر السابق ٢٦/ ٢٣٦.

خامسًا: رجاء نصر الله وتأييده:

ومما يدل على ذلك قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

فالرجاء هنا كما يحمل على رجاء الثواب والأجر، يحمل أيضًا على رجاء النصر والظفر من العدو، قال الخازن: «يعني وتأملون من الله من الثواب في الآخرة ما لا يرجون، وقيل: ترجون النصر والظفر في الدنيا، وإظهار دينكم على الأديان كلها»(١).

وقال المراغي: «﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ من ظهور دينكم الحق على سائر الأديان الباطلة»(٢).

سادسًا: رجاء أيام الله:

ومن أنواع الرجاء المذكورة في القرآن رجاء أيام الله.

قال الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [الجاثية: ١٤].

قال مقاتل بن سليمان: «﴿لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾، يعني: لا يخشون عقوبات الله، مثل عذاب الأمم الخالية»(٣).

وقال السعدي: «الذين لا يرجون أيام الله أي: لا يرجون ثوابه، ولا يخافون وقائعه في العاصين، فإنه تعالى سيجزي كل قوم بما كانوا يكسبون، فأنتم يا معشر المؤمنين يجزيكم على إيمانكم وصفحكم وصبركم، ثوابًا جزيلًا، وهم إن استمروا على تكذيبهم فلا يحل بكم ما حل بهم من العذاب الشديد والخزي»(٤).

والذين لا يرجون أيام الله يراد بهم المشركون من أهل مكة، والرجاء: ترقب وتطلب الأمر المحبوب، وهذا أشهر إطلاقاته، وهو الظاهر في هذه الآية.

والأيام: جمع يوم، وهذا الجمع أو مفرده إذا أضيف إلى اسم أحد أو قوم أو قبيلة كان المراد به اليوم الذي حصل فيه لمن أضيف هو إليه نصر وغلب على معاند أو مقاتل، ومنه أطلق على أيام القتال المشهورة بين قبائل العرب: أيام العرب، أي: التي كان فيها قتال بين قبائل منهم، فانتصر بعضهم على بعض، كما يقال: أيام عبس، وأيام داحس والغبراء، وأيام البسوس، فإذا قالوا: أيام بني فلان، أرادوا الأيام التي انتصر فيها من أضيفت الأيام إلى اسمه، ويقولون: أيام بني فلان على بني فلان، فيريدون أن المجرور بحرف الاستعلاء مغلوب لتضمن لفظ أيام أو (يوم) معنى الانتصار والغلب، وبذلك التضمن كان المجرور متعلقًا بلفظ

(١) لباب التأويل، الخازن ١/ ٤٢٣.
(٢) تفسير المراغي ٥/ ١٤٥.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٨٣٧.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٧٦.

أيام أو (يوم)، وإن كان جامدًا فمعنى أيام الله على هذا هو من قبيل قولهم: أيام بني فلان، فيحصل من محمل الرجاء على ظاهر استعماله.

ومحمل أيام الله على محمل أمثاله أن معنى الآية للذين لا ترقب نفوسهم أيام نصر الله، أي: نصر الله لهم: إما لأنهم لا يتوكلون على الله، ولا يستنصرونه، بل توجههم إلى الأصنام، وإما لأنهم لا يخطر ببالهم إلا أنهم منصورون بحولهم وقوتهم فلا يخطر ببالهم سؤال نصر الله، أو رجاؤه، وهم معروفون بهذه الصلة بين المسلمين، فلذلك أجريت عليهم هنا وعرفوا بها، وأوثر تعريفهم بهذه الصلة ليكون في ذلك تعريض بأن الله ينصر الذين يرجون أيام نصره وهم المؤمنون، والغرض من هذا التعريض: الإيماء بالموصول إلى وجه أمر المؤمنين أن يغفروا للمشركين، ويصفحوا عن أذى المشركين، ولا يتكلفوا الانتصار لأنفسهم لأن الله ضمن لهم النصر.

وقد يطلق أيام الله في القرآن على الأيام التي حصل فيها فضله ونعمته على قوم، وهو أحد تفسيرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥].

ومعنى لا يرجون أيام الله على هذا التأويل: أنهم في شغل عن ترقب نعم الله بما هم فيه من إسناد فعل الخير إلى أصنامهم بانكبابهم على عبادة الأصنام دون عبادة الله، ويأتي في هذا الوجه من التعريض والتحريض مثل ما ذكر في الوجه الأول؛ لأن المؤمنين هم الذين يرجون نعمة الله، وفسر به قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١].

وقوله: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣].

فيكون المراد بـ﴿بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ أيام جزائه في الآخرة؛ لأنها أيام ظهور حكمه وعزته، فهي تقارب الأيام بالمعنى الأول، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ [النبأ: ٣٩]، أي: ذلك يوم النصر الذي يحق أن يطلق عليه (يوم)، فيكون معنى هذه الآية: أنهم لا يخافون تمكن الله من عقابهم لأنهم لا يؤمنون بالبعث.

ومعنى الآية[1]: أن المؤمنين أمروا بالعفو عن أذى المشركين، وقد تكرر ذلك في القرآن قال الله تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وفي صحيح البخاري عن أسامة بن زيد في هذه الآية: وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٣٤٠.

الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى[(١)].

الرجاء في حق الكافرين

أخبر الله تعالى عن الكفار أنهم لا يرجون الله، ولا يرجون اليوم الآخر، ولا يرجون ثوابًا ولا حسابًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾ [النبأ: ٢٧].

وهذا شأنهم في الحياة الدنيا؛ ولهذا لم يعملوا ليوم القيامة، ولم يوقروا الله، وأهملوا العمل للآخرة.

قال ابن الجوزي: «﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾، فيه قولان:

أحدهما: لا يخافون أن يحاسبوا؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الجمهور.

والثاني: لا يرجون ثواب حساب؛ لأنهم لا يؤمنون بالبعث، قاله الزجاج»[(٢)].

واختار السمعاني الأول حيث قال: «قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾، أي: لا يخافون، وقد بينا الرجاء بمعنى الخوف فيما سبق»[(٣)].

وقال مقاتل: «يعني: أنهم كانوا لا يخافون من العذاب أن يحاسبوا بأعمالهم الخبيثة إذا عملوها»[(٤)].

وقال ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ٢٧﴾، قال: «لا يؤمنون بالبعث

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والمشركين أذى كثيرًا)، ٦/ ٣٩، رقم ٤٥٦٦.

(٢) انظر: زاد المسير ٤/ ٣٩٠.
(٣) تفسير القرآن، السمعاني ٦/ ١٤٠.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٥٦٣.

ولا بالحساب، وكيف يرجو الحساب من لا يوقن أنه يحيا، ولا يوقن بالبعث»[1].

فإن قيل: الحساب شيء شاق على الإنسان، والشيء الشاق لا يقال فيه: إنه يرجى، بل يجب أن يقال: إنهم كانوا لا يخشون حسابًا.

والجواب: من وجوه:

أحدها: قال مقاتل وكثير من المفسرين قوله: ﴿لَا يَرْجُونَ﴾، معناه: لا يخافون، ونظيره قولهم في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح: ١٣].

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يرجو رحمة الله؛ لأنه قاطع بأن ثواب إيمانه زائد على عقاب جميع المعاصي سوى الكفر، فقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾﴾، إشارة إلى أنهم ما كانوا مؤمنين.

وثالثها: أن الرجاء ها هنا بمعنى التوقع؛ لأن الراجي للشيء متوقع له، إلا أن أشرف أقسام التوقع هو الرجاء، فسمي الجنس باسم أشرف أنواعه.

ورابعها: أن في هذه الآية تنبيهًا على أن الحساب مع الله جانب الرجاء فيه أغلب من جانب الخوف؛ وذلك لأن للعبد حقًّا على الله تعالى بحكم الوعد في جانب الثواب، ولله تعالى حق على العبد في جانب العقاب، والكريم قد يسقط حق نفسه، ولا يسقط ما كان حقًّا لغيره عليه، فلا جرم كان جانب الرجاء أقوى في الحساب؛ فلهذا السبب ذكر الرجاء، ولم يذكر الخوف[2].

والمقصود: أن الله تعالى أخبر عن الكفار في عدة آيات أنهم لا يرجون لقاءه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾ [يونس: ٧].

قال السعدي: «أي: لا يطمعون بلقاء الله، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلًا عن الآخرة»[3].

وقال الله في آية أخرى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [الفرقان: ٢١]، فلماذا لا يرجون لقاء الله؟ لأن الذي يرجو لقاء الله هو من أعد نفسه لهذا اللقاء؛ ليستقبل ثواب الله، لكن الذي لم يفعل أشياء تؤهله إلى ثواب الله، وعمل أشياء تؤهله إلى عقاب الله فكيف له أن يرجو لقاء الله؟ إنه لا يرجو ذلك.

وعلى سبيل المثال: إن الرجل الذي يستشهد، ويقدم نفسه للشهادة، ونفسه هي أعز شيء عنده، إنما يفعل ذلك لوثوقه بأن ما يستقبله بالاستشهاد خير مما يتركه من

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ١٦٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص ٣٥٨.

الحياة[(١)].

ونظير الآيتين السابقتين قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾﴾ [يونس: ١١].

وقوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥].

قال الرازي: «إنّ وصفهم بأنهم لا يرجون لقاء الله أريد به كونهم مكذبين بالحشر والنشر، منكرين للبعث والقيامة، ثم في تقرير حسن هذه الاستعارة وجوه:

الأول: قال الأصم: لا يرجون لقاءنا، أي: لا يرجون في لقائنا خيرًا على طاعة، فهم من السيئات أبعد أن يخافوها.

الثاني: قال القاضي: الرجاء لا يستعمل إلا في المنافع؛ لكنه قد يدل على المضار من بعض الوجوه؛ لأن من لا يرجو لقاء ما وعد ربه من الثواب، وهو القصد بالتكليف لا يخاف أيضًا ما يوعده به من العقاب، فصار ذلك كناية عن جحدهم للبعث والنشور.

واعلم أن كلام القاضي قريب من كلام الأصم، إلا أن البيان التام أن يقال: كل من كان مؤمنًا بالبعث والنشور فإنه لا بد وأن يكون راجيًا ثواب الله، وخائفًا من عقابه، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فلزم من نفي الرجاء نفي الإيمان بالبعث، فهذا هو الوجه في حسن هذه الاستعارة»[(٢)].

والمقصود: أن الكفار لا يرجون لقاء الله تعالى، ولا الدار الآخرة؛ ولهذا ركنوا إلى الدنيا، وأهملوا الآخرة؛ ولهذا أخبر عنهم الله أنهم رضوا بالحياة الدنيا، واطمأنوا بها.

ومعنى: رضوا بالحياة الدنيا أنهم لم يعملوا النظر في حياة أخرى أرقى وأبقى، لأن الرضا بالحياة الدنيا والاقتناع بأنها كافية يصرف النظر عن أدلة الحياة الآخرة، وأهل الهدى يرون الحياة الدنيا حياة ناقصة، فيشعرون بتطلب حياة تكون أصفى من أكدارها، فلا يلبثون أن تطلع لهم أدلة وجودها، وناهيك بإخبار الصادق بها، ونصب الأدلة على تعين حصولها، فلهذا جعل الرضا بالحياة الدنيا مذمةً، وملقيًا في مهواة الخسران.

وفي الآية إشارة إلى أن البهجة بالحياة الدنيا والرضا بها يكون مقدار التوغل فيهما بمقدار ما يصرف عن الاستعداد إلى الحياة الآخرة، وليس ذلك بمقتضى الإعراض عن الحياة الدنيا، فإن الله أنعم على عباده بنعم كثيرة فيها وجب الاعتراف بفضله بها، وشكره عليها، والتعرف بها إلى مراتب أعلى هي مراتب حياة أخرى، والتزود لها، وفي

(١) تفسير الشعراوي ٩/ ٥٧٤٩.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٧/ ٢٢٤.

ذلك مقامات ودرجات بمقدار ما تهيأت له النفوس العالية من لذات الكمالات الروحية[1].

أساليب القرآن في الحديث عن الرجاء

تتنوع أساليب القرآن الكريم في الحث على الشيء المرغوب فيه، فتارةً بالأمر الصريح به، وتارةً بالنهي عن ضده، وتارةً بذكر ثوابه، ونجد هذا التنوع في الأسلوب في الحث على الرجاء، حيث جاء في القرآن على النحو الآتي:

أولًا: الأمر به:

من وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء الأمر به؛ إذ لا يأمر الله تعالى إلا بالأمر المحبوب إليه، المطلوب من العباد فعله؛ لحسنه عقلًا وشرعًا، وقد جاء الأمر بالرجاء في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٣٦﴾ [العنكبوت: ٣٦].

وهذا الأمر أقل أحواله الندب، وإن كان الأولى به ها هنا الوجوب؛ وبخاصة أنه اقترن بأمر أعظم، وهو عبادة الله تعالى، فقد أمر شعيب عليه السلام قومه بأمرين، هما: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦] ونهي واحد وهو: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٦].

ومعناه كما قال السمعاني: «أي: واخشوا اليوم الآخر، وقيل: الرجاء ها هنا على

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٩٩.

حقيقته، وهو الأمل»[1].

وقال مقاتل: «يعني: واخشوا البعث الذي فيه جزاء الأعمال»[2].

وقال أبو حيان: «والأمر بالرجاء أمر بفعل ما يترتب الرجاء عليه، أقام المسبب مقام السبب.

والمعنى: وافعلوا ما ترجون به الثواب من الله، أو يكون أمرًا بالرجاء على تقدير تحصيل شرطه، وهو الإيمان بالله، وقال أبو عبيدة: ﴿وَارْجُوا﴾، أي: خافوا جزاء اليوم الآخر من انتقام الله منكم إن لم تعبدوه، وتضمن الأمر بالعبادة والرجاء أنه إن لم يفعلوا ذلك وقع بهم العذاب؛ كذلك جاء: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وجاءت ثمرة التكذيب، وهي: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾»[3].

أو أنهم: أمروا بالرجاء، والمراد اشتراط ما يسوّغه من الإيمان؛ كما يؤمر الكافر بالشرعيات على إرادة الشرط[4].

وقال أبو السعود: «أي: توقّعوه وما سيقع فيه من فنون الأهوال، وافعلوا اليوم من الأعمال ما تأمنون غائلته»[5].

وإنما قال شعيب بلفظ الرجاء؛ لأن عبادة الله يرجى منها الخير في الدارين[6].

وهذا موافق لما جاء في الحديث الشريف في قوله صلى الله عليه وسلم: (أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملإ، ذكرته في ملإ خير منهم، وإن تقرب إلي بشبر تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولةً)[7].

فالظن الحسن بالله يعني: الرجاء.

قال ابن الجوزي في التعليق على هذا الحديث: «اعلم أن صدق رجاء المؤمن لفضل الله عز وجل وجوده يوجب حسن الظن به، وليس حسن الظن به ما يعتقده الجهال من الرجاء مع الإصرار على المعاصي»[8].

وقال النووي: «قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواءً، وقيل: يكون الخوف

(١) تفسير القرآن ٤/ ١٨٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٣/ ٣٨٢.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٣٥٦.
(٤) السراج المنير، الشربيني ٣/ ١٤٠.
(٥) إرشاد العقل السليم ٧/ ٣٩.
(٦) مراح لبيد، الجاوي ٢/ ٢١٧.
(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، ٩/ ١٢١، رقم ٧٤٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، ٤/ ٢٠٦١، رقم ٢٦٧٥.
(٨) كشف المشكل من حديث الصحيحين ٣/ ٣٢٣.

أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح، والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال، فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى، والإذعان له»[1].

والمقصود: أن من أساليب القرآن في الحث على الرجاء الأمر به، كما في قوله: ﴿وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ﴾، وهذا الأسلوب من أقوى أساليب الحث على الشيء، إذ هو أمر صريح به.

ثانيًا: الثناء على فاعله:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء الثناء على فاعله، والقائم به، وقد حث الله تعالى في القرآن الكريم على أهل الرجاء، الراجين للقاء الله، وحسن ثوابه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

فعن قتادة قال: «أثنى الله على أصحاب نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أحسن الثناء، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٨].

هؤلاء خيار هذه الأمة، ثم جعلهم الله أهل رجاء كما تسمعون، وأنه من رجا طلب، ومن خاف هرب»[2].

وقال ابن عثيمين: «والرجاء: الطمع في حصول ما هو قريب، ومعلوم أن الطمع بما هو قريب لا يكون قريبًا إلا بفعل ما يكون قريبًا به، وهؤلاء فعلوا ما تكون الرحمة قريبة منهم، والذي فعلوه: الإيمان والهجرة والجهاد، فإذا لم يرج هؤلاء رحمة الله فمن الذي يرجوها؟ فهؤلاء هم أهل الرجاء، فالرجاء لا بد له من أسباب، وحسن الظن لا بد له من أسباب»[3].

والمقصود: أنه مدح أهل الرجاء، مما يدل على فضل الرجاء، والحث عليه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا﴾، وكرر الموصول لتعظيم الهجرة والجهاد، كأنهما مستقلان في تحقيق الرجاء، ﴿أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ﴾ أثبت لهم الرجاء إشعارًا بأن العمل غير موجب، ولا قاطع في الدلالة، سيما والعبرة بالخواتيم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما فعلوا خطأ، وقلة احتياط ﴿رَحِيمٌ﴾ بإجزال الأجر

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ٢١٠.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٣٢٠.

(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٦٤.

والثواب[1].

ومما يدل على مدح أهل الرجاء قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فهؤلاء جمعوا بين رجاء رحمته، ومخافة عذابه، وهذا هو الرجاء المحمود الذي يكون مع العمل، وبذل الأسباب.

ثالثًا: ذم تاركه:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء ذم تاركه؛ فقد ذم القرآن الكريم الذين لا يرجون الحساب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧﴾ [النبأ: ٢٧].

وهذا خبر عن أصحاب النار بأن من صفاتهم أنهم كانوا في الدنيا لا يرجون الحساب.

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

قال في الكشاف: «﴿بَلْ كَانُوا﴾ قومًا كفرةً بالبعث، لا يتوقعون ﴿نُشُورًا﴾ وعاقبةً، فوضع الرجاء موضع التوقع؛ لأنه إنما يتوقع العاقبة من يؤمن، فمن ثم لم ينظروا ولم يذكروا، ومرّوا بها كما مرّت ركابهم، أو لا يأملون نشورًا كما يأمله المؤمنون لطمعهم في الوصول إلى ثواب أعمالهم، أو لا يخافون، على اللغة التهامية»[2].

رابعًا: النهي عن ضده:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء النهي عن ضده، فقد نهى الله تعالى في القرآن الكريم عن اليأس والقنوط، الذين هما نقيض الرجاء والأمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

والقاعدة: أن النهي عن الشيء أمر بضده[3].

و﴿رَّوْحِ اللَّهِ﴾ المراد به: رحمته وفرجه، وتيسيره ولطفه في جمع الشتات، وتيسير المراد، ثم علل هذا النهي بقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ﴾، أي: لا يقنط ﴿مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾، أي: الذي له جميع صفات الجلال والإكرام ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، عياذًا بالله من سلوك سبيلهم، ومشابهة أحوالهم.

والمقصود: أن في قوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا﴾، وقوله: ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾، نهيين عن القنوط واليأس، يقتضيان الأمر بضدهما،

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٧.

(٢) الكشاف، الزمخشري ٣/ ٢٨١.

(٣) انظر: الفصول في الأصول، الجصاص ٢/ ١٠١.

وهو الرجاء والأمل.

خامسًا: اقتران الرجاء بالخوف:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء، والترغيب فيه، والدعوة إليه، قرنه بشيء مأمور به، ومرغب فيه، وعطفه عليه.

ومن هذا قرن الرجاء بالخوف الذي هو مطلوب، ومأمور به، قال الله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وهذا في سياق مدح عباد الله الصالحين أنهم جمعوا بين رجاء ما عند الله من الثواب، والخوف من العذاب، فلما قرن بين هاتين الصفتين دل على الحث عليهما، والدعوة إليهما، بحيث يكون حال العبد بين الخوف والرجاء، الخوف من عقاب الله وانتقامه، ورجاء عفوه ورحمته وفضله.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

فالحذر هو الخوف.

ونظيره أيضًا قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

فالرغبة في الدعاء والرهبة كلاهما مطلوب، بدلالة الجمع بينهما في سياق المدح.

سادسًا: الاستفهام:

ومن وسائل القرآن الكريم في الحث على الشيء المحبوب إلى الله، والترغيب فيه، والدعوة إليه، الإنكار على عدم فعله، والاستفهام والتعجب من تركه.

كما قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣﴾ [نوح: ١٣].

فقوله: ﴿مَّا لَكُمْ﴾ استفهام وتعجب، والمعنى: كيف لا ترجون لله وقارًا وهو خالقكم ورازقكم، ومحييكم ومميتكم، وإليه معادكم؟

فلماذا لا ترجونه وتعظمونه وتوقرونه، وقد دل العقل والشرع على استحقاقه التوقير والتعظيم، لما له من عظمة وكبرياء، ولما له من فضل وإنعام.

فهذا الاستفهام والإنكار عليهم تركهم للرجاء، يدل على الحث عليه، والأمر به؛ إذ لا ينكر الله عليهم إلا ترك ما ينبغي عليهم فعله، والقيام به.

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ [الانشقاق: ٢٠].

وقوله: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٧٨].

قال السعدي: «أي: لا يفهمون حديثًا بالكلية، ولا يقربون من فهمه، أو لا يفهمون منه إلا فهمًا ضعيفًا، وعلى كل فهو ذم لهم وتوبيخ على عدم فهمهم وفقههم عن

الله وعن رسوله، وذلك بسبب كفرهم وإعراضهم.

وفي ضمن ذلك مدح من يفهم عن الله وعن رسوله، والحث على ذلك، وعلى الأسباب المعينة على ذلك، من الإقبال على كلامهما وتدبره، وسلوك الطرق الموصلة إليه، فلو فقهوا عن الله لعلموا أن الخير والشر، والحسنات والسيئات، كلها بقضاء الله وقدره، لا يخرج منها شيء عن ذلك، وأن الرسل عليهم الصلاة والسلام لا يكونون سببًا لشر يحدث، هم ولا ما جاءوا به، لأنهم بعثوا بصلاح الدنيا والآخرة والدين»[(١)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٩.

وسائل تحقيق المرجو

ذكر الله تعالى في القرآن الكريم بعض الوسائل لتحقيق المرجو، منها:

أولًا: العمل الصالح:

من وسائل تحقيق المرجو العمل الصالح، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فمن كان يرجو لقاء الله وثوابه ورضوانه وجنته فليعمل، ولا يكتفي بالرجاء المجرد عن العمل، فإن الرجاء الخالي عن العمل عجز وضعف، وأمانٍ باطلة، ولهذا جاء في حديث شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الكيس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله)[(٢)].

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وهذا شرط، ولا يتحقق الشرط إلا

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٥٠، ١٧١٢٣، الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٦٣٨، رقم ٢٤٥٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له، ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٦٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ص ٦٢٥، رقم ٤٣٠٥.



بوجود المشروط.

وشرط العمل أن يكون صالحًا، لا أي عمل، والعمل الصالح هو العمل الموافق لشرع الله، من واجب ومستحب، وقد وضع العلماء له شرطين:

١. أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى.

٢. أن يكون متبعًا به سنة رسول الله، وهو ما عبر عنه بقوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وهو أخلصه أصوبه(١).

فالعمل الصالح شامل لأفعال الخير كلها الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده الواجبة والمستحبة.

والمقصود: أن من أعظم الوسائل التي يتوصل بها إلى تحقيق المرجو والمطلوب العمل الدؤوب للوصول للهدف المطلوب، وهذه قاعدة ثابتة ليست في أمور الآخرة فقط، بل هي حتى في أمور الدنيا، فمن رجا شيئًا سعى إليه، وجد في طلبه، وإلا فقد فرط في الطريق الصحيح للوصول إليه، فمن رجا ولدًا سعى في الزواج، ومن رجا زرعًا زرع وسقى وتعب وجد واجتهد، ومن رجا مالًا سعى في طلبه في العمل، وبذل الجهد.

وأعظم مرجو على الإطلاق هو الحصول على رضوان الله وجنته، ولهذا لا بد أن يكون السعي إليه وطلبه عظيم، لا تواني فيه، ولا تكاسل ولا تردد.

ثانيًا: ترك المناهي:

ومن وسائل الحصول على المرجو ترك المناهي، وأعظمها الشرك بالله تعالى، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وما يرجوه المؤمن هو دخول الجنة، ومعلوم أنها محرمةٌ على أهل الشرك، لهذا كان ترك الشرك من أعظم الوسائل لتحقيق المرجو الأخروي، وهو رضوان الله، ودخول جنته.

والشرك يشتمل الأكبر والأصغر، ويشمل قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ أيضًا ترك الرياء.

فيكون معنى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾، أي: لا يرائي بعمله، بل يعمله خالصًا لوجه الله تعالى، فهذا الذي جمع بين الإخلاص والمتابعة، هو الذي ينال ما يرجو ويطلب، وأما من عدا ذلك فإنه خاسر في دنياه وأخراه، وقد فاته القرب من مولاه، ونيل رضاه(٢).

وهكذا من يرجو النجاة من عقاب الله عليه أن يترك عموم المعاصي والسيئات، وإلا كان رجاؤه خائبًا، إذ كيف ينجو من

(١) تفسير التستري ص ١٧٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٩.

العقاب وهو قد فعل كل الأعمال التي يستحق بها العبد عقاب الله وعذابه، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

المقصود: أن من وسائل تحقيق المرجو -وأعظمه الفوز في الآخرة- اجتناب المعاصي، وأعظمها الشرك بالله الذي لا رجاء لمن أتى ربه مشركًا به غيره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝٧٤﴾ [طه: ٧٤].

ثالثًا: الدعاء:

ومن وسائل تحقيق المرجو الدعاء، فالدعاء من أعظم الأسباب في حصول ما يرجوه الإنسان ويتمناه من الفوز في الدنيا والآخرة، وانظر إلى دعاء يعقوب عليه السلام لما كان قلبه معلقًا بابنه، وكان يرجو عودته إليه مرة أخرى، لم يفقد الأمل في ذلك، بل كان راجيًا من الله عودة ابنه إليه، ولهذا استعان على ذلك بالدعاء.

قال الله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣].

الذي يعلم حاجته، وهذا دعاء، ورغبة إلى الله، ولجوء إليه، فبالدعاء تتحقق جميع المطلوبات والرغبات والرجاءات.

فحقق الله ما رجاءه من عودة ابنه إليه بعد طول السنين والأعوام، قال السعدي في قوله: ﴿وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]: فإن الرجاء يوجب للعبد السعي والاجتهاد فيما رجاه، والإياس: يوجب له التثاقل والتباطؤ، وأولى ما رجا العباد فضل الله وإحسانه ورحمته وروحه ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

فإنهم لكفرهم يستبعدون رحمته، ورحمته بعيدة منهم، فلا تتشبهوا بالكافرين، ودل هذا على أنه بحسب إيمان العبد يكون رجاؤه لرحمة الله وروحه(١).

والمقصود: أن من أعظم وسائل الحصول على ما يرجوه العبد من خيرات الدنيا والآخرة الدعاء، ومما يبين ذلك قول أصحاب الجنة: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ۝٣٢﴾ هذا رجاء [القلم: ٣٢].

قال مقاتل بن سليمان: «في الدعاء إليه»(٢).

رابعًا: الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم:

ومن أعظم الوسائل التي يحقق المسلم بها ما يرجوه في الآخرة الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وإلا فأنى له تحقيق ما

(١) المصدر السابق ص ٤٠٤.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٤٠٧.

يرجو من الفوز والنجاة، وهو بعيدٌ عن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم وهديه.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١].

ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة: ٦].

إذ أنه لا طريق موصل إلى الله إلا عن طريقه صلى الله عليه وسلم فهو المبلغ عن الله بأقواله وأفعاله وهديه وخلقه، وكثيرٌ من الناس يظنون أنهم على خير، وأنهم سالكون الطريق المستقيم، الموصل إلى الله، والدار الآخرة، وهم بعيدون عن سنة رسول الله، بل محاربون لها، مبغضون لأهلها، مبتدعون طرقًا غيرها، ثم يرجون ويتمنون الأماني، فأنى لهم الرجاء؟ وكيف لهم النجاة؟ وهم ما عرفوا هديه ولا استقاموا على شريعته، وما استضاءوا بنوره!

ولهذا قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فمن كان يرجو لقاء الله والدار الآخرة فليقتد بالرسول صلى الله عليه وسلم في أفعاله وأقواله، هذا هو الطريق الصحيح الموصل إلى ما يرجوه المسلم.

آثار الرجاء

الرجاء عبادة قلبية عظيمة؛ لها آثار جليلة، وفوائد كبيرة، وثمار عديدة، تعود على العبد في حياته، وبعد مماته، ومن هذه الثمار والآثار:

أولًا: زيادة الإيمان:

من آثار الرجاء زيادة الإيمان، قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾، أي: يتنافسون في القرب من ربهم، ويبذلون ما يقدرون عليه من الأعمال الصالحة، المقربة إلى الله تعالى، وإلى رحمته، ويخافون عذابه، فيجتنبون كل ما يوصل إلى العذاب، ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾، أي: هو الذي ينبغي شدة الحذر منه، والتوقي من أسبابه.

وهذه الأمور الثلاثة الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده، هي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور.

وعلامة المحبة ما ذكره الله: أن يجتهد العبد في كل عمل يقربه إلى الله، وينافس في قربه بإخلاص الأعمال كلها لله، والنصح

فيها، وإيقاعها على أكمل الوجوه المقدور عليها، فمن زعم أنه يحب الله بغير ذلك فهو كاذب[1].

والمقصود: أن الرجاء عمل قلبي، وعبادة عظيمة، وقد مدح الله صاحبه بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ۝٩﴾ [الزمر: ٩].

فاثبت للراجي العلم، والعلم سبب في زيادة الإيمان، والعلماء هم أكثر الناس خشيةً لربهم سبحانه وتعالى، وإيمانًا به، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

وقال السعدي: «هذه مقابلة بين العامل بطاعة الله وغيره، وبين العالم والجاهل، فليس المعرض عن طاعة ربه، المتبع لهواه، كمن هو قانت، أي: مطيع لله بأفضل العبادات، وهي الصلاة، وأفضل الأوقات وهو أوقات الليل، فوصفه بكثرة العمل وأفضله، ثم وصفه بالخوف والرجاء، وذكر أن متعلق الخوف عذاب الآخرة، على ما سلف من الذنوب، وأن متعلق الرجاء رحمة الله، فوصفه بالعمل الظاهر والباطن»[2].

ثانيًا: الحث على العمل:

ومن آثار الرجاء الحث على العمل، قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فمن ثمار الرجاء أنه يحث على العمل والبذل من أجل تحقيق المرجو، سواءً كان مما يتعلق بأمور الدنيا، أو بأمور الآخرة، فمن رجا شيئًا سعى إليه، وبذل كل ما في وسعه للوصول إليه.

وانظر في قصة نبي الله يعقوب عليه السلام لما كان يرجو عودة ابنه يوسف عليه السلام كيف أمر أولاده بالسعي والبحث والتحسس من يوسف، ولم ييأس، بل قال لهم: ﴿يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

والمقصود: أن الرجاء أعظم حادٍ يحدو إلى العمل، ويدفع إلى البذل، فليس الراجي كاليائس، فلو يأس يعقوب عليه السلام لما أمرهم بالذهاب ولا البحث ولا التحسس.

وهكذا في أمور الآخرة، فإن الرجاء في الحصول عليها يحدو إلى العمل، بل هي أشد من أمور الدنيا، ففي الدنيا ربما يحصل الإنسان على ما يرجو بغير عمل، بالوساطة مثلًا، أو بالرشوة، أو بالاحتيال، أما الرجاء فيما عند الله في الآخرة من الفضل والرضوان والرحمة والعفو، فإنه لا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦١.
(٢) المصدر السابق ص ٧٢٠.

يكون إلا بالعمل والبذل والطاعة؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فالعمل الصالح يعد وسيلةً لتحقيق الرجاء، وثمرةً له في نفس الوقت، وسيلةً من حيث أنه لا رجاء مأمولًا إلا بالعمل والبذل والسعي له، وثمرةً من ثمار الرجاء من حيث أن الرجاء دافع وحادي يحدو إلى العمل.

ثالثًا: الصبر:

ومن آثار الرجاء الصبر، فالراجون لما عند الله يوم القيامة من الأجر والثواب، هم أكثر الناس صبرًا؛ لما يصيبهم في الدنيا من اللأواء والبلاء والمصائب؛ ولهذا لما كان يعقوب يرجو من الله ثواب مصيبته، وعودة ابنه، قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

والناظر في قصة يعقوب عليه السلام هذه يلحظ أنه بدأ بالبعيد زمنًا ورجاءً، الذي هو يوسف، الذي أكله الذئب -حسب زعمهم- من سنين طويلة، فرجاء عودة الميت مستبعدة، ثم ذكر القريب، وهو أخوه بنيامين، فقال: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧].

وهذا يدل على عظيم رجائه في عودته إليه، وعدم اليأس، فلم يفقد الأمل من عودة يوسف مع تعاقب السنين، ومرور الأعوام، وفي قضية ميؤوس منها، إنه الموت، ليس بعده عودة إلى الدنيا، وقد جاءوا على قميصه بدم كذب، فانتهت القضية، وانتهت معالمها، وغطاها غبار النسيان، إلا أنه لم ييأس، ولم يفقد الأمل.

فيا له من رجاء! ويا له من أمل! ما أوسعه! هكذا كان الأنبياء أوسع الناس رجاءً، وأوسعهم أملًا، وأبعدهم يأسًا وقنوطًا؛ ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

ولهذا جاء في سياق القصة قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ﴾ إلى أرض فلسطين، شم يعقوب ريح القميص، فقال: ﴿إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: ٩٤]، أي: تسخرون مني، وتزعمون أن هذا الكلام صدر مني من غير شعور؛ لأنه رأى منهم من التعجب من حاله ما أوجب له هذا القول.

فوقع ما ظنه بهم فقالوا: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ۝٩٥﴾ [يوسف: ٩٥]، أي: لا تزال تائهًا في بحر الحب، لا تدري ما تقول، حيث كنت مترجيًا للقاء يوسف، مترقبًا لزوال الهم والغم والحزن[١].

وانظر أيضًا إلى قصة أصحاب الجنة، كيف حداهم الرجاء بما عند الله أن صبروا على ما أصابهم من هلاك جنتهم، حيث

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٠٥.

قالوا: ﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢﴾ [القلم: ٣٢].

راغبون في الأجر، راغبون في العوض، راغبون في العفو.

موضوعات ذات صلة:

الإيمان، التقوى، الخشية، الخوف





عناصر الموضوع

مفهوم الرجولة	٤٠
الرجولة في الاستعمال القرآني	٤١
الالفاظ ذات الصلة	٤٢
منزلة الرجولة	٤٤
صفات الرجولة	٤٨
الرجولة والمسؤولية	٥٩
الرجولة في الشدائد	٦٤
عوامل ضياع الرجولة	٧٠

المجلد السادس عشر

مفهوم الرجولة

أولًا: المعنى اللغوي:

الرجولة اسم مأخوذ من الرّجل، وهو لغة: الذّكر من نوع الإنسان، وتصغيره رجيل، ورويجل، والجمع رجال.

وقيل: إنّما يكون الرجل رجلًا، إذا كان فوق الغلام، وذلك إذا احتلم وشبّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، أي: ذكرين بالغين.

ويقال: امرأة رجلة، إذا كانت متشبّهة بالرّجل في بعض أحوالها، وفي الحديث: (لعن اللّه الرّجلة من النّساء)[١]، بمعنى المترجّلة، يعني اللاّتي يتشبّهن بالرّجال في زيّهم وهيآتهم، فأمّا في العلم والرّأي فمحمود[٢].

وقد تكون الرجولة صفةً بمعنى الشدة والقوة، والكرم، ومكارم الأخلاق، والرجولية: كمال الرجل، يقال: أرجل الرجلين: أقواهما، وفرس رجيل: قوي على المشي، وارتجل الكلام: قوي عليه من غير حاجة فيه إلى فكرة وروية، وترجل النهار: قوي ضياؤه، فأصل كلمة الرجل مأخوذة من الرجولية بمعنى القوة[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الرجل في الاصطلاح هو: الذّكر من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ [الأنعام: ٩].

ومن هنا يمكن تعريف الرّجولة في الاصطلاح القرآني بأنّها: اتّصاف المرء بما يتّصف به الرّجل عادة من الإيمان والقوة والشدة والسعي والجلادة ومكارم الأخلاق والنجدة والشهامة وغيرها من الصفات المشابهة[٤].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب لباس النساء، رقم ٤٠٩٩، ٤/ ٦٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٠٥٩، ٢/ ٩٠٧.

(٢) انظر: فيض القدير، المناوي ٥/ ٢٦٩.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص١٨٩، مختار الصحاح، الرازي ص ١١٩، تاج العروس، الزبيدي ٢٩/ ٣٤.

(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٤٤، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٤١، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٤٣٨.

الرجولة في الاستعمال القرآني

وردت لفظة (رجل) في القرآن الكريم (٥٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الإفراد	٢٤	﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ۝٧٨﴾ [هود: ٧٨]
التثنية	٥	﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥]
الجمع	٢٦	﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٠]

الرجال: اسم يجمع ذكور بني آدم دون إناثهم، وقد استعمله القرآن الكريم بمعناه اللغوي، على الصحيح[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٢٣٨-٢٤١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٤٧٩-٤٨٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٢/ ٤٦٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الذكورة:

الذّكر لغة:

خلاف الأنثى، وجمعه ذكور وذكران، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾ [الليل: ٣].

ويطلق على عضو التناسل منه. وقد يأتي الذكر صفة؛ كقولهم: رجل ذكر: شهم من الرجال، قوي شجاع أبي، ماض في أموره. ويقال: سيف ذكر: ماض في ضريبته، ومن الحديد أيبسه وأشده وأجوده[(١)].

الذكورة اصطلاحًا:

فلا يخرج معنى الذكورة في اصطلاح القرآن عن معناها اللغوي، سواء من حيث إنه يقابل لفظ الأنوثة، أو من حيث المعاني الزائدة على وصف الذكورة.

الصلة بين الرجولة والذكورة:

الذي يظهر أن الذكورة تأتي للجنس غالبًا وللوصف على قلة، بينما الرجولة تأتي للجنس، وتأتي للصفة على حد سواء كما سبق.

٢ الفتوة:

الفتى لغة هو:

الشاب الطريّ الحديث السّنّ، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ۝٦٠﴾ [الأنبياء: ٦٠]، وأصل الفتوّة مشتقة من الفتى[(٢)].

الفتوّة اصطلاحًا:

الإحسان وكفّ الأذى عن الغير، واحتمال الأذى منهم، واستعمال الأخلاق الكريمة مع الخلق[(٣)].

---

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٢٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٥، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٩، تاج العروس، الزبيدي ١١/ ٣٨١.

(٢) انظر: الكليات، الكفوي ص ٦٩٦، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٠٨.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٢٤٣، الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٥٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٤/ ١٧٠، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٢٠٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٧٣.

الصلة بين الرجولة والفتوة:

الرّجولة في أظهر معانيها تعني اتّصاف الإنسان بما يوصف به الرّجال عادة من الإيمان والتقوى والكرم والشهامة والأخلاق الحسنة والمواقف البطولية، أمّا الفتوّة فإنّها تعني اتّصاف المرء بما يوصف به الفتى من النّجدة والنّشاط وتوقّد الذّكاء[١].

٣ المروءة:

المروءة لغة:

الاتصاف بمحاسن الأخلاق وجميل العادات[٢].

المروءة اصطلاحًا:

الأفعال الجميلة المستتبعة للمدح شرعًا وعقلًا وعادةً[٣].

الصلة بين الرجولة والمروءة:

إن الرجولة تفيد القوة على الأعمال، ولهذا يقال في مدح الإنسان إنه رجل، والمروءة تفيد أدب النفس، ولهذا يقال المروءة أدب مخصوص[٤].

٤ الأنثى:

الأنثى لغة:

خلاف الذكر من كل شيء[٥].

الأنثى اصطلاحًا:

الأنثى: خلاف الذكر، ويطلق على الشيء الذي فيه ضعف: أنثى، فيقال لما يضعف عمله: أنثى[٦].

الصلة بين الرجولة والأنثى:

قال الزبيدي: «ويقال: هذه امرأة أنثى إذا مدحت بأنها كاملة من النساء، كما يقال: رجل ذكر، إذا وصف بالكمال من صفات الرجال، وهو مجاز»[٧].

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة مؤلفين ٥/ ٢٠٤٢.
(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٧٢، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٥٤، تاج العروس، الزبيدي ١/ ٤٢٧.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢١٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣٠٣.
(٤) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٧٧.
(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ١٠٦، مجمل اللغة، ابن فارس ص ١٠٤.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٩٣.
(٧) تاج العروس ٥/ ١٥٩.

منزلة الرجولة

تظهر منزلة الرجولة من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الرجولة نعمة:

إن الرجولة نعمة من نعم الله تعالى، يمتن بها الله عز وجل على من يشاء من عباده، ويدل على ذلك قول الرجل المؤمن الذي يعلّم صاحبه الكافر، موبخًا ومقرعًا، ومذكرًا له بنعم الله عز وجل عليه، وأن الرجولة نعمة من الله تستحق الشكر يقول له: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧].

أي: قال له صاحبه المسلم وهو يحاوره: أكفرت بالذي خلقك يعني خلق أباك، وأصلك من تراب، ثم خلقك من نطفة، يعني ماء الرجل والمرأة، ثم سواك رجلًا، أي: عدلك بشرًا سويًا ذكرًا، ﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى﴾ [الكهف: ٣٨]، يقول: أما أنا فلا أكفر بربي، ولكنا هو الله ربي، فقد اعتبرت الآية أن الرجولة من نعمة الله تعالى يجب شكرها على الإنسان[1].

كما أن الرجولة نعمة من نعم الله تعالى وهي صفة كمال يتميز بها الرجال عن النساء، ويتمثل ذلك من عدة أمور: العقل، والدية، والمواريث، والقوامة، والإمامة، والقضاء، والشهادة، والجهاد، والغنيمة، والطلاق، والرجعة، وقد أوضح هذا المعنى في آيات في كتابه العزيز منها: قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٧].

ثانيًا: النبوة والرجولة:

ذكر القرآن الكريم أن رسل الله تعالى كلهم رجال، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧].

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ١٧١، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥١٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٤١، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٣/ ١٠٧٠، تفسير الشعراوي ٥/ ٣٠٦١.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله جل شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الحج: ٥٢].

وكلمة رجال في حق الأنبياء عليهم السلام لها معنيان:

أحدهما: أن النبوة لا تنافي البشرية، وأن جميع الأنبياء عليهم السلام من جنس الرجال، بمعنى لم يكونوا نساءً، ولا ملائكةً، ولا من الجن، ولا خلقًا آخر، وإنما كانوا بشرًا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويتزوجون، ويولد لهم، ونحو ذلك من صفات البشر، إلا أن الله تعالى فضلهم بوحيه ورسالته وشرفهم على خلقه.

ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾ [الفرقان: ٧-٨].

وكذلك قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان: ٢٠].

فرد الله تعالى على المشركين الذين تعجبوا أن يكون الرسول من البشر، أي: إن جميع من سبقك من الرسل كانوا يأكلون الطعام للتغذي به، ويمشون في الأسواق للتكسب والتجارة، ولم يقل أحد إن ذلك نقص لهم يغض من كرامتهم ويزري بهم، ولم يكن لهم امتياز عن سواهم في هذا، وإنما امتازوا بصفاتهم الفاضلة، وخصائصهم السامية، وآدابهم العالية، وبما ظهر على أيديهم من خوارق العادات، وباهر المعجزات، مما يستدل به كل ذي لب سليم وبصيرة نافذة على صدق ما جاءوا به من عند ربهم، فمحمد صلى الله عليه وسلم ليس بدعًا من الرسل، إذ يأكل ويمشي في الأسواق، وليس هذا بذم له، ولا مطعن في صدق رسالته كما تزعمون(١).

كما يشير القرآن على أن النبوة مقصورة في الرجال وأن الله تعالى لو أرسل للبشر ملكًا لجعله رجلًا، وأنه لو كانت في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين، لنزل عليهم ملكًا رسولًا، وإليه أشار قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٤٢٣، ملاك التأويل، الغرناطي ٢/٢٦٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/١٥٨، تفسير المراغي ١٨/١٦١.

﴿يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام: ٩][1].

فقد جعل الله تعالى الرسل من الرجال من جنس البشر، ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود، لافتراق الجنسية، أي: ليكون أقرب إليهم لئلا يقع تنافر، فكونهم من البشر أقرب وأقوم للحجة؛ لأن الجنس إلى جنسه أميل، وأكثرهم تفهمًا وإدراكًا لما يلقى عليه من أبناء جنسه، وليكونوا قدوةً لهم في تطبيق ما يدعوهم إليه، فالرسول عندما يبلغ منهج الله عليه أن يطبق هذا المنهج في نفسه أولًا، فلا يأمرهم أمرًا، وهو عنه بعيد، بل هو إمامهم في القول والعمل[2].

وقد أوضح القرآن هذا المعنى في آيات عديدة منها: قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

أي: من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩].

فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسل إليهم منهم، بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه[3].

وقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

في هذه الآية سؤال لهم يوم القيامة وليس من الجن رسل، وقال بعض الفقهاء: إن في الجن رسل، واحتجوا بهذه الآية الكريمة، وقال بعض العلماء: المراد بالرسل من الجن نذرهم الذين يسمعون كلام الرسل، فيبلغونه إلى قومهم.

ويشهد لهذا أن الله ذكر أنهم منذرون لقومهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقال بعض العلماء: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، أي: من مجموعكم الصادق بخصوص الإنس؛ لأنه لا رسل من الجن.

قال الشنقيطي: «ويستأنس لهذا القول بأن القرآن ربما أطلق فيه المجموع مرادًا بعضه، كقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]، وقوله جل وعلا:

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٢١٣، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٨٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٦٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢١٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٢٧٤،، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٢٧٢.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٨٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٦٣، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٨٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٥٨.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس: ١٤]، مع أن العاقر واحد منهم، كما بينه بقوله جل وعلا: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ ۝٢٩﴾ [القمر: ٢٩]»[(١)].

وجعل الله تعالى الرسل من الرجال ولم يرسل رسلًا من النساء؛ لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه، لأنه يظهر للجميع، ويتحدث إلى الجميع ويبلغ الدعوة ليلًا ونهارًا وفي كل الظروف والأحوال، أما المرأة فالأصل فيها أنها مبنية على التستر والحشمة، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأسوة للناس، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا في طبيعتها أمورًا كثيرةً لا تناسب دور النبوة، ولا تتمشى مع مهمة النبي، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد؛ لأنها حائض أو نفساء[(٢)].

والثاني: أن صفات الرجولة التي تحلى بها الأنبياء هي أعلى وأرقى صفات الرجولة الكاملة التي لا يمكن أن يصل إليها غيرهم من البشر، وذلك من الإيمان والتقوى والصلاح والمروءة وخشية الله تعالى، وتبليغ رسالته، والصبر على تحمل الشدائد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ومكارم الأخلاق التي تحلى بها الأنبياء عليهم السلام.

وقد ذهب جمهور الفقهاء والمفسرين إلى أنه لم تكن النبوة في غير الرجال، قال الإمام ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠٩﴾ [يوسف: ١٠٩]: «يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسله من الرجال لا من النساء، وهذا قول جمهور العلماء، كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع.

وزعم بعضهم أن سارة امرأة الخليل وأم موسى ومريم بنت عمران أم عيسى نبيات، واحتجوا بأن الملائكة بشرت سارة بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وبقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧].

وبأن الملك جاء إلى مريم فبشرها بعيسى عليه السلام، وبقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ۝٤٢ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران: ٤٢-٤٣].

وهذا القدر حاصل لهن، ولكن لا يلزم من هذا أن يكن نبيات بذلك، فإن أراد القائل بنبوتهن هذا القدر من التشريف، فهذا لا

(١) أضواء البيان ١/ ٤٩٣.
انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٤٠.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٦٧.

شك فيه، ويبقى الكلام معه في أن هذا هل يكفي في الانتظام في سلك النبوة بمجرده أم لا؟ والذي عليه أهل السنة والجماعة، أنه ليس في النساء نبية، وإنما فيهن صديقات، كما قال تعالى مخبرًا عن أشرفهن مريم بنت عمران حيث قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فوصفها في أشرف مقاماتها بالصديقية، فلو كانت نبية لذكر ذلك في مقام التشريف والإعظام، فهي صديقة بنص القرآن»[1].

وبهذا يتبين أن النبوة والرسالة مقصورة على الرجال فقط، ويدل على ذلك أداة الحصر والقصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [النحل: ٤٣].

وقوله جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۖ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾﴾ [الأنبياء: ٧].

صفات الرجولة

تظهر صفات الرجولة من خلال النقاط الآتية:

أولًا: صفات إيمانية:

من صفات الرجولة الإيمانية التي ذكرها القرآن ما يأتي:

١. أنهم يخافون يوم الحساب.

ذكر الله تعالى أن من صفات الرجولة الحقة الخوف من الله تعالى، لأن من أعلى صفات الرجولة الإيمان بالله، والخوف من عذاب الله، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

وهذا النوع الفريد من الرجال موصوفون بالوجل والخوف، قال تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

إذ يخافون ذلك اليوم؛ لأنه يوم مجهول، وذلك اليوم عظيم جدًا، ومهول ومخوف، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾﴾ [الإنسان: ٧].

فقد قال الله تعالى عن الكفار بأنهم يتركون العمل من أجل هذا اليوم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٦٢. وانظر فتح الباري، ابن حجر ٦/ ٤٧١، عمدة القاري، العيني ١٥/ ٣٠٩.

﴿٢٧﴾ [الإنسان: ٢٧].

وقال تعالى منبهًا عن حال وأهوال هذا اليوم: ﴿يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

فلا تجد صفات أعظم من هذه الصفات في ذلك اليوم؛ حيث يتحول الطفل إلى شيخ كبير السن شعره أبيض من شدة المخاوف، وتذهل فيه المرضعة عما أرضعت، ولذلك فإن هؤلاء لا يلامون أن يخافوا؛ لأنه يوم يرجف فيه القلب رجفًا شديدًا، ومن شدة الارتجاف يصعد هذا القلب حتى يسد الحنجرة، يومًا تتقلب فيه القلوب والأبصار، تتقلب فيه القلوب؛ لأن القلوب ترى أشياء لم تكن تراها في الدنيا، وتتيقن منها، والأبصار تشاهد أشياء لم تكن تشاهدها في الدنيا، إنما كانت توصف لها وصفًا، وهذه قلوب الملاحدة وأهل الشك، وكذلك الأبصار تشاهد أشياء ما كانت تراها في الدنيا، بل كانت تسمع عنها، فانقلب القلب إلى إدراك أشياء ما كان يدركها من قبل، وانقلب البصر إلى رؤية أشياء لم يكن يراها من قبل[(١)].

ومن هنا على المسلم أن يأخذ درسًا من هؤلاء، فمهما بلغ الإنسان من الصلاح والتقى والإيمان والخشية لله عز وجل وتطبيق أوامر الله، فيجب عليه أن يكون خائفًا دائمًا؛ لأنه لا يأمن يوم القيامة إلا من خاف وحذر في الدنيا[(٢)].

وإن الخوف الذي مدح الله تعالى به المؤمنين، وحثهم عليه، هو الخوف الذي يراد به فعل الخيرات المأمور بها، فإن مخافة الله تكون بإقامة عباداته، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، والكف عن المعاصي، ونهي النفس عن الهوى، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وهو الخوف الذي يحمل صاحبه على المسارعة في الخيرات، والمذكور في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

وهذا الخوف هو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾﴾ [النحل: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

ومدحهم بها في الدنيا وحثهم عليها وأمنهم منها في الآخرة، وعلى ذلك حكى

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٠، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧٨.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٨، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٩٩.

عنهم بقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤][1].

وهذا الخوف لا يجوز تعلقه بغير الله تعالى؛ لأنه من لوازم الألوهية، ونهى الله تعالى عن مخافة الشيطان، والمبالاة بتخويفه فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران: ١٧٥].

أي: فلا تأتمروا لشيطان واتمروا لله[2].

وقد جاء هذا الوصف في آيات أخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

ولما سمعت عائشة رضي الله عنها هذه الآية من رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت: (يا رسول الله! ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، أهم الذين يسرقون ويزنون ويفعلون الفواحش فيخافون؟ قال: لا، بل هم قوم يصومون ويصلون ويتصدقون، ويخشون ألا يتقبل الله ذلك منهم)[3].

٢ . أنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

ومن صفات الرجولة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز: المحافظة على ذكر الله والصلاة، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور: ٣٧].

فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز رجال أعمال، وتجار بيع وشراء، وأهل غنى وسعة في هذه الحياة الدنيا، ليس لديهم وقت للفراغ، لكن ومع ذلك الترف كله كانت تجارتهم مع الله تعالى أغلى وأعز وأثمن وأربح تجارة إلى نفوسهم، فكان ذكر الله تعالى عندهم أربح تجارة، وكانت الصلاة

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٢٠، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٦٥، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧٨.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٠٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٥٧٨.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٢٥٢٦٣، ٤٢/ ١٥٦، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المؤمنون، رقم ٣١٧٥، ٥/ ٣٢٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب التوقي على العمل، رقم ٤١٩٨، ٢/ ١٤٠٤.

وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٠٥.

بالنسبة لهم أغلى وأثمن بيع يتاجرون فيه، فلم يكن يشغلهم شيء عن ذكر الله وعن الصلاة، وهذه هي الرجولة الحقة التي يستحق أهلها أن يوصفوا بالرجولة، فالرجل الحقيقي هو الذي يحرص دائمًا على أن يحقق أعلى المكاسب، وهؤلاء هم الذين عناهم الله عز وجل بقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [النور: ٣٧].

وهذه كلها تدل على تعظيم ورفع مستوى هؤلاء الرجال، أي: ليسوا ذكورًا فحسب ولكنهم رجال، ولذلك جاءت لفظة ﴿رِجَالٌ﴾ بلفظ التنكير، والتنكير دائمًا يدل إما على التحقير أو على التعظيم، والمراد به هنا: التعظيم، وخص التجارة بالذكر؛ لأنها أعظم ما يشتغل به الإنسان عن الصلاة والطاعات، وأراد بالتجارة الشراء، وإن كان اسم التجارة يقع على البيع والشراء جميعًا؛ لأنه ذكر البيع بعد هذا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً﴾ [الجمعة: ١١] [(١)].

ويأتي قوله تعالى: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، تعريضًا بالمنافقين أصحاب الحجج الواهية، المنشغلين عن الاتصال بالله بالتجارة وبغيرها من الأعمال.

والآية نزلت في أهل الأسواق، قاله ابن عمر، قال سالم: مر عبد الله بن عمر بالسوق وقد أغلقوا حوانيتهم وقاموا ليصلوا في جماعة، فقال: فيهم نزلت: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

وقال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(هم الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله)**، وقيل: إن رجلين كانا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، أحدهما بياعًا فإذا سمع النداء بالصلاة، فإن كان الميزان بيده طرحه ولا يضعه وضعًا، وإن كان بالأرض لم يرفعه، وكان الآخر قينًا يعمل السيوف للتجارة، فكان إذا كانت مطرقته على السندان أبقاها موضوعة، وإن كان قد رفعها ألقاها من وراء ظهره إذا سمع الأذان، فأنزل الله تعالى هذا ثناء عليهما وعلى كل من اقتدى بهما[(٢)].

كما تشير الآية إلى أن الرجال لا تلهيهم المناصب والأعمال والمشاغل بمختلف أنواعها عن الصلاة والذكر وغيرها من الواجبات.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٥١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٧٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٧٩.

ثانيًا: صفات عبادية:

ومن صفات الرجولة العبادية التي ذكرها القرآن ما يأتي:

١ . الطهارة.

ذكر الله تعالى أن من صفات الرجال: الطهارة، وأن الله يحب هؤلاء الرجال الذين هذه صفتهم.

قال تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وهؤلاء الرجال الذين تميزوا بأعلى صفات الرجولة، وامتازوا عن غيرهم، هم رجال يحبون أن يتطهروا من الأحداث والجنابات والنجاسات المذمومة؛ طلبًا لمرضاة الله سبحانه وتعالى، وأطلقت المحبة في قوله: يحبون كناية عن عمل الشيء المحبوب؛ لأن الذي يحب شيئًا ممكنًا يعمله لا محالة، فقصد التنويه بهم بأنهم يتطهرون تقربًا إلى الله بالطهارة، وإرضاءً لمحبة نفوسهم إياها، بحيث صارت الطهارة خلقًا لهم، فلو لم تجب عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم، ومجيء: رجال، نكرة يشعر بعظمتهم عند الله، وبخفاء صفاتهم على غيرهم لأنهم لا يراءون بأعمالهم، وإنما يتوجهون بها إلى خالقهم سبحانه وتعالى، والمراد بالرجال الذين يحبّون أن يتطهروا، هم الذين يلقون الله في الصلاة في المسجد، فهي صلاة مقبولة، في مكان طاهر تؤدى فيه عبادة خالصة لله، من شأنها أن تطهّر أهلها، الذين يداومون عليها، ويقيمونها بقلوب مؤمنة، خالية من الرياء والنفاق[(١)].

وجملة: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبمسجد قباء، وتعريض بمن لم يتطهروا واتخذوا من النفاق طريقًا لهم حين لجأوا إلى مسجد الضرار قاصدين التفرقة بين المسلمين، أما هؤلاء الرجال المؤمنون فقد تطهروا وفازوا بحب الله تعالى، ومن أراد أن يحبه الله فليتطهر؛ لأن الله تعالى لا يحب إلا المطهرين، والمقصود بالمحبتين هنا: محبتهم التطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهي له على إيثاره، ومحبة الله تعالى إياهم، أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم كما يفعل المحب بمحبوبه، وفيه إشارة إلى أن نفوسهم وافقت خلقًا يحبه الله تعالى، وكفى بذلك تنويهًا بزكاء أنفسهم[(٢)].

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٩٨، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٨٩.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٨٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٤٨.

ودل الاهتمام بالطهارة البدنية على الإخلاص والصفاء والاستعداد التام لملاقاة الله تعالى على أكمل وجه، وفي أحسن الأحوال، وأطيب الهيئات، فالله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإكمال الطهارة يسهل القيام في العبادة، ويعين على إتمامها وإكمالها، والقيام بمشروعاتها، والتطهر من الذنوب والمعاصي هو المؤثر في القرب من الله تعالى، واستحقاق ثوابه ومدحه[1].

٢. عمارة المساجد.

إن من صفات الرجولة التي ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز: عمارة المساجد.

قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝٣٧﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

كما يشير إلى عمارة المساجد قوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

وتحصل عمارة المسجد بأحد أمرين:

الأول: بناؤها لقصد وجه الله عز وجل، وقد ذكر الله تعالى في هذه الآيات رجالًا متصفين بصفات الرجولية، أهل الإيمان والتقوى الصادقين المخلصين الموحدين، هؤلاء الرجال من صفتهم عمارة المساجد وبناؤها ووضع أسسها، إخلاصًا وصدقًا لله عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ۝١٨﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾، إنه مسجد قباء الذي أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أصحابه رضي الله عنهم، وصلى فيه أيام مقامه بقباء من الاثنين إلى الجمعة، وقصد ببنائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله بإخلاص العبادة له، وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى، وقوله تعالى: ﴿أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾، استعارة مكنية، حيث شبهت التقوى والرضوان بأرض صلبة يقوم عليها البناء، ثم حذف المشبه به وأشير إلى شيء من لوازمه وهو التأسيس، والتأسيس إحكام أسس البناء وهو أصله، وتأسيس البنيان بمعنى إحكام أمور دينه، أو تمثيل لحال من أخلص لله وعمل الأعمال الصالحة، وفيه إشعار بأن زكاء نفس الباني، وصدق نيته،

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٥٠٧.

مؤثر في البناء، وأن تبرّك المكان، وكونه مبنيًا على الخير، يقتضي أن يكون فيه أهل الخير والصلاح، ممن يناسب حاله حال بانيه[(١)].

وهذه المساجد المؤسسة على التقوى والإخلاص وابتغاء وجه الله تعالى، وجمع المؤمنين على محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والعمل على وحدة الإسلام، أولى وأحق من غيرها بالصلاة فيها، وهي مؤسسة بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾.

ثم ذكر القرآن الكريم صورة أخرى من عمارة المساجد، وهي: صورة الكفر والنفاق والضرار، ومسجد بني رياءً وسمعةً وصدًا عن منهج الله، على قاعدة أضعف القواعد وهو الباطل والنفاق، الذي مثله مثل شفا جرف هار، في قلة الثبات والاستمساك، ووضع شفا الجرف في مقابلة التقوى لأنه جعل مجازًا عما ينافي التقوى، يعني: أن بناء هذا المسجد الذي بني ضرارًا كبناء على حرف جهنم يتهور بأهله فيها، وهو قوله: ﴿فَانْهَارَ بِهِ﴾ أي: بالباني ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩].

قال ابن عباس: «يريد: صيرهم النفاق إلى النار»، وفي قوله تعالى: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾، تصوير للعاقبة التي ينتهي إليها

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٧٤.

هذا المسجد -مسجد الضرار- بأهله الذين بنوه، وأنه إذ بنوه على ضلال ونفاق وزيف، فهو بناء على خواء، على شفا جرف هار، وأنه إذ ينهار فسينهار بهم في نار جهنم، فهم بهذا قد ظلموا أنفسهم: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[(٢)].

قال تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

للفرق بين مقاصد أهل مسجد التقوى وهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأنصاره، ومقاصد أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجسًا إلى رجسهم.

وقد وردت أحاديث عديدة في فضل بناء المساجد وآدابها منها:

ما رواه عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من بنى مسجدًا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنّة وفي رواية بيتًا في الجنة)[(٣)].

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٧١١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٢٥، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٦/ ٨٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب من بنى مسجدًا، رقم ٤٥٠، ١/ ٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل بناء المساجد والحث عليها، رقم ٥٣٣،

وما روته عائشة رضي الله عنها قالت: (أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور وأن تنظّف وتطيّب)[1].

الثاني: عمارتها بالتسبيح والتحميد والتهليل والصلاة.

ذكر الله تعالى النوع الثاني من عمارة المساجد، وهي عمارتها بالصلاة والتسبيح والذكر، ويتلى فيها كتابه آناء الليل وأطراف النهار، كما يشير إلى عمارة المساجد قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٦-٣٧].

فقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾، أي فيه رجال يعمرونه بإقامة الصلاة وذكر الله وتسبيحه فيه بالغدو والآصال، ويحبون أن يتطهروا بذلك مما يعلق بأنفسهم من أوضار الذنوب والآثام، رجال معلقة قلوبهم بالمساجد، متصلة قلوبهم بربهم، وأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الاتصال بالله[2].

وهؤلاء الرجال مرتبطون بالمساجد بالغدو والآصال، فعلاقتهم علاقة متينة مع الله تعالى، لهذا لا يسبح له فيها بالغدو والآصال إلا: ﴿رِجَالٌ﴾ التي جاءت نكرة، ليكون في الوصف بعد ذلك اشتياق، فغموض النكرة يجعل المتلقي يسأل: ومن الرجال؟ وما صفاتهم؟ كما أن في تأخير النكرة اعتناءً بالمؤخرة، وفي وصفه نوع طول فيخل تقديمه بحسن الانتظام.

والتسبيح في قوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا﴾، المقصود به الصلاة، وأطلق التسبيح على الصلاة لأنه جزء منها، ويطلق الجزء على الكل أحيانًا، وهؤلاء الكرام يديمون هذا التسبيح ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾، أوائل النهار وأواخره، وكذلك الليل.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

وهؤلاء المديمون ذكره صباح مساء ابتغاء خيره هم (رجال) عظام، وأي رجال كبار فخام، ولذلك وصفهم بأنهم: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾، ولا عن ﴿وَإِقَامِ الصَّلَاةِ﴾ بوقتها، فإنهم لا يؤخرون شيئًا عن وقته، كما أمروا به، عدا ما هم عليه

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب اتخاذ المساجد في الدور، رقم ٤٥٥، ١/ ١٢٤، والترمذي في سننه، أبواب السفر، باب ما ذكر في تطيب المساجد، رقم ٥٩٤، ٢/ ٤٩٠.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود ١/ ٣٧٨.
٢/ ٣٥٤.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٢٦، بيان المعاني، عبد القادر العاني ٦/ ١٤١.

من الأعمال الصالحة المذكورة، لعلمهم بشدة هول يوم القيامة، وتوغل معرفتهم بالله، وخالص يقينهم بأنهم مهما عبدوه لم يؤدوه حقه ولا بعض حقه، وأن أعمالهم كلها لا تؤهلهم دخول الجنة، إذا لم يشملهم برحمته، ولعلمهم أنه تعالى لا يتقيد بشيء ولا يسأل عما يفعل، وقد وفقوا للخوف والخشية منه بفضله[1].

٣. أنهم يؤتون الزكاة.

كما أن من صفات الرجولة التي ذكرها القرآن الكريم هي: إيتاء الزكاة التي جعلها الله حقًا في أموال الأغنياء للفقراء.

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

لأن الزكاة أخت الصلاة، وتأتي الزكاة في القرآن عادةً مقرونةً بالصلاة، من غير فصل، ولا شك أن تطهير النفس بأعمال البر، وإيتاء الزكاة تطهير للنفوس والأبدان من أدناس الآثام، ودفع زكاة المال من صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الجنة؛ إذ كان المال والتصرفات الدائرة حوله، هو المحك الذي تظهر به أخلاق الناس، لما للمال من سلطان على النفوس، في جمعه، وفي إنفاقه، وإيتاء الزكاة يحقق استعلاء النفس على شحها الفطري، وإقامة نظام لحياة الجماعة يرتكن إلى التكافل والتعاون، ويجد الواجدون فيه والمحرومون الثقة والطمأنينة، ومودات القلوب التي لم يفسدها الترف ولا الحرمان[2].

ولأن هؤلاء الرجال صدقوا مع ربهم ومع أنفسهم في إعطاء الزكاة جاء قوله تعالى: ﴿وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ لتفخيم ذلك وتعظيمه، إذ عبر عنه بما يفيد ذلك من خلال التعبير بلفظ الإيتاء، فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ [سبأ: ١٠].

فدل على أن هذه الزكاة من أفعال المؤمنين الصادقين المفلحين، والتعبير بالإيتاء فيه معنى القبول أيضًا[3].

ويلاحظ من خلال الآيات أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مرتبطة بعمارة المساجد؛ لأن الإنسان إذا عمر المسجد أقام الصلاة وآتى الزكاة؛ لأن عمارة المسجد إنما

(١) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٢٦، بيان المعاني، عبد القادر العاني ٦/ ١٤١.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٣١٢، في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٧٨٣، تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٥٣٠، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٣٠٧.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٦١، الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ٣٦٨، الكليات، الكفوي ص ٢١٢.

تلزم لإقامة الصلاة فيه، ولا يشتغل بعمارة المسجد إلا إذا كان مؤديًا للزكاة؛ لأن الزكاة واجبة وعمارة المسجد نافلة، ولا يشتغل الإنسان بالنافلة إلا بعد إكمال الفريضة الواجبة عليه[1].

ثالثًا: صفات أخلاقية:

من صفات الرجولة الأخلاقية التي ذكرها القرآن ما يأتي:

١ . الوفاء بالعهد.

ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن من صفات الرجولة الحقة: الوفاء بالوعد.

قال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقد أثنى الله تعالى على الذين يوفون بالعهد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٥].

وذمّ الذين ينقضون العهد من المنافقين وغيرهم، فقال تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾، أي: عاهدوا الله ثم صدقوا في الوعد، وصدقوا ما عاهدوا الله على هذا المنهج، استمروا عليه، تشبثوا به، وساروا غير مضطربين ولا متحيرين، لا تعيقهم العوائق، ولا تقف أمامهم الصعوبات ولا الشهوات، ولا الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام، نموذج فريد عجيب في صدر الإسلام أوفوا بما عاهدوا عليه من الصبر على البأساء والضراء، وحين البأس، والثبات مع الرسول صلى الله عليه وسلم والمقاتلة للأعداء، والطاعات، وتعظيم العهد الذي عظمه الله تعالى[2].

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾، من المؤمنين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم من السابقين الأولين، من الثبات للقاء العدو عكس المنافقين إذ زادهم اللقاء جبنًا وإنكارًا لما وعدهم الله ورسوله وتكذيبًا وجحودًا، أما هؤلاء الكرام ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾، فمات شهيدًا في واقعة أحد وفاء بنذره وعهده وميثاقه على الاستمرار في القتال حتى النهاية، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة، ويتوقعها باشتياق للفوز بما عند الله من الكرامة للشهداء، قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ما بدلوا ولا غيروا ولا انحرفوا، بل هم مستقيمون على هذا المنهاج، ينتظرون أمر الله تعالى أن يتوفاهم وهم سائرون على هذا

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣٤٢، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/٣٠٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣١.

الدرب مستقيمون عليه، لا يلوون على شيء إلا مرضاة ربهم عز وجل[(١)].

والوفاء بالعهد خلق من أخلاق الإسلام، وسمة من سماته التي يحرص عليها، ويكررها القرآن كثيرًا، ويعدها آية الإيمان، وآية الآدمية وآية الإحسان.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ [الإسراء: ٣٤].

وهي ضرورية لإيجاد جو من الثقة والطمأنينة في علاقات الأفراد، وعلاقات الجماعات، وعلاقات الأمم والدول، تقوم ابتداءً على الوفاء بالعهد مع الله، وبغير هذه السمة يعيش كل فرد مفزعًا قلقًا لا يركن إلى وعد، ولا يطمئن إلى عهد، ولا يثق بإنسان، ولقد بلغ الإسلام من الوفاء بالعهد لأصدقائه وخصومه على السواء قمةً لم تصعد إليها البشرية في تاريخها كله، ولم تصل إليها إلا على حداء الإسلام وهدي الإسلام[(٢)].

وقد جعل القرآن الكريم نقض العهد من صفات الكافرين والمنافقين.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

كما بين الله تعالى أن الكافرين ليس لهم عهد: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: ١٠٢].

وقد لعن الله تعالى من ينقض العهد، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ [الرعد: ٢٥].

وهذا نص صريح أن الله تعالى جعل نقض العهد من الكبائر، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب: ١٥][(٣)].

(١) انظر: بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥/ ٤٦٣.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣١، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٦١.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٣٧، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣١.

والخلاصة في هذا المبحث هي: أن الرجولة ليست كما يظن البعض مال وثروة وجاه وشهرة، وليست منصبًا أو وظيفةً، وليست أفلامًا أو مسلسلات، وليست الرجولة بناء الأجسام، ومتابعة كرة القدم، ولا امتلاك السيارات، ولا العمارات، وليست الأزياء ولا هي الموضات، إنها القيم والأخلاق والمبادئ، والعبادة والعمل، والصدق والوفاء، رسم ملامحها القرآن الكريم، إيمان يزن الجبال، والحفاظ على الصلاة، والذكر في بيوت الله، والدفاع عن الأوطان، والوقوف في وجه البطل، وكلمة حق يراد بها وجه الله، فأمتنا اليوم في أمس الحجة إلى هؤلاء الرجال، رجولة في كل المجالات وفي شتى الميادين، رجال كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وصهيب، وعمار، وياسر، وخالد، وصلاح الدين.

الرجولة والمسؤولية

لقد فضل الله تعالى الرجال على النساء بالولاية العامة والإمامة، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: القوامة:

ذكر القرآن الكريم أن الرجال قوامون على النساء.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾ [النساء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٣٢)﴾ [النساء: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٨)﴾ [البقرة: ٢٢٨].

والقوامة هي: القيام على الأمر أو المال ورعاية المصالح، وتسيير شئون الأسرة والقيام على مصالحها بقيادة الرجل، وذلك لما فضل الله الرجل على المرأة بسعة العقل والخبرة، والحكمة والاتزان دون التأثر السريع بالعواطف العابرة؛ ولأنه هو الذي ينفق ماله وكسبه من بداية تكوين الزواج بدفع المهر، إلى نهايته بالنفقة الدائمة على شؤون الحياة بتوفير المسكن والملبس والطعام، وهذا هو سبب القوامة ومنشأها، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤].

وقد ذكر العلماء في فضل الرجال أمورًا منها: العقل، والحزم، والعزم، والقوة، وأن منهم الأنبياء، وفيهم الإمامة الكبرى، والصغرى، والجهاد، والأذان، والخطبة، والشهادة في الحدود، والقصاص، والزيادة في الميراث، والولاية في النكاح، وإليهم الانتساب، وغير ذلك[(١)].

وجعل القوامة للرجل؛ لأن كل شركة، أو حياة اجتماعية تتطلب وجود رئيس مسئول عنها، يتحمل الأعباء، ويستعد لتحمل المغارم والخسارات، ويدير أمر هذه المؤسسة بما يوصلها إلى شاطئ الأمن والسعادة والاستقرار، في داخل المنزل وخارجه، تعليمًا وتعلمًا، وتمكينًا من ممارسة الخبرات والمهارات التي تفيد الزوجة والفتاة في حاضر الزمان ومستقبله[(٢)].

وإذا كان اضطلاع الرجل غالبًا بالمهام الملقاة على عاتقه خارج المنزل، لتوفير الموارد المالية والمكاسب المطلوبة لحياة الأسرة، فإن المرأة تضطلع غالبًا بمسؤوليات جسام تكمل مهمة الرجل، في رحاب البيت، فهي الملكة التي تربي الأولاد على الأخلاق والفضائل، وهي التي تعين الرجل على توفير متطلبات الحياة[(٣)].

من خلال الآيات يتبين أن الرجال قوامون على النساء لأمرين:

الأول: تفضيل جنس الرجال على جنس النساء، وذلك بما خصّ الله تعالى به الرّجل من الفضيلة الذّاتيّة له، والفضل الذي أعطيه من العقل والمال والجاه والقوّة والقوامة،

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٤٨، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٥٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٣٨، روائع البيان، الصابوني ١/ ٤٦٦، تفسير الشعراوي ٤/ ٢١٩٢.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٤٨، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٥٣٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٣٨.

(٣) انظر: المصادر السابقة.

وهذا التفضيل الذي جعله الله تعالى في حق الرجال إنما هو من أجل تنظيم الأسرة وإصلاحها ورعايتها والحفاظ عليها والدفاع عنها بما يتناسب مع جنس الرجال، وما فطرهم الله عليه ليكونوا قوامين لهذه المسؤولية الملقاة عليهم[(١)].

الثاني: قيام الرجال بالإنفاق على النساء بما يدفعونه من المهور وغيرها من النفقات، وقوله تعالى: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، منتظم للمهر والنفقة؛ لأنهما جميعًا مما يلزم الزوج لها، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ [الطلاق: ٧].

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف)[(٢)].

ووجه التفضيل أن الرجل له الكدح، وله الضرب في الأرض، وله السعي على المعاش، وذلك حتى يكفل للمرأة سبل الحياة اللائقة عندما يقوم برعايتها[(٣)].

وكون القوامة الدنيوية بيد الرجال لا يعني أن جنس الرجال أفضل من جنس النساء عند الله، فأساس التفضيل عند الله ليس الجنس أو اللون، إنما هو الإيمان والتقوى، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فإذا كانت المرأة صالحة تقية كانت أفضل عند الله من زوجها غير التقي، أو الأدنى منها في التقوى[(٤)].

كما لا تعني القوامة للرجل على المرأة أن ذلك يعارض حريتها، بل على العكس القوامة تحافظ على حرية المرأة وشرفها، قال تعالى: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾، أي: شأنهم القيام عليهن قيام الولاة على الرعية بالأمر والنهي ونحو ذلك، واختيار الجملة الاسمية مع صيغة المبالغة للإيذان بعراقتهم ورسوخهم في الاتصاف بما أسند إليهم، وفي الكلام إشارة إلى سبب استحقاق الرجال الزيادة في الميراث[(٥)].

وفي قوله تعالى: ﴿بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾، إشارة إلى أن القوامة محصورة

---

(١) انظر: المصادر السابقة، روائع البيان، الصابوني ١/ ٤٦٦، تفسير الشعراوي ٤/ ٢١٩٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ١٢١٨، ٢/ ٨٩٠.

(٣) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٥٣١، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٠، روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٣٧.

(٤) انظر: القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ١/ ٤٠٨.

(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٣.

في الرجال، فقد جعل القرآن سبب القوامة معلومًا للناس من فضل الرجال ومن إنفاقهم ليصلح الخطاب للفريقين: عالمهم وجاهلهم، وكذا لم يصرح سبحانه بما به التفضيل رمزًا إلى أنه غني عن التفصيل، وقد ورد في الحديث: (**أنهن ناقصات عقل ودين**)[(١)]، والرجال بعكسهن كما لا يخفى[(٢)].

قال الشنقيطي: «فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة لا يمكن أن تتحقق؛ لأن الفوارق بين النوعين كونًا وقدرًا أولًا، وشرعًا منزلًا ثانيًا تمنع من ذلك منعًا باتًّا، ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى، صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر، ولا شك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر، لتحطيم هذه الفوارق التي لا يمكن أن تتحطم، وقد ثبت في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: (**لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء، والمتشبهات من النساء بالرجال**)[(٣)]، ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكونية القدرية بين الذكر والأنثى، فرق الله جل وعلا بينهما في الطلاق، فجعله بيد الرجل دون المرأة، وفي الميراث، وفي نسبة الأولاد إليه»[(٤)].

(١) هذه العبارة جزء من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء، فقال: (يا معشر النساء، تصدقن، فإني أريتكن أكثر أهل النار)، فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: (تكثرن اللعن، وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)، قلن: وما نقصان ديننا وعقلنا يا رسول الله؟ قال: (أليس شهادة المرأة مثل نصف شهادة الرجل)، قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان عقلها، أليس إذا حاضت لم تصل ولم تصم)، قلن: بلى، قال: (فذلك من نقصان دينها).
أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب ترك الحائض الصوم، رقم ٣٠٤، ١/ ٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات، وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله، ككفر النعمة والحقوق، رقم ٧٩، ١/ ٨٦.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٤٨، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٥٣١، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦١١، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٣٧.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب في لباس النساء، رقم ٤٠٩٧، ٤/ ٦٠، والترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في المتشبهات بالرجال من النساء، رقم ٢٧٨٤، ٥/ ١٠٦، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب في المخنثين، رقم ١٩٠٤، ١/ ٦١٤.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٢٢٨.

(٤) أضواء البيان ٧/ ٤١٥.



ثانيًا: الإمامة:

١. الإمامة العامة.

لقد فضل الله تعالى الرجل على المرأة في الولاية؛ فإن الله سبحانه وتعالى جعل الرجل قوامًا على المرأة؛ فالرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض؛ ولهذا لا يحل أن تتولى المرأة ولايةً عامةً أبدًا؛ فالولاية العامة ليست من حقوق النساء أبدًا، والمرأة لا تصلح لهذا المنصب؛ لأن المرأة ناقصة في أمر نفسها، حتى لا تملك النكاح، فلا تجعل إليها الولاية على غيرها، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾، فلو كانت لهن القدرة على القيام بشؤون أنفسهن لما وكل الله أمرهن إلى الرجال[(١)].

ولحديث أبي بكرة رضي الله عنه، قال: (**لقد نفعني الله بكلمة سمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الجمل، بعد ما كدت أن ألحق بأصحاب الجمل فأقاتل معهم، قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس، قد ملكوا عليهم بنت كسرى، قال: (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة)**)[(٢)].

والفلاح: الفوز بالمطلوب، والتدبير يحتاج إلى كمال الرأي، ونقص المرأة مانع، وفي الحديث دليل على أن المرأة لا تلي الإمارة، ولا القضاء، ولا عقد النكاح[(٣)].

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: «أن الذين لهم درجة على النساء هم الرجال الذين هم جديرون بهذا الوصف؛ وأما من جعل نفسه بمنزلة النسوة فهذا يكون شرًا من المرأة؛ لأنه انتكس من الكمال إلى الدون؛ ومن ثم لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء؛ والمتشبهات من النساء بالرجال؛ حتى لا يعتدي أحد على حق؛ أو على اختصاصات أحد»[(٤)].

٢. الإمامة في الصلاة.

إن الإمامة موضع شرف ورفعة وعلو منزلة وتقدم على الناس في أهم أمر الدين، وأجل عبادة المسلمين، وهي مما يلزمه الخلفاء، ويقوم به الأمراء، فلا يجوز أن تكون المرأة إمامًا للرجال لنقصها[(٥)].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٢٧٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر، رقم ٤٤٢٥، ٦/ ٨.

(٣) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٣/ ٥٦، عمدة القاري، العيني ٢٤/ ٢٠٤.

(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ١٠٧.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٥٦، المنتقى شرح الموطإ، الباجي ١/ ٢٣٥، كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٢٠٢، فتح الباري، ابن رجب ٦/ ١٧٦، سبل السلام، الصنعاني ١/ ٣٧٣.

قال ابن قدامة: «وأما المرأة فلا يصح أن يأتم بها الرجل بحال، في فرض ولا نافلة في قول عامة الفقهاء»[(١)].

ولحديث أنس بن مالك رضي الله عنه، أن جدته مليكة دعت رسول الله صلى الله عليه وسلم لطعام صنعته فأكل منه، ثم قال: (قوموا فلأصلي لكم)، قال أنس: فقمت إلى حصير لنا قد اسود من طول ما لبس فنضحته بماء، فقام عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصففت أنا واليتيم وراءه، والعجوز من ورائنا فصلى لنا ركعتين، ثم انصرف صلى الله عليه وسلم[(٢)].

فقد نبه الحديث على أن إمامة المرأة للرجال لا تجوز، لأنه لما لم يجز أن تساويهم في الصف كانت من أن تتقدمهم أبعد[(٣)].

الرجولة في الشدائد

تظهر الرجولة في الشدائد من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الجهاد:

إن الجهاد سنة ماضية في سبيل الله، لا يقوم به إلا الرجال الأقوياء الصادقون، الذين نذروا أنفسهم وأموالهم لله تعالى، وقد ذكر القرآن الكريم نموذجًا فريدًا من المؤمنين بالله، المصدقين برسوله الذين صدقوا بما عاهدوا الله عليه، من حسن البلاء والتفاني في الجهاد، والثبات على العهد مع الله تعالى، والصبر في اللأواء وحين البأساء، فاستشهد بعضهم يوم بدر، وبعضهم يوم أحد، وبعضهم في غير هذه المواطن، ومنهم كذلك من ينتظر قضاءه والفراغ منه، كما قضى من مضى منهم نحبه على الوفاء لله بعهده، وما غيروه وما بدلوه ومنهم من ينتظر الشهادة، ويتوقعها باشتياق للفوز بما عند الله من الكرامة للشهداء والدرجات التي أعدها الله لهم.

قال الله عز وجل: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣-٢٤].

---

(١) انظر: المغني ٢/ ١٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة على الحصير، رقم ٣٨٠، ١/ ٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة، والصلاة على حصير وخمرة وثوب، وغيرها من الطاهرات، رقم ٦٥٨، ١/ ٤٥٧.

(٣) انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٢٠٢، فتح الباري، ابن رجب ٦/ ١٧٦، سبل السلام، الصنعاني ١/ ٣٧٣، نيل الأوطار، الشوكاني ٣/ ١٩٦.

ما بدلوا ولا غيروا ولا انحرفوا، بل هم مستقيمون على هذا المنهاج، ينتظرون أمر الله تعالى أن يتوفاهم وهم سائرون على هذا الدرب مستقيمون عليه، لا يلوون على شيء إلا مرضاة ربهم عز وجل، بخلاف المنافقين فإنهم قالوا لا نولي الأدبار، فبدلوا قولهم، وولوا أدبارهم، ونقضوا عهدهم، وذمهم الله تعالى.

وقال سبحانه: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦-٢٧].

وقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٤].

أي: بصدق ما وعدهم في الدنيا والآخرة، كما صدقوا مواعيدهم، ويعذب المنافقين الذين كذبوا وأخلفوا[(١)].

والإخبار عنهم برجال زيادة في الثناء؛ لأن الرجل مشتق من الرجل وهي قوة اعتماد الإنسان كما اشتق الأيد من اليد، رجال من المؤمنين ثبتوا في وجه العدو يوم أحد وهم: عثمان بن عفان، وأنس بن النضر، وطلحة بن عبيد الله، وحمزة، وسعيد بن زيد، ومصعب بن عمير، فأما أنس بن النضر وحمزة ومصعب بن عمير، فقد استشهدوا يوم أحد، وأما طلحة فقد قطعت يده يومئذ، وهو يدافع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما بقيتهم فقد قاتلوا ونجوا[(٢)].

فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: غاب عمي أنس بن النضر عن بدر، فشق عليه، وقال: أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه، لئن أراني الله تعالى مشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بعد ليرين الله تعالى ما أصنع، فشهد يوم أحد، فاستقبله سعد ابن معاذ رضي الله عنه، فقال: يا أبا عمرو إلى أين؟ قال: واها لريح الجنة أجدها دون أحد، فقاتل حتى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية، ونزلت هذه الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].. **إلخ)**[(٣)].

وهذه الصورة الوضيئة لهذا النموذج من المؤمنين الصادقين المخلصين تذكر هنا تكملة لصورة الإيمان، في مقابل صورة النفاق والضعف ونقض العهد من ذلك

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٦٣، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٥/ ٤٦٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٠٧، تفسير المراغي ٢١/ ١٤٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٣٠٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب قول الله تعالى: (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، رقم ٢٨٠٥، ٤/ ١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم ١٩٠٣، ٣/ ١٥١٢.

الفريق، لتتم المقابلة في معرض التربية بالأحداث وبالقرآن، وتذكر المسلمين بإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، لتكتمل التربية، وتثبت القلوب وتستمسك بالعروة الوثقى، وتنهض من كبوتها، وتسترد الثقة والطمأنينة، فتسير في طريق السابقين أصحاب الوفاء وأهل الإخلاص[1].

وذكر القرآن الكريم نموذجًا آخر من الرجال المؤمنين الصادقين المجاهدين الذين يقفون في وقت الشدائد، وينصرون الله ورسوله في أصعب المواقف الحرجة التي تواجه الدعوة.

قال تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وهذان الرجلان من بني إسرائيل من الذين يخافون مقت الله وعقابه، والذين أنعم الله عليهما بالثبات على الإيمان والوفاء بالعهد، نصحوا قومهم بالجهاد والتوكل على الله تعالى في الدفاع عن أنفسهم وعن وطنهم، ولم يمنعهم الخوف من أن يقولوا الحق فأثنى الله تعالى عليهما بذلك، فدل على فضيلة قول الحق عند الخوف وشرف منزلته، وقالا مخاطبين قومهم: ﴿ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي: باب قرية الجبارين، فنحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم وعددهم، فإنهم لا قلوب لهم ولا منعة عندهم، ومتى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلدة التي كتبها الله لكم، ولكن بني إسرائيل لم ينفع ذاك فيهم شيئًا، ولجوا في عصيانهم، وسمعوا من العشرة النقباء الجواسيس الذين خوفوهم أمر الجبارين، ووصفوا لهم قوة الجبارين وعظم خلقهم، فصمموا على خلاف أمر الله تعالى، ﴿قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم وتخلف عن مقاتلة الأعداء، ومن هنا تبرز قيمة الإيمان بالله والخوف منه، فهذان رجلان من الذين يخافون الله، ينشئ لهما الخوف من الله استهانة بالجبارين! ويرزقهما شجاعة في وجه الخطر الموهوم! وهذان هما يشهدان بقولتهما هذه بقيمة الإيمان في ساعة الشدة، وقيمة الخوف من الله في مواطن الخوف من الناس، فالله سبحانه لا يجمع في قلب واحد

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد ٥/ ٢٨٤٤.

بين مخافتين، مخافته جل جلاله ومخافة الناس[1].

والرجولة في الجهاد تكون بكل صوره وأشكاله، سواءً أكان ذلك بالنفس أو المال أو بقول كلمة حق عند سلطان جائر، لما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، أو أمير جائر)**[2].

ثانيًا: نصرة الحق وأهله:

إن من صفات الرجولة الوقوف في الشدائد ونصرة الحق والدفاع عنه والتضحية في سبيله مهما يكن الثمن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢٠ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢١﴾ [القصص: ٢٠-٢١].

وقال سبحانه: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠﴾ [يس: ٢٠].

فقد ذكر القرآن الكريم في هذه الآيات هذا النموذج الفريد في إيمانه وصدقه وإخلاصه وشجاعته في نصرة الحق، رجال المواقف في ميدان الرجولة النادرة التي تخلى عنها الكثيرون، أن يقف مثل هذا الموقف الخالد الذي سجله القرآن وأثنى الله تعالى عليهم.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

هذا الرجل من بني إسرائيل الذي استشعر المسؤولية الواجبة عليه في هذا الموقف العصيب، وهي إبلاغ موسى عليه السلام بمؤامرة خبيثة تحاك ضده، تناسى كل الأخطار والمصائب واختصر الطريق ليؤدي واجبه الإنساني تجاه رجل بريء لينقذه من الموت، في جد واهتمام ومسارعة، مصحوبًا بعقيدة حية في ضمير مؤمن يقظ واثق مطمئن، وقال: إن القوم يريدون قتلك، وأنا واقف على تدبيرهم وقد أرادوا إعلام فرعون، فاخرج من هذا البلد،

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٧٥، أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ٥٠٠، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٦/ ٣١٣.

(٢) أخرجه أبو داود كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، رقم ٤٣٤٤، ٤/ ١٢٤، والترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر، رقم ٢١٧٤، ٤/ ٤٧١، والنسائي في سننه، كتاب البيعة، فضل من تكلم بالحق عند إمام جائر، رقم ٤٢٠٩، ٧/ ١٦١، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، رقم ٤٠١١، ٢/ ١٣٢٩.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٢٤٨.

إني لك من الناصحين.

فهذا الرجل الناصح الأمين المحب لموسى عليه السلام الذي يريد أن ينقذ موسى عليه السلام من القتل، تجده يسعى من أقصى المدينة، والتعبير بـ﴿أَقْصَا﴾ يدل على المحبة الخالصة الطيبة، ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدوًا لا قرار عنده ولا اطمئنان، ووصفه بالرجولية لأنه خالف الطريق، فسلك طريقًا أقرب من طريق الذين بعثوا وراءه، فسبق إلى موسى عليه السلام، وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ﴾، وهو كبار القوم يدبرون الأمر ليقتلوك[1].

وكذلك الحال في قصة مؤمن آل ياسين عليه السلام فقد جاء الرجل من أقصا المدينة إلى أقصاها لا يمنعه مانع، ليضرب لمجتمع المؤمنين المثل في كيفية الحرص على دعوة ربهم، والحرص على الدفاع عن الدعاة والقائمين على أمور الدعوة، والحرص على مناصرة الحق وأهله مهما كان الثمن، ومهما بلغ التعب في سبيل ذلك، فقد جاء ناصحًا ينصح لهم ويحثهم على اتباع الرسل، المرسلين إليهم، وأن يقبلوا ما يأتون به من عند مرسلهم، فهذا الرجل الناصح الأمين تجده يسعى من أقصى المدينة، والتعبير بأقصى يدل على المحبة الخالصة الطيبة، كما يدل على أنه جاء من أبعد مواضعها فهي مترامية الأطراف والتعبير بالمدينة يدل على كبرها فهي ليست قرية محدودة! ثم كلمة يسعى تدل على أنه جاء عدوًا، لا قرار عنده ولا اطمئنان[2].

وهذا المشهد القرآني يوضح عظمة الحق في قلوب الرجال ومحبته، وفيه عناية الله بمن اصطفاه لذلك، واختاره للقيام بهذه المهمة ووعده بالنصر والنجاة مما يحاك له من المكائد.

كما أن في هذه الآيات عظة وعبرة لكل مؤمن بأن يكون يقظًا في كل ما يمس دينه وعقيدته ووطنه، ورجال دولته ورجال الدعوة الخيرين المخلصين، وفيها أن الرجولة في القرآن الكريم صفات رفيعة، وأخلاق فاضلة، وشجاعة نادرة، ورأي سديد في الأوقات العصيبة، وأن الرجل يقوم بواجب النصيحة ولا يتأخر بها عن وقتها، كما فعل هذا الرجل الإسرائيلي الذي أتى لنصح موسى عليه السلام حيث إنه لم يأت للتحذير فقط من مكيدة فرعون وقومه، بل إنه أتى بالحل والمخرج من هذه المحنة العصيبة، وهذا التآمر الخبيث بقوله، ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾[3].

---

(1) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٦، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٩١.

(2) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ١٣٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٢٦، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٩١.

(3) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٩٧.

ومن خلال النظر في الآيتين نلمس ما يأتي:

وجاء تقديم قوله: ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ على: ﴿رَجُلٌ﴾ بيانًا لفضله، إذ هداه الله تعالى مع بعده عنهم، وأن بعده لم يمنعه من الانطلاق لمناصرة الرسل من أقصا المدينة إلى أقصاها، وربما يكون التقديم اهتمامًا بشأن المقدم، وقيل: أن تقديم الجار والمجرور في آية يس، لأن ما قبل هذه الآية دال على سوء معاملة أهل المدينة للرسل، فكان ذلك مظنة أن يسأل سائل: أكانت هذه المدينة كلها بهذه الصفة أم أن فيها موطنًا هو منبت خير؟ لذلك قدم ما يشتمل على المدينة لأنها أهم عند المخاطب[1].

وجاء التعبير عن الرجل بالنكرة ﴿رَجُلٌ﴾، ليفيد التعظيم لهذا الرجل، ومعلوم أن التنكير فيه معاني شاملة عميقة وكلها صالحة للتعبير عن المعنى المقصود، ثم إنه رجل مجهول منكور، لا يعرفه أحد.

كما أن الرجل يسرع في القيام بواجب النصيحة، وإن كان محله بعيدًا لما في ذلك من الحرص والتوجه والقصد إلى الله تعالى، فيحس بواجبه ومن ثم يقوم بمناصرة الحق، ومقاومة الباطل وأهله، ويكف عن الدعاة بغي الباغين، فقد جاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال: (من مشى مع مظلوم ليعينه على مظلمته، ثبت الله قدميه على الصراط يوم القيامة، يوم تزل الأقدام)[2].

ثالثًا: إنكار المنكرات:

ومن صفات الرجولة التي ذكرها القرآن الكريم الوقوف في وجه المنكر ومحاربته بكل صوره وأشكاله.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾﴾ [هود: ٧٨].

فقد ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة: أن نبيه لوطًا عليه السلام وعظ قومه ونهاهم أن يفضحوه في ضيفه، وعرض عليهم النساء، وترك الرجال، فلم يلتفتوا إلى قوله، وتمادوا فيما هم فيه من إرادة الفاحشة، وتلطف لوط عليه السلام وبالغ في التلطف إلى قومه، عله يدفع هذا الخزي عن ضيوفه، ولكنه لما رأى إصرارهم على فجورهم وبخهم بقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ يهدي إلى الرشد والفضيلة.

وفيه إشارة إلى أن الرجل هو الذي يقوم

(١) انظر: كشف المعاني، الكناني ص ٢٨٤، المعجزة الكبرى القرآن، أبو زهرة ص ٩١، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، عبد العظيم المطعني ٢/ ١٨٧.

(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ٦/ ٣٤٨. وحسنه الألباني في: صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥٨.

بإنكار المنكر، فإن ظهور الرجل الرشيد في الفئة الضالة يفتح باب الرشاد لهم، وبالعكس تمالؤهم على الباطل يزيدهم ضراوةً به[(١)].

ومن خلال هذه الآية يتضح بأن المجتمعات البشرية بحاجة إلى الرجال الأقوياء الأشداء الذين يقفون في وجه المنكر ويحاربونه، وإذا خلي المجتمع من هؤلاء الرجال، استفحل فيهم المنكر، وصار المنكر عملًا يتباهى به السفلة دون أن يردعهم عن ذلك رادع من أنفسهم ولا من غيرهم، ومن علامة الرجل الرشيد أنه هو المسدد في أقواله وأفعاله، وأنه صحيح الرأي، يفعل الجميل ويكف عن القبيح، وينصر المظلومين، ويفرج الكرب عن المكروبين، ويأمر بالخير، وينهى عن الشر، هذا هو الرشيد حقيقة، فلهذا قال لوط: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] ؟ أي: فيأمر بمعروف، وينهى عن منكر، ويدفع أهل الشر والبغي[(٢)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٢٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ١٩٠، التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٤٩، بيان المعاني، عبد القادر ملا ٣/ ١٤٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٧٧، تيسير اللطيف المنان، السعدي ص٢١٧.

عوامل ضياع الرجولة

يوجد عدة عوامل تؤدي إلى ضياع الرجولة وأهم هذه العوامل ما يأتي:

١ . ضعف الإيمان.

لأن الإيمان من أعلى صفات الرجولة، قال تعالى: ﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

٢ . البعد عن المسجد.

فالمساجد موطن من مواطن صناعة الرجولة، قال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦].

٣ . البعد عن القرآن الكريم الذي يصنع الرجال.

قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: (إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين)[(٣)].

٤ . انقلاب المعايير.

كما أخبرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سيأتي على الناس سنوات خداعات، يصدق فيها

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ٨١٧، ١/ ٥٥٩.

الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة)، قيل: وما الرويبضة؟ قال: (الرجل التافه في أمر العامة)[(١)].

٥. البعد عن القدوة الصالحة، واتخاذ القدوة السيئة.

كما في حديث أبي موسى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل الجليس الصالح والجليس السوء، كمثل صاحب المسك وكير الحداد، لا يعدمك من صاحب المسك إما تشتريه، أو تجد ريحه، وكير الحداد يحرق بدنك، أو ثوبك، أو تجد منه ريحًا خبيثةً)[(٢)].

٦. إتيان المنكرات.

مثلما كان يفعل قوم لوط، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: ٨١].

موضوعات ذات صلة

الأبوة، البنوة، النبوة، النساء، النكاح

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ٧٩١٢، ١٣/ ٢٩١، وابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر، رقم ٤٠٣٦، ٢/ ١٣٣٩. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٦٨١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب في العطار وبيع المسك، رقم ٢١٠١، ٣/ ٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، رقم ٢٦٢٨، ٤/ ٢٠٢٦.





عناصر الموضوع

مفهوم الرحم	٧٤
الرحم في الاستعمال القرآني	٧٥
الألفاظ ذات الصلة	٧٦
مكانة الرحم	٧٨
أنواع الرحم	٨٢
حقوق الرحم	٩١
قطيعة الرحم وعاقبته	١٠٥
حقوق الرحم من غير المسلمين	١٠٩

مفهوم الرحم

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «(رحم) الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرأفة، يقال من ذلك: رحمه يرحمه، إذا رق له، وتعطف عليه، والرحم والمرحمة والرحمة بمعنى، والرحم: علاقة القرابة، ثم سميت رحم الأنثى رحمًا من هذا؛ لأن منها ما يكون ما يرحم، ويرق له من ولد»[1].

وقال ابن سيده: «الرحم أسباب القرابة، وأصلها الرحم التي هي منبت الولد»[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الأزهري: «الرحم: القرابة تجمع بني أب وبينهما رحم»[3].

وقال القرطبي: «الرحم: اسم لكافة الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره»[4].

وعرف ابن حجر العسقلاني الرحم بقوله: «يطلق على الأقارب، وهم من بينه وبين الآخر نسب، سواءً كان يرثه أم لا، سواءً كان ذا محرم أم لا»[5].

وعرفها الشوكاني بقوله: «الرحم: اسم لجميع الأقارب من غير فرق بين المحرم وغيره، لا خلاف في هذا بين أهل الشرع، ولا بين أهل اللغة»[6].

فالأرحام: هم الذين يجتمعون مع المرء في النسب، سواءً أكان قريبًا أم بعيدًا، وسواءً أكانوا محارم أم غير محارم، ويدخل ضمنهم من يرتبط مع المرء بصلة المصاهرة أو الرضاع[7].

---

(١) مقاييس اللغة ٢/ ٤٩٨.
(٢) المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ٣٣٨.
(٣) تهذيب اللغة ٥/ ٣٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٧.
(٥) فتح الباري ١٠/ ٤١٤.
(٦) فتح القدير ١/ ٤٨١.
(٧) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص٧.

الرحم في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رحم) بمعنى الرحم في القرآن الكريم (١٢) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
جمع تكسير	١٢	﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]

وجاءت الرحم في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: القرابة: قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، يعني: القرابات؛ لأنهم يجمعهم رحم واحد.

الثاني: رحم المرأة: قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨] يعني: الوليد في الرحم.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣٠٩.
(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٤٤، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي ٢/ ٨١.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرابة:

القرابة لغة:

خلاف البعد[١]، قال ابن فارس: «يقال: قرب يقرب قربًا، وفلان ذو قرابتي، وهو من يقرب منك رحمًا»[٢].

القرابة اصطلاحًا:

العلاقة بين الأرحام بسبب النسب أو المصاهرة أو الرضاع[٣].

الصلة بين الرحم والقرابة:

إن القرابة والرحم بمعنى واحد، بحيث يطلق كل منهما على العلاقة بين الأرحام بسبب النسب أو المصاهرة أو الرضاع، إلا أن في لفظة الأرحام معنى الحث والترغيب واستجاشة المشاعر في صلة الرحم.

٢ النسب:

النسب لغة:

القرابات، يقال: فلان نسيبي، ورجل نسيب حسيب: ذو حسب ونسب، والنسبة مصدر الانتساب، والنّسّابة: الرجل العالم بالأنساب، ونسبت فلانًا إلى أبيه: إذا رفعت في نسبه إلى جده الأكبر[٤].

النسب اصطلاحًا:

القرابة الموروثة التي لا يد للإنسان فيها[٥].

الصلة بين الرحم والنسب:

إن النسب هي أصل الرحم والقرابة، ومنها تأتي القرابة بسبب الزواج والرضاع.

---

(١) انظر: المغرب في ترتيب المعرب الخوارزمي ص٣٧٦.
(٢) مقاييس اللغة ٥/ ٨٠.
(٣) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٢٩٨.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري١٣/ ١٢.
(٥) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي ص٤٧٨.

٣ الصهر:

الصهر لغة:

القرابة[١]، قال ابن فارس: «(صهر) الصاد والهاء والراء أصلان: أحدهما يدل على قربى، والآخر على إذابة شيء، فالأول الصهر، وهو الختن، قال الخليل: لا يقال لأهل بيت الرجل إلا أختان، ولا لأهل بيت المرأة إلا أصهار، ومن العرب من يجعلهم أصهارًا كلهم، قال ابن الأعرابي: الإصهار: التحرم بجوار أو نسب أو تزوج»[٢].

الصهر اصطلاحًا:

القرابة بالزواج[٣]، أي: ما يحل لك نكاحه من القرابة، وغير القرابة[٤].

الصلة بين الرحم والصهر:

أن الصهر سبب من أسباب الرحم والقرابة الحاصلة بسبب الزواج.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٤٧١، تاج العروس، الزبيدي ١٢/ ٣٦٧.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٣١٥.
(٣) انظر: معجم لغة الفقهاء، محمد رواس قلعجي وحامد قنيبي ص ٢٧٧.
(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١٣٥.

مكانة الرحم

إن الرحم لها مكانتها العظيمة ومنزلتها الرفيعة، فقد أكد الإسلام على اعتبارها والاهتمام بها واعتنى بتوثيق الأواصر بين الأرحام والأقارب، ووجهها الوجهة الصحيحة بعيدًا عن العصبية القبلية، وبعيدًا عن مجرد الافتخار بمآثر الآباء والأجداد، وأضفى على صلة القرابة طابعًا دينيًا، وجعلها متصلة بالعبادات بحيث يثاب المسلم على الإحسان للأقارب، ويتقرب إلى الله بصلة الأرحام[(١)].

وقد حظيت القرابة بمكانة خاصة عند العرب سواءً في الجاهلية أو الإسلام، فقد كان أهل الجاهلية يتمسكون بوشائج القرابة، ويوقرون الرحم، ويعتزون بالأنساب، ذلك أن النظام القبلي الذي كان معمولًا به في الجاهلية يعتمد في أساسه على رابطة النسب، وكانت العصبية القبلية تدفعهم للتناصر والتعاضد مع أقربائهم، والدفاع عنهم في الحق والباطل.

وقد صحح الإسلام كثيرًا من المفاهيم المتعلقة بالرحم والقرابة، وحدد ضوابط العلاقات بين الأرحام وذوي القربى، فكان منهج الإسلام في التعامل مع الأقارب هو السبيل الأمثل لإقامة المجتمع القوي المتماسك.

وبالرغم من تلك المكانة التي تميزت بها القرابة في الجاهلية إلا أنها كانت تقوم على أسس فاسدة أحيانًا، وكانت هناك جوانب سلبية عديدة في التعامل مع ذوي القربى والأرحام، وذلك مرجعه إلى أن النظام الجاهلي لم يكن مرتبطًا بمنهج صحيح وقويم.

واكتسبت العلاقة بين الأرحام قدسيتها بما حباها الله عز وجل من تعظيم وتكريم، حيث إن الله قد اشتق اسم الرحم من اسمه الرحمن، فأضفى هذا الاسم عليها القداسة والمهابة[(٢)]، وذلك فيما رواه عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**قال الله: أنا الله، وأنا الرحمن، خلقت الرحم وشققت لها من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته**)[(٣)].

فقد أراد الله تعالى أن تتميز العلاقة بين الأرحام وذوي القربى، فأنزل الرحم منزلةً عظيمةً باشتقاق اسمها من اسمه، وبين

(١) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص٣٤.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٥٩، ٣/ ١٩٨، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في قطيعة الرحم، رقم ١٩٠٧، ٤/ ٣١٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٣١٤، ٢/ ٧٩٥.

ثواب من يصل رحمه، وعقاب من يقطعها، فمن وصلها وصله الله برحمته وعطفه والإحسان إليه، ومن قطعها قطع الله عنه رحمته وفضله، وإحسانه[1].

ولقد بلغ من قدسية الرحم ومكانتها العالية أن الله جعلها معلقةً بالعرش تدعو الله تعالى أن يصل من يصلها، ويقطع من قطعها، فعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله، ومن قطعني قطعه الله)[2].

قال النووي: «والمراد تعظيم شأنها وفضيلة واصليها، وعظيم إثم قاطعيها بعقوقهم؛ لهذا سمي العقوق قطعًا، والعق الشق، كأنه قطع ذلك السبب المتصل، والعائذ: المستعيذ، وهو المعتصم بالشيء، الملتجئ إليه، المستجير به، قال العلماء وحقيقة الصلة: العطف والرحمة، فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن: لطفه بهم ورحمته إياهم، وعطفه بإحسانه ونعمه، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى، وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته، قال القاضي عياض: ولا خلاف أن صلة الرحم واجبة في الجملة، وقطيعتها معصية كبيرة»[3].

كما تعاظمت مكانة الرحم لما قرن الله تقواه بتقوى الرحم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

والمعنى: واتقوا الأرحام أن تقطعوها[4].

قال ابن العربي: «المعنى: اتقوا الله أن تعصوه، واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقد اتفقت الملة على أن صلة ذوي الأرحام واجبة، وأن قطيعتها محرمة»[5].

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾ فقرأ حمزة بخفض الميم، وقرأ الباقون بنصبها[6]، ومعناه: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وقرئ بكسر الميم فهو كقولك: سألتك بالله وبالرحم وناشدتك بالله وبالرحم؛ لأن العرب كان من عادتهم أن يقولوا ذلك، والرحم القرابة، وإنما استعير اسم الرحم للقرابة؛ لأنهم خرجوا من رحم واحدة، وقيل هو مشتق من الرحمة؛ لأن القرابة يتراحمون ويعطف بعضهم على بعض، وفي الآية دليل على

(١) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم٢٥٥٥، ٤/ ١٩٨١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم١٦/ ١١٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري٧/ ٥٢٣.

(٥) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي١/ ٤٠١.

(٦) انظر: الحجة في القراءات السبع، ابن خالويه ص١١٨، معاني القراءات، الأزهري ١/ ٢٩٠، تحبير التيسير في القراءات العشر، ابن الجزري ص٣٣٤.

تعظيم حق الرحم والنهي عن قطعها[1].

ولم تقتصر العناية بالرحم في الإسلام على الوصية بها فقط، بل قد بين القرآن أن الإحسان إلى الأقارب والأرحام مما أخذ الله عليه العهد والميثاق على القيام به في الشرائع السابقة: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقد نالت الرحم حظها من النصوص الشرعية التي تبين مكانتها، وعظيم الاهتمام بها، والترغيب في وصلها، والترهيب من قطعها، وبين العلماء أحكامها بما يكفل لهذه الرحم أن تكون سببًا للعلاقة بين الأقارب.

فقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦][2].

وإنما أمر بالإحسان إلى ذي القربى استبقاءً لأواصر الود بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهلية قد حرفوا حقوق القرابة فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل[3].

وقد ربط الاسلام صلة الرحم بدوافع نفسية يسعى إليها كل إنسان من التأخير في أجله، والتوسعة في رزقه تظهر ثمرتها في حياته، كما ورد في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: **(من سره أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه)**[4].

وحذر النبي صلى الله عليه وسلم من قطيعة الرحم؛ لأنها سبب لقطع من لم يقم بوصلها بها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم، فقالت: هذا مقام العائذ من القطيعة، قال: نعم، أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذاك**

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن١/ ٣٣٧.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٧٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور٥/ ٤٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أحب البسط في الرزق، رقم ٢٠٦٧، ٣/ ٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم٢٥٥٧، ٤/ ١٩٨٢.

لك، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣](1).

والقطع من الله: كناية عن حرمان الإحسان، والوصل من الله تعالى كناية عن عظيم إحسانه(2)، كما قال النووي: «قال العلماء: وحقيقة الصلة العطف والرحمة، فصلة الله سبحانه وتعالى عبارة عن لطفه بهم، ورحمته إياهم، وعطفه بإحسانه ونعمه، أو صلتهم بأهل ملكوته الأعلى، وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته»(3)، بل قد يكون القطع حقيقةً بأن يقطع الله من عمره ورزقه، كما أن في الوصل زيادة في العمر والرزق.

وقد رتب النبي صلى الله عليه وسلم الحرمان من دخول الجنة لقاطع الرحم فقد روى محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا يدخل الجنة قاطع) قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطع رحم(4).

وتظهر مكانة الرحم وأهميتها والعناية بها من خلال بيان الحقوق والواجبات والأحكام المتعلقة بها كما سيأتي.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (وتقطعوا أرحامكم)، رقم٤٨٣٠، ٦/ ١٣٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم٢٥٥٤، ٤/ ١٩٨٠.

(2) شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٩/ ٢٠٥، عمدة القاري، العيني ٢٢/ ٩٣.

(3) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١١٢.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم٥٩٨٤، ٨/ ٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم ٢٥٥٦، ٤/ ١٩٨١.

أنواع الرحم

إن الرحم في القرآن الكريم تتنوع إلى نوعين رئيسين: رحم عامة، وهي: رابطة الدين بين المسلمين، ورحم خاصة تتمثل في: رابطة القرابة بأحد أسبابها، وهي: النسب والمصاهرة والرضاع، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: رحم عامة:

إن رابطة الدين من أعظم الروابط بين المسلمين، وهذه الرابطة تتعدى رابطة النسب واللون واللغة والوطن، فإذا كان بين الناس قرابة النسب والصهر، فإن بين المؤمنين قرابة الإيمان، فهي أوثق من قرابة النسب والصهر، وحسب المؤمنين أن الله وصف ما بينهم من مودة ورحمة بأنهم إخوة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات: ١٠].

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، أي: في الدين والحرمة لا في النسب، ولهذا قيل: أخوة الدين أثبت من أخوة النسب، فإن أخوة النسب تنقطع بمخالفة الدين، وأخوة الدين لا تنقطع بمخالفة النسب»[(١)].

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين بأن يكونوا إخوانًا في تعاملاتهم وحياتهم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث)**[(٢)].

ومعنى (كونوا عباد الله إخوانًا) أي: تعاملوا وتعاشروا معاملة الإخوة في المودة والرفق والشفقة والملاطفة والتعاون في الخير ونحو ذلك مع صفاء القلوب والنصيحة بكل حال[(٣)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته)**[(٤)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا**

(١) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٣٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، رقم٦٠٦٤، ٨/ ١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن التحاسد والتباغض والتدابر، رقم٢٥٥٨، ٤/ ١٩٨٣.

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم ١٦/ ١١٦.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم٢٤٤٢، ٣/ ١٢٨.

تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا) ويشير إلى صدره ثلاث مرات (بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه)(١).

والمراد بذلك: أخوة الإسلام لا أخوة النسب، فأخوة الإسلام توجب على المسلم حماية أخيه المسلم، والدفاع عنه، ونصرته، ومواساته، والإحسان إليه(٢).

قال ابن عاشور: «وجيء بصيغة القصر ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ المفيدة لحصر حالهم في حال الإخوة مبالغةً في تقرير هذا الحكم بين المسلمين، فهو قصر ادعائي، أو هو قصر إضافي للرد على أصحاب الحالة المفروضة، الذين يبغون على غيرهم من المؤمنين، وأخبر عنهم بأنهم إخوة مجازًا على وجه التشبيه البليغ زيادةً لتقرير معنى الأخوة بينهم، حتى لا يحق أن يقرن بحرف التشبيه المشعر بضعف صفتهم عن حقيقة الأخوة، وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين؛ لأن شأن (إنما) أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب ولا يدفع صحته»(٣).

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حال المؤمنين في الرحم العامة التي بينهم في الحديث الذي رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(٤).

قال سيد قطب: «هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق. هذا المجتمع الذي حققه الإسلام مرةً في أرقى وأصفى صوره، ثم ظل يحققه في صور شتى على توالي الحقب، تختلف درجة صفائه، ولكنه يظل في جملته خيرًا من كل مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر، وكل مجتمع لوثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية! هذا المجتمع الذي تربطه آصرة واحدة -آصرة العقيدة- حيث تذوب فيها الأجناس والأوطان، واللغات والألوان، وسائر هذه الأواصر العرضية التي لا علاقة لها بجوهر

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، رقم٢٥٦٤، ٤/ ١٩٨٦.

(٢) انظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٨/ ٣٠٨.

(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ٢٤٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم٢٥٨٦، ٤/ ١٩٩٩.

الإنسان»(١).

إن رابطة الأخوة التي تجمع المؤمنين من أقوى الروابط؛ لأنها انبثقت من العقيدة الراسخة؛ لذا فهي لا تتأثر بما قد يطرأ على العلاقات الدنيوية من وهن وضعف؛ لأنها أخوة قوية أساسها الإيمان بالله تعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وميزانها التعاون على البر والتقوى، والتواصي بالصبر، والتواصي بالحق(٢).

والحديث عن القرابة الإيمانية ضمن أنواع القرابة ليس حديثًا بعيدًا عن السياق، وإنما هو متمم لأنواع القرابة، فإن اجتمع ذوو القربى في النسب، وتقارب الأصهار بالزواج، وانضم أقارب الرضاع إلى دائرة القرابة بخمس رضعات؛ فإن المؤمنين يجمعهم نسب واحد، وهو الإيمان، وأب واحد هو الإسلام، وتقاربت أرواحهم في الله، وانضموا إلى البيت الإيماني لما ارتضعوا من نبع الأخوة في الله(٣).

والأخوة الإسلامية من نعم الله تعالى، وهي كفيلة بإزالة العداوات والثارات والصراع بين القبائل والمجتمعات والدول، كما قال تعالى في الأوس والخزرج: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فقد ذكرهم الله بعظيم النعمة عليهم في الإسلام؛ لأنهم كانوا في جاهليتهم يقتل بعضهم بعضًا، ويستبيح كل غالب منهم من غلبه، فحظر عليهم الإسلام الأنفس والأموال إلا بحقها، فعرفهم الله عز وجل ما لهم من الحظ في العاجل في الدخول في الإسلام.

وهذه نزلت في الأوس والخزرج(٤)؛ لأنهم كانت بينهم في الجاهلية حروب دائمة قد أتت عليها السنون الكثيرة، فأزال الإسلام تلك الحروب وصاروا إخوانًا في الإسلام متوادين على ذلك، وأصل الأخ في اللغة: أن الأخ مقصده مقصد أخيه، وكذلك هوى الصداقة تكون إرادة بينهم، فكل واحد من الأخوين يكون موافقًا لما يريد صاحبه، والعرب تقول: فلان يتوخى مسار فلان، أي: يقصد ما يسره(٥).

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٢٠٩.

(٢) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٠١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: أسباب النزول، الواحدي ص ١٢١، العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر العسقلاني ٢/ ٧٢٧.

(٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٤٥٠.

﴿إِخْوَانًا﴾ فهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن وإحن وأحقاد، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى، قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال: ٦٢-٦٣](١).

وعلى ركيزة الأخوة العامة بنيت المجتمعات الإسلامية والدول، قال سيد قطب: «ركيزتان تقوم عليهما الجماعة المسلمة، وتؤدي بهما دورها الشاق العظيم، فإذا انهارت واحدة منهما لم تكن هناك جماعة مسلمة، ولم يكن هنالك دور لها تؤديه: ركيزة الإيمان والتقوى أولًا، الركيزة الثانية فهي ركيزة الأخوة، الأخوة في الله، على منهج الله، لتحقيق منهج الله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: ١٠٣].

فهي أخوة إذن تنبثق من التقوى والإسلام.. من الركيزة الأولى.. أساسها الاعتصام بحبل الله -أي: عهده ونهجه ودينه- وليست مجرد تجمع على أي تصور آخر، ولا على أي هدف آخر، ولا بواسطة حبل آخر من حبال الجاهلية الكثيرة! ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

هذه الأخوة المعتصمة بحبل الله نعمة يمتن الله بها على الجماعة المسلمة الأولى. وهي نعمة يهبها الله لمن يحبهم من عباده دائمًا، وهو هنا يذكرهم هذه النعمة. يذكرهم كيف كانوا في الجاهلية أعداءً، وما كان أعدى من الأوس والخزرج في المدينة أحد. وهما الحيان العربيان في يثرب. يجاورهما اليهود الذين كانوا يوقدون حول هذه العداوة، وينفخون في نارها حتى تأكل روابط الحيين جميعًا. ومن ثم تجد يهود مجالها الصالح الذي لا تعمل إلا فيه، ولا تعيش إلا معه. فألف الله بين قلوب الحيين من العرب بالإسلام، وما كان إلا الإسلام وحده يجمع هذه القلوب المتنافرة، وما كان إلا حبل الله الذي يعتصم به الجميع، فيصبحون بنعمة الله إخوانًا»(٢).

وبهذا يتضح أن للقرابة الإيمانية شأن عظيم في تقوية أركان المجتمع المسلم،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٧٧.

(٢) في ظلال القرآن١/ ٤٤٢.

ولها تأثير بالغ في اتحاد المسلمين وتآلفهم، فلو عايش المسلمون معاني هذه الأخوة التي أوجبتها هذه القرابة وطبقوها واقعًا عمليًا في حياتهم؛ لما أصاب مجتمعاتهم من الضعف؛ ولما تجرأ عليهم الأعداء، وتكالبت عليهم الأمم.

ولكن المسلمين هانوا في أعين أعدائهم يوم ضعفت أواصر الأخوة والمحبة بينهم، فلا سبيل للعزة والنصرة إلا إذا رجع المسلمون إلى تطبيق مبادىء دينهم وقاموا بأداء ما عليهم من واجبات تجاه إخوانهم المسلمين وأمدوهم بالمعونة والنصرة والمؤازرة[1].

ثانيًا: الرحم الخاصة:

أما الرحم الخاصة بين الأرحام والأقارب فهي في القرآن الكريم على ثلاثة أنواع:

١ . قرابة النسب.

إن قرابة النسب من أهم أنواع القرابة، فتعريف الشخص في المجتمع لا يكون إلا من خلال انتسابه إلى أبيه وجده وعائلته؛ لذا كان اعتناء العرب قديمًا وحديثًا بأصالة النسب وعراقته كونهم يتعارفون به بين الناس[2].

وقد ذكر الله قرابة النسب في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

ويترتب على قرابة النسب الكثير من الأحكام، والتي منها تحريم النكاح، كما في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

وسيأتي المزيد من الأحكام في مبحث حقوق القرابة بكل أنواعها.

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم الأنساب من أجل صلة الرحم، كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر)، ومعنى قوله: (منسأة في الأثر)، يعني: زيادة في العمر**[3].

(١) انظر: ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٠٤.
(٢) المصدر السابق ص ١٠٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده ، رقم ٨٨٦٨، ١٤/ ٤٥٦، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في تعليم النسب، رقم ١٩٧٩، ٤/ ٣٥١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم٢٩٦٥، ١/ ٥٧٠.

٢. قرابة المصاهرة.

إن قرابة المصاهرة ثاني أنواع القرابة، ولا تقل أهمية عن قرابة النسب، فقد قرنها الله تعالى بها قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: ٥٤].

والصهر من يحل نكاحه من القرابة وغير القرابة، وأصل الصهر الاختلاط، فسميت المناكح صهرًا لاختلاط الناس بها[١].

وقرابة المصاهرة هي: القرابة الحاصلة بسبب الزواج، وبالزواج تتقارب عائلتان لم يكن بينهما من قبل صلة، فتتعارفان وتتآلفان وتنشأ بينهما قرابة الصهر التي تعتبر هي أساس القرابة؛ حيث ينشأ من العلاقة الزوجية الأبناء الذين ينضمون إلى نسب الأب ويلتحقون بسلسلة قرابة النسب[٢].

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [النحل: ٧٢].

﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: من جنسكم أزواجًا، جعل لكم من أزواجكم بنين وبنات وحفدةً، وهم أولاد البنين تزوجونهم؛ فيحصل لكم بسببهم الأختان والأصهار[٣].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى نعمه على عبيده بأن جعل لهم من أنفسهم أزواجًا من جنسهم وشكلهم، ولو جعل الأزواج من نوع آخر ما حصل الائتلاف والمودة والرحمة، ولكن من رحمته خلق من بني آدم ذكورًا وإناثًا، وجعل الإناث أزواجًا للذكور، ثم ذكر تعالى أنه جعل من الأزواج البنين والحفدة وهم أولاد البنين»[٤].

وقال السعدي: «يخبر تعالى عن منته العظيمة على عباده، حيث جعل لهم أزواجًا ليسكنوا إليها، وجعل لهم من أزواجهم أولادًا تقر بهم أعينهم ويخدمونهم، ويقضون حوائجهم، وينتفعون بهم من وجوه كثيرة، ورزقهم من الطيبات من جميع المآكل والمشارب، والنعم الظاهرة التي لا يقدر العباد أن يحصوها»[٥].

والقرابة بالمصاهرة يحرم بها نكاح سبعة من المحرمات، ستة منها في قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ١٥١.
(٢) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ٩٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٨٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٠٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٤٤.

﴿الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣].

والسابعة في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾ [النساء: ٢٢][1].

٣. قرابة الرضاع.

وقرابة الرضاع هي ثالث أنواع القرابة، ولها من الأهمية ما لقرابة النسب، لقول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة رضي الله عنه عندما عرض عليه نكاحها: (لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[2]، ويترتب على الرضاع بعض الأحكام مثل:

- تحريم النكاح.

فيحرم من الرضاع ما يحرم من النسب وذلك بالنظر إلى أقارب المرضع؛ لأنهم أقارب للرضيع، وأما أقارب الرضيع فلا قرابة بينهم وبين المرضع، والمحرمات من الرضاع سبع: الأم والأخت بنص القرآن، والبنت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت؛ لأن هؤلاء يحرمن من النسب، قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [النساء: ٢٣][3].

ولما رواه ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة: (لا تحل لي، يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[4].

- ثبوت المحرمية التي تبيح النظر.

تبيح الرضاعة ما تبيحه الولادة من حيث انتشار الحرمة بين الرضيع وأولاد المرضعة وتنزيلهم منزلة الأقارب في جواز النظر

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٣٤٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع، رقم ٢٦٤٥، ٣/ ١٧٠.
(٣) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ١٥٧، أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٤٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب، والرضاع، رقم ٢٦٤٥، ٣/ ١٧٠.

والخلوة والمسافرة؛ لما روته عمرة بنت عبدالرحمن، أن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم، أخبرتها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عندها، وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، قالت عائشة: فقلت: يا رسول الله، هذا رجل يستأذن في بيتك، قالت: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أراه فلانًا) لعم حفصة من الرضاعة، فقالت عائشة: لو كان فلان حيًا -لعمها من الرضاعة- دخل علي؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعم، إن الرضاعة تحرم ما يحرم من الولادة)[(١)].

قال النووي مبينًا أحكام الرضاعة: «هذه الأحاديث متفقة على ثبوت حرمة الرضاع، وأجمعت الأمة على ثبوتها بين الرضيع والمرضعة، وأنه يصير ابنها يحرم عليه نكاحها أبدًا، ويحل له النظر إليها، والخلوة بها، والمسافرة، وأجمعوا أيضًا على انتشار الحرمة بين المرضعة وأولاد الرضيع، وبين الرضيع وأولاد المرضعة، وأنه في ذلك كولدها من النسب لهذه الأحاديث، وأما الرجل المنسوب ذلك اللبن إليه لكونه زوج المرأة أو وطئها بملك أو شبهة فمذهبنا ومذهب العلماء كافةً ثبوت حرمة الرضاع بينه وبين الرضيع ويصير ولدًا له، وأولاد الرجل إخوة الرضيع وأخواته، وتكون إخوة الرجل أعمام الرضيع، وأخواته عماته، وتكون أولاد الرضيع أولاد الرجل، ولم يخالف في هذا إلا أهل الظاهر وابن علية، فقالوا: لا تثبت حرمة الرضاع بين الرجل والرضيع، ونقله المازري عن ابن عمر وعائشة، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ ولم يذكر البنت والعمة كما ذكرهما في النسب، واحتج الجمهور بهذه الأحاديث الصحيحة الصريحة في عم عائشة وعم حفصة»[(٢)].

- عدم ثبوت سائر الأحكام.

لا يثبت بالرضاع أحكام النسب وأحكام النفقة والميراث وغيرها، فلا يترتب على الرضاع أحكام الأمومة من كل وجه، فلا يتوارثان، ولا يجب على واحد منهما نفقة الآخر، ولا يعتق عليه بالملك، ولا ترد شهادته لها، ولا يعقل عنها، ولا يسقط عنها القصاص بقتله فهما كالأجنبيين في هذه الأحكام[(٣)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع المستفيض، رقم٢٦٤٦، ٣/ ١٧٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة، رقم١٤٤٤، ٢/ ١٠٦٨.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم١٠/ ١٩، وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٩٠.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم١٠/ ١٩،

وإنما ثبتت حرمة الرضاع بشرطين:

الأول: أن يكون إرضاع الصبي في حال الصغر، وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته لقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]؛ **ولما روته أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يحرم من الرضاع إلّا ما فتق الأمعاء في الثدي وكان قبل الفطام)**[(١)].

الثاني: أن يوجد خمس رضعات متفرقات، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نسخن، بخمس معلومات، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهن فيما يقرأ من القرآن[(٢)(٣)].

إن اهتمام الإسلام بقرابة الرضاع، وجعلها كقرابة النسب يبرز ما لهذه القرابة من منزلة، وينبه المسلمين إلى ضرورة مراعاة حقوق أقاربهم من الرضاعة، ويبين خطورة الجهل بأحكام الرضاعة، كحرمة تزوج الرجل من محارمه من الرضاعة؛ لئلا يتزوج من إحداهن وهو لا يعلم؛ لذا وجب إعطاء أمر الرضاعة مزيدًا من العناية والتحقق من المرضع وأقاربها؛ لئلا تنتهك الحرمات وتستباح المحرمات[(٤)].

وانظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ٥٩٠، لباب التأويل، الخازن١/ ٣٥٩.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع، باب ما جاء أن الرضاعة لا تحرم إلا في الصغر دون الحولين، رقم١١٥٢، ٣/ ٤٥٠، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب لا رضاع بعد فصال، رقم١٩٤٦، ١/ ٦٢٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم٧٤٩٥، ٢/ ١٢٤٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب التحريم بخمس رضعات، رقم١٤٥٢، ٢/ ١٠٧٥.

(٣) لباب التأويل، الخازن١/ ٣٥٩.

(٤) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٠٠.

حقوق الرحم

إن حقوق الرحم تتنوع بين الحقوق الاجتماعية، والحقوق المالية، والحقوق الدعوية، وسيأتي بيان هذه الحقوق في النقاط الآتية:

أولًا: الحقوق الاجتماعية:

تتمثل الحقوق الاجتماعية في صلة الرحم بالإحسان بالقول والفعل، كالزيارة ونحوها، والتربية الإيمانية والعبادية والأخلاقية، وسيتم توضيح ذلك في الفقرات الآتية:

١. صلة الرحم بالإحسان بالقول والفعل.

من الحقوق الاجتماعية صلة الرحم بالإحسان بالقول والفعل، فقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ [النساء: ٣٦].

أي: أحسنوا إليهم بالقول الكريم، والخطاب اللطيف، والفعل الجميل بطاعة أمرهما، واجتناب نهيهما، والإنفاق عليهما، وإكرام من له تعلق بهما، وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا بهما، وللإحسان ضدان، الإساءة وعدم الإحسان، وكلاهما منهي عنه[١]، فكل قول وفعل يحصل به منفعة للوالدين أو سرور لهما، فإن ذلك من الإحسان، وإذا وجد الإحسان انتفى العقوق[٢].

والإحسان إلى الزوجة يكون بالمعاشرة بالمعروف، فقد ورد الأمر بذلك في قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء: ١٩].

فقوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾، أي: طيبوا أقوالكم لهن، وحسنوا أفعالكم وهيئاتكم بحسب قدرتكم كما تحب ذلك منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨][٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخيركم خيركم لنسائهم)[٤].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٢٧٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢١٢.
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم ١١٦٢، ٣/ ٤٥٨، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، رقم ١٩٧٨، ١/ ٦٣٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم

وكذلك الإحسان إلى الأولاد، ويدل عليه عموم قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [البقرة: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

فقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل، وأن لا يقطع برحمه بقوله أو فعله[1].

ولأن قوله تعالى: ﴿وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ عام يشمل الأصل، وهو الأبوان وما يتصل بالمرء من ناحيتهما من أصولها وفصولهما، ويشمل الفصل، وهو الأبناء والبنات وما يتصل به منهما من فصول، غير أن الوالدين لمزيد العناية بهما خصصا بالذكر في الآيات المتقدمة، وإن كانا داخلين في هذا العموم[2].

فيكون الإحسان إلى الأولاد بجميع أنواع الإحسان المادية والمعنوية، ومن ذلك: تربيتهم تربيةً حسنةً، وتعليمهم، والتلطف بهم، ورحمتهم، والإنفاق عليهم، والعدل بينهم في العطايا والهبات؛ لما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه، قال: **تصدق علي أبي ببعض ماله، فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانطلق أبي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليشهده على صدقتي، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أفعلت هذا بولدك كلهم؟) قال: لا، قال: (اتقوا الله، واعدلوا في أولادكم)، فرجع أبي، فرد تلك الصدقة**[3].

وقد أمر الله بالإحسان إلى ذوي القربى بعد الوالدين، ويشمل ذلك جميع الأقارب، قربوا أو بعدوا، بأن يحسن إليهم بالقول والفعل.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.

(٢) انظر: تفسير ابن باديس ص ٧٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب كراهة تفضيل بعض الأولاد في الهبة، رقم١٦٢٣، ٣/ ١٢٤٢.

١/ ٣٢٦٥، ٦٢٠.

﴿ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦][1].

وإنما أمر بالإحسان إلى ذي القربى استبقاءً لأواصر الود بين الأقارب، إذ كان العرب في الجاهلية قد حرفوا حقوق القرابة، فجعلوها سبب تنافس وتحاسد وتقاتل[2].

كما أمر الله تعالى بالإحسان إلى الجيران، فقال سبحانه: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ [النساء: ٣٦].

والجار قد أمر الله تعالى بحفظه، والقيام بحقه، والوصاة برعي ذمته في كتابه، وعلى لسان نبيه، والله سبحانه أكد ذكر الجار بعد الوالدين والأقربين، فقال تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾، أي: القريب، يعني الذي بينك وبينه قرابة، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، أي: الغريب الذي ليس بينك وبينه قرابة، قاله ابن عباس، وقال نوف الشامي: «﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ المسلم، ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ اليهودي والنصراني»، وقال جابر الجعفي عن الشعبي عن علي وابن مسعود رضي الله عنهم: «﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ يعني: المرأة»، وقال مجاهد أيضًا في قوله: «﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ يعني: الرفيق في السفر»[3].

قال القرطبي: «وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلمًا كان أو كافرًا، وهو الصحيح، والإحسان قد يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة وكف الأذى والمحاماة دونه، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(ما زال يوصيني جبريل بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه)**[4]»[5].

والجوار ضرب من ضروب القرابة، فهو قرب بالمكان والسكن، وقد يأنس الإنسان بجاره القريب أكثر مما يأنس بالنسيب، فيحسن أن يتعاون الجاران، ويكون بينهما الرحمة والإحسان، فإذا لم يحسن أحدهما إلى الآخر فلا خير فيهما لسائر الناس، وقد حث الدين على الإحسان في معاملة الجار، عن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه،

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٥٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٧٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٤٩.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦١.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، رقم ٦٠١٤، ٨/ ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوصية بالجار والإحسان إليه، رقم ٢٦٢٥، ٤/ ٢٠٢٥.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ١٨٣.

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره)(١).

وإكرام الجار من شيم العرب قبل الإسلام، وزاده الإسلام توكيدًا بما جاء في الكتاب والسنة، ومن إكرامه إرسال الهدايا إليه، ودعوته إلى الطعام، وتعاهده بالزيارة والعيادة إلى نحو ذلك(٢).

٢. حق التربية لذوي الأرحام.

إن حق التربية لذوي الأرحام حق كامل يشمل تربية النفس، وتكون من خلال غرس عقيدة التوحيد في نفوس ذوي الأرحام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣](٣).

ويدخل في تربية النفس: التربية على مراقبة الله تعالى في كافة الأحوال والأعمال، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾﴾ [لقمان: ١٦].

وفي هذه الآية يكشف لقمان لابنه عن علم الله، وبسطة سلطانه، حتى يعبده عن علم به، ومعرفة بما ينبغي له من كمال وجلال(٤).

وكذلك التربية على أداء العبادات، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: ١٧].

وتعتبر الصلاة الركن الثاني من أركان الإسلام، وهي عماد الدين، أمر الله تعالى عباده بالمحافظة عليها حال السفر والحضر، حالة الصحة والسقم، والأمن والخوف، وإقامتها تعني أداءها في وقتها بأركانها وواجباتها بخشوع، على النحو المرضي، لما فيها من رضا الرب بالإقبال عليه والإخبات له، ولما فيها من النهي عن الفحشاء والمنكر، وإذا تم ذلك صفت النفس وأنابت إلى بارئها في السراء والضراء(٥).

والتربية على العبادة يشمل كل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال، والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة وبر الوالدين، وصلة الأرحام والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم، والمسكين، وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف، رقم ٤٨، ١/ ٦٩.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٥/ ٣٦.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٣٠، تفسير المراغي ٢١/ ٨٤.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١١/ ٥٧٠.
(٥) تفسير المراغي ٢١/ ٨٤.

وكذلك حب الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى[1].

والتربية الأخلاقية: والخلق هو: عبارة عن هيئة في النفس راسخة عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية[2].

والآيات التي تمثل التربية الأخلاقية كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨-١٩].

فقوله: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

قرأ الجمهور (ولا تصاعر)، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم وأبو جعفر ويعقوب (ولا تصعر)[3]، يقال: صاعر وصعر، إذا أمال عنقه إلى جانب ليعرض عن جانب آخر، وهو مشتق من الصعر بالتحريك لداء يصيب البعير فيلوي منه عنقه، فكأنه صيغ له صيغة تكلف، بمعنى تكلف إظهار الصعر وهو تمثيل للاحتقار؛ لأن مصاعرة الخد هيئة المحتقر المستخف في غالب الأحوال[4].

ثانيًا: الحقوق المالية:

إن الحقوق المالية المترتبة على الرحم والقرابة تتمثل في: الميراث المستحق بسبب الرحم والقرابة، وكذلك النفقة الواجبة والمندوبة، بالإضافة إلى الوصية والصدقة لذوي الرحم، وكذلك حق ذوي القربى الغنيمة والفيء، وبيان ذلك في الفقرات الآتية:

١ . الميراث.

يترتب على القرابة أحكام شرعية نص عليها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومن هذه الأحكام: الميراث، فالأقارب يجمعهم أصل واحد، ويلتزمون بحقوق وواجبات، ويتعاونون فيما بينهم في تحمل النفقات؛ لذا كانوا أحق بمال قريبهم بعد موته، مع اختلاف نصيب كل قريب بحسب درجة القرابة بينه وبين الميت[5].

وقد بين الله تعالى حق الميراث في

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١٤٩.
(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٧٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ١/ ٢٥٢.
(٣) انظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري ٢/ ٣٤٦.
(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٤.
(٥) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص١٣٥.

قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ [النساء: ٧].

وقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾ [النساء: ١١].

وقوله سبحانه: ﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ فَإِن كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢﴾ [النساء: ١٢].

٢. النفقة.

أوجبت الشريعة الإسلامية على المسلم القادر أن ينفق على أقاربه الذين تلزمه نفقتهم كالزوجة والأولاد والوالدين، وأن يوفر لهم ما يكفيهم من طعام وكسوة وسكنى، وحق النفقة بسبب القرابة يكون واجبًا لبعض الأقارب، ويكون غير واجب لبعضهم، وسيتم توضيح ذلك في الفقرات الآتية:

- **نفقة الأقارب الواجبة.**

تكون نفقة الأقارب الواجبة على القريب الموسر للزوجة والأولاد والآباء كما يأتي:

١. **نفقة الزوجة.**

نفقة الزوجة وكسوتها وطعامها وسكناها واجبة على زوجها لقاء احتباسها في بيت زوجها ومشاطرته تربية الأبناء ورعايتهم، فإنها تستحق كل ما تحتاج من نفقات سواءً أكانت غنيةً أم فقيرةً، وكذلك تستحق الزوجة المطلقة النفقة، إذا كانت مطلقة في حال حملها أو رضاعها لأولادها أو كونها في العدة، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقال سبحانه: ﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ ⑥ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ⑦﴾ [الطلاق: ٦-٧].

والنفقة من حقوق الزوجة، وبسببها يكتسب الزوج حق القوامة عليها، قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤][(١)].

قال أبو جعفر الطبري: «الرجال أهل قيام على نسائهم، في تأديبهن والأخذ على أيديهن فيما يجب عليهن لله ولأنفسهم ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، يعني: بما فضل الله به الرجال على أزواجهم: من سوقهم إليهن مهورهن، وإنفاقهم عليهن أموالهم وكفايتهم إياهن مؤنهن، وذلك تفضيل الله تبارك وتعالى إياهم عليهن، ولذلك صاروا قوامًا عليهن، نافذي الأمر عليهن فيما جعل الله إليهم من أمورهن»[(٢)].

٢. نفقة الوالدين.

يجب على المسلم الموسر نفقة الوالدين، ولو كانا كافرين وبرهما وخدمتهما وزيارتهما إلا أن يخاف أن يجلباه إلى الكفر[(٣)]، ويدل على ذلك قوله تعالى:

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٥٣.
(٢) جامع البيان ٨/ ٢٩٠.
(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٧٩.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ⑵⑴⑸﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦].

مع بيان النبي صلى الله عليه وسلم لمراد الله بقوله: فيما رواه طارق المحاربي، قال: قدمنا المدينة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم على المنبر يخطب الناس وهو يقول: (يد المعطي العليا، وابدأ بمن تعول: أمك، وأباك، وأختك، وأخاك، ثم أدناك، أدناك)[(٤)]، وفيه الدلالة على وجوب نفقة الوالدين، والأقربين عليه[(٥)].

وقد أجمع العلماء على وجوب النفقة للوالدين اللذين لا كسب لهما ولا مال، سواءً أكان الوالدان مسلمين أو كافرين، وسواءً كان الفرع ذكرًا أم أنثى، قال الشربيني: «قال ابن المنذر: وأجمعوا على أن نفقة الوالدين اللذين لا كسب لهما ولا مال واجبة في مال الولد، والأجداد والجدات ملحقون بهما إن لم يدخلوا في عموم ذلك، كما ألحقوا بهما

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في بر الوالدين، رقم ٥١٤٠، ٤/ ٣٣٦، والنسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب أيتهما اليد العليا، رقم ٢٥٣٢، ٥/ ٦١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٨٠٦٧، ٢/ ١٣٤١.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٧٩.

في العتق والملك، وعدم القود، ورد الشهادة وغيرهما»[(١)]، ويشترط لوجوب النفقة يسار المنفق، وإعسار المنفق عليه، واحتياجه إلى النفقة، وهذا باتفاق العلماء في الجملة[(٢)].

٣. نفقة الأولاد.

يجب على الوالد الموسر النفقة على أولاده الصغار؛ لأن الأولاد جزء منه، فالإنفاق عليهم كالإنفاق على نفسه، وإحياؤهم كإحياء نفسه، ونفقة الأولاد واجبة بالكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وفي الآيتين دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لعجزه وضعفه؛ فجعل الله تعالى ذلك على يدي أبيه؛ لقرابته منه وشفقته عليه[(٣)].

ومن السنة النبوية ما روته عائشة رضي الله عنها، قالت: دخلت هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل شحيح، لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلا ما أخذت من ماله بغير علمه، فهل علي في ذلك من جناح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خذي من ماله بالمعروف ما يكفيك ويكفي بنيك)[(٤)].

أما الإجماع: فقد حكى الإجماع على ذلك ابن قدامة وقال: «وأما الإجماع، فحكى ابن المنذر قال: أجمع أهل العلم على أن نفقة الوالدين الفقيرين اللذين لا كسب لهما، ولا مال، واجبة في مال الولد، وأجمع كل من نحفظ عنه من أهل العلم، على أن على المرء نفقة أولاده الأطفال الذين لا مال لهم، ولأن ولد الإنسان بعضه، وهو بعض والده، فكما يجب عليه أن ينفق على نفسه وأهله كذلك على بعضه وأصله»[(٥)].

٤. نفقة باقي الأقارب.

أما نفقة باقي الأقارب فقد اختلف المفسرون والفقهاء في حكم النفقة عليهم على أقوال، والراجح أن النفقة تجب على الأقارب العاجزين عن الكسب إذا كان القريب موسرًا[(٦)].

---

(١) مغني المحتاج، الشربيني ٥/ ١٨٣.
(٢) انظر: المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١١، الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٩/ ٢٣.
(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٢٧٤.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب من أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والمكيال والوزن، وسننهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة، رقم ٢٢١١، ٣/ ٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الحدود، باب قضية هند، رقم ١٧١٤، ٣/ ١٣٣٨.
(٥) المغني، ابن قدامة ٨/ ٢١٢.
(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٦٨، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٣٧، تفسير

فتجب النفقة لكل قريب وارث من الأصول والفروع والحواشي، كالإخوة والأعمام وأبنائهم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٢٣٣][1]، قال ابن كثير: «وقد استدل بذلك من ذهب إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف، ويرجح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعًا (من ملك ذا رحم محرم، عتق عليه)[2]»[3].

٣. الوصية.

الوصية مشروعة في وجوه الخير المتعددة، ولكنها تستحب للأقارب غير الوارثين؛ لأن الوصية لهم لون من ألوان البر والإحسان الذي أمر الله به لذوي القربى؛ لأن ذلك نوع من أنواع التكافل والتعاضد ومدعاة للتآلف[4]، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾﴾ [البقرة: ١٨٠-١٨١].

قال أبو جعفر الطبري: «يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾، فرض عليكم، أيها المؤمنون، ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ﴾ والخير: المال، للوالدين والأقربين الذين لا يرثونه، ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: وهو ما أذن الله فيه وأجازه في الوصية مما لم يجاوز الثلث، ولم يتعمد الموصي ظلم ورثته، ﴿حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ﴾ يعني بذلك: فرض عليكم هذا وأوجبه، وجعله حقًّا واجبًا على من اتقى الله فأطاعه أن يعمل به»[5].

قال ابن كثير: «اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين، وقد كان ذلك واجبًا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه، وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتمًا من غير وصية ولا تحمل منة الموصي، ولهذا جاء في الحديث الذي في السنن وغيرها

الراغب الأصفهاني ١/ ٤٨٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٥.

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٩٢، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٦٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٤٣٥.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العتق باب فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ٣٩٤٩، ٤/ ٢٦، والترمذي في سننه، أبواب الأحكام، باب ما جاء فيمن ملك ذا رحم محرم، رقم ١٣٦٥، ٣/ ٦٣٨، وابن ماجه في سننه، كتاب العتق، باب من ملك ذا رحم محرم فهو حر، رقم ٢٥٢٤، ٢/ ٨٤٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٦٥٥٧، ٢/ ١١١٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٧٩.

(٤) ذوو القربى والأرحام في ضوء القرآن الكريم، مها سكيك ص ١٤٠.

(٥) جامع البيان٣/ ٣٨٤.

عن عمرو بن خارجة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب وهو يقول: (إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه، فلا وصية لوارث)[1]»[2].

ومن خلال هذه النصوص يتبين أن الوصية للأقارب غير الوارثين مستحبة، وليست واجبة[3].

٤ . الصدقة.

من حقوق الرحم المالية: الصدقة لهم والمواساة بالمال.

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

والبر: التوسع في الخير، وفي لسان الشرع: كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الأخلاق، ﴿قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي: ناحيتيهما، ﴿وَآتَى الْمَالَ﴾ أي: أعطاه[4]، وذوو القربى: المحتاجون، وهم أحق الناس بالبر، إذ المركوز في الفطرة أن الإنسان يألم لفاقة ذوي رحمه وعدمهم أشد مما يألم لغيرهم، فهو يرى أن هوانه بهوانهم وعزه بعزهم، فمن قطع رحمه وامتنع عن مساعدتهم، وهم بائسون وهو في نعمة من الله وفضل، فقد بعد عن الدين والفطرة، وجاء في الحديث الذي رواه سلمان بن عامر رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة)[5]، أي: صدقة وصلة رحم[6].

وقد حضّ سبحانه على صلة القرابة وبر الأقارب والإحسان إليهم، وإيتاء حقوقهم من البر والصلة.

قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوصايا، باب ما جاء في الوصية للوارث، رقم ٢٨٧٠، ٣/ ١١٤، والنسائي في سننه، كتاب الوصايا، باب إبطال الوصية للوارث، رقم ٣٦٤١، ٦/ ٢٤٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، رقم ٢٧١٣، ٢/ ٩٠٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٧٨٩، ١/ ٣٦٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٣٦٠.

(٣) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ١٠٣.

(٤) انظر: تفسير المراغي ٢/ ٥٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٦٢٢٦، ٢٦/ ١٦٤، والترمذي في سننه، أبواب الزكاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة، رقم ٦٥٨، ٣/ ٣٧، والنسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على الأقارب، رقم٢٥٨٢، ٥/ ٩٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة، رقم ١٨٤٤، ١/ ٥٩١.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٧/ ٤١١، والألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٨٥٨، ٢/ ٧١٧.

(٦) انظر: تفسير المراغي ٢/ ٥٦.

﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ۝٢٦﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٣٨﴾ [الروم: ٣٨][1].

كما أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أمرًا تدخل الأمة فيه، وهذا على جهة الندب إلى إيتاء ذي القربى حقه من صلة المال وحسن المعاشرة ولين القول، قال الحسن: حقه المواساة في اليسر، وقول ميسور في العسر[2].

وقال الشوكاني: «لما بين سبحانه كيفية التعظيم لأمر الله أشار إلى ما ينبغي من مواساة القرابة، وأهل الحاجات ممن بسط الله له في رزقه، فقال: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، وأمته أسوته، أو لكل مكلف له مال وسع الله به عليه، وقدم الإحسان إلى القرابة؛ لأن خير الصدقة ما كان على قريب، فهو صدقة مضاعفة، وصلة رحم مرغب فيها، والمراد: الإحسان إليهم بالصدقة، والصلة، والبر»[3].

٥. الغنيمة والفيء.

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٣٤، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٤٨٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٣٨.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦١.

إن الغنيمة والفيء من الحقوق المالية لذوي القربى قال تعالى: ﴿۞ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٤١﴾ [الأنفال: ٤١].

وقوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧﴾ [الحشر: ٧].

والغنيمة هي: المال المأخوذ من الكفار، بإيجاف الخيل والركاب، والفيء ما أخذ منهم بغير ذلك، كالأموال التي يصالحون عليها أو يتوفون عنها، ولا وارث لهم، والجزية والخراج ونحو ذلك، هذا مذهب الإمام الشافعي في طائفة من علماء السلف والخلف. ومن العلماء من يطلق الفيء: على ما تطلق عليه الغنيمة، وبالعكس أيضًا[4].

والمراد ب (ذوي القربى): قرابته صلى الله عليه وسلم، وذهب الجمهور إلى أن سهم ذوي القربى يصرف إلى بني هاشم وبني المطلب خاصة؛ لأن بني المطلب وازروا بني هاشم في الجاهلية، وفي أول

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٢.

الإسلام، ودخلوا معهم في الشعب غضبًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وحمايةً له، مسلمهم طاعةً لله ولرسوله، وكافرهم حميةً للعشيرة، وأنفةً، وطاعةً لأبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما بنو عبد شمس، وبنو نوفل، وإن كانوا ابني عمهم، فلم يوافقوهم، بل حاربوهم ونابذوهم[1]؛ ولأنهم قد منعوا الصدقة، فجعل لهم حق في الفيء[2].

وفي هذا روى جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: يا رسول الله أعطيت بني المطلب وتركتنا، ونحن وهم منك بمنزلة واحدة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنما بنو المطلب، وبنو هاشم شيء واحد) قال الليث: حدثني يونس، وزاد، قال جبير: ولم يقسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني عبد شمس، ولا لبني نوفل[3].

وبهذا يكون لقرابة النبي صلى الله عليه وسلم خمس خمس الغنيمة، وخمس الفيء في حياته صلى الله عليه وسلم.

أما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد اختلف أهل العلم في سهم ذوي القربى هل هو ثابت اليوم أم لا؟

فذهب الجمهور إلى أنه ثابت فيعطى فقراؤهم وأغنياؤهم من خمس الخمس، للذكر مثل حظ الأنثيين، وهو قول مالك والشافعي، وذهب أبو حنيفة وأصحاب الرأي إلى أنه غير ثابت، وقالوا سهم النبي صلى الله عليه وسلم، وسهم ذوي القربى مردود في الخمس، فيقسم خمس الغنيمة على ثلاثة أصناف اليتامى والمساكين وابن السبيل، فيصرف إلى فقراء ذوي القربى مع هذه الأصناف دون أغنيائهم، وحجة الجمهور أن الكتاب والسنة يدلان على ثبوت سهم ذوي القربى، ولأن الخلفاء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعطون ذوي القربى، ولا يفضلون فقيرًا على غني؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أعطى العباس بن عبد المطلب مع كثرة ماله، وكذا الخلفاء بعده كانوا يعطونه، وألحقه الشافعي بالميراث الذي يستحق باسم القرابة غير أنهم يعطون القريب والبعيد، وقال: ويفضل الذكر على الأنثى فيعطى الذكر سهمين والأنثى سهمًا[4].

بل قد حكى بعض العلماء الإجماع على

(1) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢٩٧.
(2) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٧٢.
(3) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فرض الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس للإمام وأنه يعطي بعض قرابته دون بعض ما قسم النبي صلى الله عليه وسلم لبني المطلب، وبني هاشم من خمس خيبر، رقم ٣١٤٠، ٤/ ٩١.
(4) لباب التأويل، الخازن ٢/ ٣١٣.

أن ذلك السهم يكون في الكراع والسلاح في سبيل الله، فقد أخرج النسائي وغيره عن قيس بن مسلم، عن الحسن بن محمد بن الحنفية قال: «اختلف الناس بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في هذين السهمين: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسهم لذوي القربى، فقالت طائفة: سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للخليفة من بعده، وقالت طائفة: سهم لذوي القربى لقرابة الخليفة، فأجمعوا على أن يجعلوا هذين السهمين في الكراع وفي العدة في سبيل الله»(1).

وبهذا يمكن القول بأن سهم ذوي القربى يصرف في المصالح العامة وخاصة في هذا العصر؛ لتعذر معرفة قرابات النبي صلى الله عليه وسلم، وبعدهم عن عصره صلى الله عليه وسلم، مع الحب والتقدير لمن ينتسب إلى آل النبي صلى الله عليه وسلم.

ثالثًا: حقوق دعوية:

يجب على المسلم أن يخص أقاربه بالدعوة إلى الله تعالى والنصح والإرشاد كونه يتحمل المسؤلية تجاههم، بل إن تلك الدعوة والنصح والإرشاد من حقوق القرابة لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤].

فقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو الأقربين من عشيرته إلى الدين الإسلامي، وخصهم بالدعوة؛ لأنه يمكنه أن يجمعهم، أو لأن الإنسان يساهل قرابته، فأمر بإنذارهم من غير تليين، أو ليعلموا أنه لا يغني عنهم من الله شيئًا(2)؛ لتنحسم أطماع سائر عشيرته وأطماع الأجانب في مفارقته إياهم على الشرك، وعشيرته الأقربون هم قريش، وقيل: بنو عبد مناف(3).

وقد بينت السنة النبوية كيف دعا النبي صلى الله عليه وسلم عشيرته، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشًا، فاجتمعوا فعم وخص، فقال: (يا بني كعب بن لؤي، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة، أنقذي نفسك من النار،

(1) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، رقم ٣٣٤٥، ١٦/ ٥١٧، والنسائي في سننه، كتاب قسم الفيء، باب بدون، رقم٤١٤٣، ٧/ ١٣٣، والطبري في تفسيره ١٣/ ٥٥٧.

(2) إيجاز البيان عن معاني القرآن، نجم الدين النيسابوري ٢/ ٦٢٧.

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي١٣/ ١٤٣.

فإني لا أملك لكم من الله شيئًا، غير أن لكم رحمًا سأبلها ببلالها)[1].

ومعنى: سأبلها ببلالها، أي: سأصلها، فقد شبهت قطيعة الرحم بالحرارة، ووصلها بالماء الذي يطفئ ببرده الحرارة، ومنه حديث: (بلوا أرحامكم ولو بالسلام)[2][3]، أي: صلوا أرحامكم، قال ابن حجر: «وقال الطيبي وغيره شبه الرحم بالأرض التي إذا وقع عليها الماء وسقاها حتى سقيها أزهرت ورؤيت فيها النضارة فأثمرت المحبة والصفاء، وإذا تركت بغير سقي يبست وبطلت منفعتها فلا تثمر إلا البغضاء والجفاء»[4].

كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوٓا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَـٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

ووقاية النفس عن النار بترك المعاصي وفعل الطاعات، ووقاية الأهل بحملهم على ذلك بالنصح والتأديب[5]، وأيضًا فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى[6].

ومن خلال هذه النصوص يتبين أن من حقوق القريب على قريبه دعوته إلى الإيمان والتقوى والاستقامة بما يقيه من النار يوم القيامة، كما يجب على القريب نصح وإرشاد قريبه للخير والصلاح الديني والدنيوي.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب؟، رقم ٢٧٥٣، ٤/ ٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قوله تعالى: (وأنذر عشيرتك الأقربين)، رقم ٢٠٤، ١/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٦٠٢، ١٠/ ٣٤٦.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٨٣٨، ١/ ٥٤٦.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم٣/ ٨٠.

(٤) فتح الباري ١٠/ ٤٢٣.

(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي١٤/ ٣٥١.

(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي٢١/ ٥٤٩.

قطيعة الرحم وعاقبته

سيكون هذا المبحث في بيان معنى قطيعة الرحم، وصورها، وكيفية صلتها، وعاقبة قطيعة الرحم في الدنيا والآخرة، وذلك في النقاط الآتية:

أولًا: قطيعة الرحم:

إن قطيعة الرحم من الكبائر العظيمة التي توجب لعنة الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

قال ابن كثير: «ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ وهذا نهي عن الإفساد في الأرض عمومًا، وعن قطع الأرحام خصوصًا، بل قد أمر الله تعالى بالإصلاح في الأرض وصلة الأرحام، وهو الإحسان إلى الأقارب في المقال والأفعال وبذل الأموال، وقد وردت الأحاديث الصحاح والحسان بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من طرق عديدة ووجوه كثيرة»[(١)].

وقد أجمع العلماء على حرمة قطيعة الرحم، قال القرطبي: «اتفقت الملة على أن صلة الرحم واجبة وأن قطيعتها محرمة»[(٢)].

وقطيعة الرحم تكون: بالإساءة إلى الرحم، وتكون بترك الإحسان؛ لأن الأحاديث آمرة بالصلة ناهية عن القطيعة فلا واسطة بينهما، والصلة نوع من الإحسان كما فسرها بذلك غير واحد من العلماء، والقطيعة ضدها، وهي ترك الإحسان[(٣)].

قال القرطبي: «وبالجملة فالرحم على وجهين: عامة وخاصة، فالعامة: رحم الدين، ويجب مواصلتها بملازمة الإيمان، والمحبة لأهله ونصرتهم، والنصيحة وترك مضارتهم، والعدل بينهم، والنصفة في معاملتهم، والقيام بحقوقهم الواجبة، كتمريض المرضى، وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم ودفنهم، وغير ذلك من الحقوق المترتبة لهم، وأما الرحم الخاصة: وهي رحم القرابة من طرفي الرجل أبيه وأمه، فتجب لهم الحقوق الخاصة وزيادة، كالنفقة، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، وتتأكد في حقهم حقوق الرحم العامة، حتى إذا تزاحمت الحقوق بدئ بالأقرب فالأقرب»[(٤)].

وتكون صلة الرحم بالمال وبالعون على الحاجة، وبدفع الضرر، وبطلاقة الوجه، وبالدعاء، والمعنى الجامع: إيصال ما أمكن

(١) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٢٩٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٦.
(٣) انظر: سبل السلام، الصنعاني ٢/ ٦٢٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٢٤٧.

من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة، وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفارًا أو فجارًا فمقاطعتهم في الله هي صلتهم، بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى[(١)].

والخلاصة أن صلة الرحم: هي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارةً تكون بالمال، وتارةً بالخدمة، وتارةً بالزيارة، والسلام، وغير ذلك[(٢)]، أي: أن صلة الرحم: مشاركة ذوي القرابة في الخيرات[(٣)].

ثانيًا: عاقبة قطيعة الرحم:

توجب قطيعة الرحم عددًا من العقوبات والعواقب يمكن بيانها في الفقرات الآتية:

١ . اللعنة من الله.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: ٢٢-٢٣].

والمعنى: أن هؤلاء الذين يفسدون ويقطعون الأرحام لعنهم الله، فأبعدهم من رحمته، ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾، أي: فسلبهم فهم ما يسمعون بآذانهم من مواعظ الله في تنزيله، ﴿وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ يقول: وسلبهم عقولهم، فلا يتبينون حجج الله، ولا يتذكرون ما يرون من عبره وأدلته[(٤)].

٢ . القطع من الله.

القطع من الله عاقبة من عواقب قطيعة الرحم؛ لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(إن الرحم شجنة من الرحمن، فقال الله: من وصلك وصلته، ومن قطعك قطعته)**[(٥)].

ومعنى: الرحم شجنة من الرحمن، أي: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق، شبهه بذلك مجازًا واتساعًا، وأصل الشجنة بالكسر والضم: شعبة في غصن من غصون الشجرة[(٦)].

«والمراد منها هنا: أنها مشتقة (من الرحمن)، أي: من الرحم المشتق من اسم الرحمن، فكأنها مشتبكة به اشتباك العروق، وقيل: في وجه الشجنة أن حروف الرحم موجودة في اسم الرحمن، ومتداخلة فيه

---

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١٠/ ٤١٨.
(٢) انظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ١٤٥.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٨.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٧٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، رقم٥٩٨٨، ٨/ ٦.
(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٤٤٧.

كتداخل العروق لكونها من أصل واحد، والمعنى: أنها أثر من آثار رحمة الله مشتبكة بها، فالقاطع فيها مقطوع من رحمة الله، والواصل فيها واصل إلى رحمته»[1].

والقطع من الله كناية عن حرمان الإحسان، والوصل من الله تعالى كناية عن عظيم إحسانه[2]، بل قد يكون القطع حقيقةً بأن يقطع الله من عمره ورزقه، كما أن في الوصل زيادة في العمر والرزق.

٣. الحجب من دخول الجنة.

من عواقب قطيعة الرحم الحجب من دخول الجنة، لما رواه جبير بن مطعم رضي الله عنه: أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (**لا يدخل الجنة قاطع**)[3].

قال ابن أبي عمر: قال سفيان: يعني قاطع رحم[4].

قال الإمام النووي: «هذا الحديث يتأول تأويلين سبقا في نظائره في كتاب الإيمان، أحدهما: حمله على من يستحل القطيعة بلا سبب ولا شبهة مع علمه بتحريمها فهذا كافر يخلد في النار، ولا يدخل الجنة أبدًا،

(١) مرقاة المفاتيح، الملا علي القاري٧/ ٣٠٨٥.
(٢) انظر: شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٩/ ٢٠٥، عمدة القاري، العيني ٢٢/ ٩٣.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب إثم القاطع، رقم ٥٩٨٤، ٨/ ٥.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها، رقم ٢٥٥٦، ٤/ ١٩٨١.

والثاني: معناه ولا يدخلها في أول الأمر مع السابقين، بل يعاقب بتأخره القدر الذي يريده الله تعالى»[5].

٤. تعجيل العقوبة في الدنيا مع ما يؤجل في الآخرة.

من عواقب قطيعة الرحم تعجيل العقوبة في الدنيا مع ما يؤجل في الآخرة ويدل على ذلك ما رواه أبو بكرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**ما من ذنب أجدر أن يعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا، مع ما يدخر له في الآخرة مثل البغي وقطيعة الرحم**)[6].

٥. الخسران في الدنيا والآخرة.

رتب الله تعالى على نقض العهود وقطيعة الرحم و الفساد في الأرض الخسارة في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [البقرة: ٢٧].

(٥) شرح النووي على صحيح مسلم١٦/ ١١٣.
(٦) أخرجه أبي داود في سننه، كتاب الأدب، باب في النهي عن البغي، رقم ٤٩٠٢، ٤/ ٢٧٦، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، رقم ٢٥١١، ٤/ ٦٦٤، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب البغي، رقم ٤٢١١، ٢/ ١٤٠٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٧٠٥، ٢/ ٩٩٥.

والخاسرون هم: الهالكون والناقصون أنفسهم حظوظها من رحمة الله بمعصيتهم له، كما يخسر الرجل في تجارته، بأن يوضع من رأس ماله في بيعه، فكذلك الكافر والمنافق، وقاطع الرحم خسر بحرمان الله إياه رحمته التي خلقها لعباده في القيامة، أحوج ما كان إلى رحمته[(١)]، وخسر بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية، واستبدال الإنكار والطعن في الآيات بالإيمان بها، والنظر في حقائقها والاقتباس من أنوارها، واشتراء النقص بالوفاء، والفساد بالصلاح، والعقاب بالثواب[(٢)].

٦. الحرمان من قبول العمل.

الحرمان من قبول العمل من عواقب قطيعة الرحم، لما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**إن أعمال بني آدم تعرض كل خميس ليلة الجمعة، فلا يقبل عمل قاطع رحم**)[(٣)].

والمعنى: أن من قطع رحمه بنحو إساءة أو هجر، فعمله لا ثواب فيه، وإن كان صحيحًا، ولا تلازم بين الصحة وعدم القبول، وهذا وعيد شديد يفيد أن قطعها كبيرة، بخلاف قطعها بترك الإحسان أو نحوه فليس بكبيرة بل ولا صغيرة، ويحتمل كونه صغيرة في بعض الأحوال[(٤)].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٤١٧.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٦٥.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٠٢٧٢، ١٦/ ١٩١، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ٧٥٩٥، ١٠/ ٣٤١.
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد رقم١٣٤٥٠٨/ ١٥١: أخرجه أحمد، ورجاله ثقات.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، رقم ٢٥٣٨، ٢/ ٣٣٩.

(٤) انظر: فيض القدير، المناوي ٢/ ٤٢٦.

حقوق الرحم من غير المسلمين

إن الرحم من غير المسلمين إما أن يكونوا مسالمين وإما أن يكونوا محاربين، ولكل نوع من هؤلاء الرحم حقوق يمكن بيانها في النقاط الآتية:

أولًا: حقوق الرحم المسالمين من غير المسلمين:

رخص الله سبحانه في صلة الرحم المسالمين من غير المسلمين الذين لم يقاتلوا المؤمنين، ولم يخرجوا من ديارهم بالإحسان والبر، والقسط إليهم، والعدل معهم، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨][1].

واختلف العلماء فيمن نزلت فيهم هذه الآية:

فقال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت في خزاعة، منهم: هلال بن عديم، وخزيمة، ومزلقة بن مالك بن جعشم، وبنو مدلج، وكانوا صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يقاتلوه ولا يعينوا عليه أحدًا.

وعن هشام بن عروة عن أبيه عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: (نعم صليها)[2][3].

قال الطبري: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: عني بذلك: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين، من جميع أصناف الملل والأديان أن تبروهم وتصلوهم، وتقسطوا إليهم، إن الله عز وجل عم بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ جميع من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض، ولا معنى لقول من قال: ذلك منسوخ؛ لأن بر المؤمن من أهل الحرب ممن بينه وبينه قرابة نسب، أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نسب غير محرم، ولا منهي عنه إذا لم يكن في ذلك دلالة له، أو لأهل الحرب على عورة لأهل الإسلام، أو تقوية لهم بكراع أو سلاح، قد بين صحة ما قلنا في ذلك، الخبر الذي ذكرناه عن ابن الزبير في قصة أسماء وأمها. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ يقول: إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس، ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيبرون من برهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم»[4].

ومما يؤيد قول الطبري بأن الآية محكمة

---

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٨٥.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٧١.

(٤) جامع البيان ٢٣/ ٣٢٣.

غير منسوخة أن هذا قول جمهور المفسرين، ومن أدلتهم: أنها نزلت في أم أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما جاءت إليها وهي لم تسلم بعد وكان بعد الهجرة، وجاءت لابنتها بهدايا فأبت أن تقبلها منها وأن تستقبلها حتى تستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذن لها وأمرها بصلتها[1][2].

ومما ينفي النسخ عدم التعارض بين هذا المعنى، وبين آية السيف؛ لأن شرط النسخ التعارض، وعدم إمكان الجمع، ومعرفة التاريخ، والجمع هنا ممكن والتعارض منفي، وذلك لأن الأمر بالقتال لا يمنع الإحسان قبله، كما أن المسلمين ما كانوا ليفاجئوا قومًا بقتال حتى يدعوهم إلى الإسلام، وهذا من الإحسان قطعًا، ولأنهم قبلوا من أهل الكتاب الجزية، وعاملوا أهل الذمة بكل إحسان وعدالة[3].

ومفهومه: أن المؤمنين إذا كانوا في حالة قوة وعدم خوف وفي مأمن منهم، وليس منهم قتال، وهم في غاية من المسالمة فلا مانع من برهم بالعدل والإقساط معهم، وهذا مما يرفع من شأن الإسلام والمسلمين، بل وفيه دعوة إلى الإسلام بحسن المعاملة، وتأليف القلوب بالإحسان إلى من أحسن إليهم، وعدم معاداة من لم يعادهم، ومما يدل لذلك من القرائن ما جاء في التذييل لهذه الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾، كما قابل هذا بالتذييل على الآية الأخرى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، ففيه مقابلة بين العدل والظلم، فالعدل في الإحسان، والقسط لمن يسالم القريب، والظلم ممن يوالي من يعادي قومه[4].

وقد أوصى الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين الكافرين في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥].

أي: صاحبها في الدنيا بالبر والصلة، والعشرة الجميلة وهو المعروف من غير أن تطيعهما في معصيتي[5].

ومن الإحسان إليهما أيضًا: النفقة عليهما كما سبق في حق القرابة في النفقة، وليس من الصحبة بالمعروف تركه جائعًا مع القدرة على سد جوعته، وهذه الصلة والإحسان إليهما واجبة بالإجماع إذا كانا مسالمين[6].

ثانيًا: حقوق الرحم المحاربين:

أما حقوق الرحم المحاربين فهو بمعادتهم ومقاطعتهم وهجرهم، وهذا هو

(١) سبق تخريجه.
(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٩٢.
(٣) انظر: المصدر السابق ٨/ ٩٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٢٣١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٥٨٨.
(٦) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ٤٩٤.

صلة الرحم بهم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الممتحنة: ٩].

والمعنى: إنما ينهاكم عن موالاة هؤلاء الذين ناصبوكم بالعداوة فقاتلوكم، وأخرجوكم، وعاونوا على إخراجكم، ينهاكم الله عز وجل عن موالاتهم، ويأمركم بمعاداتهم، ثم أكد الوعيد على موالاتهم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥١][1].

فالذين قاتلوا المؤمنين في الدين، أي: من أجل الدين، وأخرجوهم من ديارهم، ﴿وَظَٰهَرُوا۟﴾، أي: أعانوا على إخراجهم، أما هؤلاء فهم الذين ينهى الله المؤمنين عن توليهم لهم، أي: موالاتهم وبرهم، والإحسان إليهم، ووصل حبال المودة بهم. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ﴾، أي: يقيم ولاءً معهم، ويبقى على صلة بهم، ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، أي: الذين اعتدوا على حق الله، وظلموا أنفسهم بما حملوها من أوزار[2].

ولا يجوز اتخاذ الأولياء والأنصار والأحباب من الذين قاتلوا المسلمين على الدين، وأخرجوهم من ديارهم، وعاونوا على إخراجهم، وهم مشركو أهل مكة، ومن يفعل ذلك بأن يواليهم، فأولئك هم الظلمة المستحقون للعقاب الشديد، والخلاصة: لا ينهى الله عن مبرة الفريق الأول، وإنما ينهى عن تولي الفريق الثاني[3].

وقد أمر تعالى بمباينة الكفار به وإن كانوا آباء أو أبناء، ونهى عن موالاتهم إن اختاروا الكفر على الإيمان، وتوعد على ذلك.

قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [التوبة: ٢٣].

والمعنى كما قال الرازي: «أنه لا يجتمع الإيمان مع وداد أعداء الله، وذلك لأن من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١١٩.
(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٤/ ٩٠٤.
(٣) التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ١٣٧.

أحب أحدًا امتنع أن يحب مع ذلك عدوه، وهذا على وجهين أحدهما: أنهما لا يجتمعان في القلب، فإذا حصل في القلب وداد أعداء الله، لم يحصل فيه الإيمان، فيكون صاحبه منافقًا، والثاني: أنهما يجتمعان ولكنه معصية وكبيرة، وعلى هذا الوجه لا يكون صاحب هذا الوداد كافرًا بسبب هذا الوداد، بل كان عاصيًا في الله، فإن قيل: أجمعت الأمة على أنه تجوز مخالطتهم ومعاشرتهم، فما هذه المودة المحرمة المحظورة؟ قلنا: المودة المحظورة هي إرادة منافسه دينًا ودنيًا مع كونه كافرًا، فأما ما سوى ذلك فلا حظر فيه، ثم إنه تعالى بالغ في المنع من هذه المودة من وجوه أولها: ما ذكر أن هذه المودة مع الإيمان لا يجتمعان، وثانيها: قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ والمراد أن الميل إلى هؤلاء أعظم أنواع الميل، ومع هذا فيجب أن يكون هذا الميل مغلوبًا مطروحًا بسبب الدين»[1].

ثم أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله وجهاد في سبيله فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

أي: إن كانت هذه الأشياء أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا، أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم، ولهذا قال: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[2].

وقد أمر الله تعالى بقطع موالاة الكفار حيهم وميتهم، فإن الله لم يجعل للمؤمنين أن يستغفروا للمشركين، فطلب الغفران للمشرك مما لا يجوز.

قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣][3].

وعن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: **لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله)، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة حتى قال**

(١) مفاتيح الغيب ٢٩/ ٤٩٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٠٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٧٢.

أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك)، فأنزل الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣].

وأنزل الله تعالى في أبي طالب، فقال لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦][1].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: زار النبي صلى الله عليه وسلم قبر أمه، فبكى وأبكى من حوله، فقال: (استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكر الموت)[2].

قال النووي: «فيه جواز زيارة المشركين في الحياة وقبورهم بعد الوفاة؛ لأنه إذا جازت زيارتهم بعد الوفاة ففي الحياة أولى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، وفيه النهي عن الاستغفار للكفار، قال القاضي عياض: سبب زيارته صلى الله عليه وسلم قبرها أنه قصد قوة الموعظة والذكرى بمشاهدة قبرها»[3].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الإحسان، الأمومة، البر، البنوة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قصة أبي طالب، رقم٣٨٨٤، ٥/ ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أول الإيمان قول لا إله إلا الله، رقم ٢٤، ١/ ٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل في زيارة قبر أمه، رقم ٩٧٦، ٢/ ٦٧١.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم٧/ ٤٥.





عناصر الموضوع

مفهوم الرحمة	١١٦
الرحمة في الاستعمال القرآني	١١٧
الالفاظ ذات الصلة	١١٩
الرحمة في حق الله سبحانه وتعالى	١٢٠
من وصف بالرحمة في القرآن	١٣٨
موجبات رحمة الله تعالى	١٤٩
أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله	١٥٩
من مظاهر رحمة الله وآثارها	١٦٢
موقف الخلق من رحمة الله	١٧٢

مفهوم الرحمة

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (ر ح م) حول الرقّة، والعطف.

قال ابن فارس: «الرّاء والحاء والميم أصل واحد، يدل على: الرقة والعطف والرأفة. يقال من ذلك: رحمه يرحمه إذا رقّ له وتعطّف عليه، والرّحم والمرحمة والرّحمة بمعنًى»[(١)].

وقال ابن منظور رحمه الله: «الرحمة: الرقة والتعطف، والرحمة في بني آدم: رقة القلب وعطفه»[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر أهل العلم في تعريف الرحمة في الاصطلاح عدة تعريفات مأخوذة من دلالة المعنى اللغوي للكلمة، ومن هذه التعريفات:

قول الراغب الأصفهاني رحمه الله: «الرحمة رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارةً في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو رحم الله فلانًا»[(٣)].

وقال الكفوي رحمه الله: «الرحمة حالة وجدانية تعرض غالبًا لمن به رقة القلب، وتكون مبدأً للانعطاف النفساني الذي هو مبدأ الإحسان»[(٤)].

وعرفها بعض الباحثين بقوله: «رقة يجدها المخلوق في قلبه تحمله على العطف والإحسان إلى سواه ومواساته، وتخفيف آلامه»[(٥)].

والرحمة هي السبب الذي بين الله وبين عباده؛ بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وبها أنعم عليهم[(٦)].

فالمعنى الاصطلاحي للرحمة لا يبعد عن معناه اللغوي، إلا أنه خص برحمة الله لعباده، ولا ينافي معنى الرحمة أن يكون في بعض التكاليف مشقة.

---

(١) مقاييس اللغة، ٣/ ٣٩٨.
(٢) لسان العرب ١٢/ ٢٣١.
(٣) المفردات ص ١٩١.
(٤) الكليات ص ٤٧١.
(٥) الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص٢١-٢٢.
(٦) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٥.



الرحمة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رحم) في القرآن الكريم (٣٣٩) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: ٤٣]
الفعل المضارع	١٥	﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾﴾ [العنكبوت: ٢١]
المصدر	١١٦	﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ [آل عمران: ٨]
اسم الفاعل	٦	﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤]
صيغة المبالغة	١٧٢	﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾﴾ [الفاتحة: ٣]
اسم التفضيل	٤	﴿وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢]
الاسم	١٣	﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]

وأطلقت الرحمة في الاستعمال القرآني على عدة أمور[٢]:

الأول: الإسلام والإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ [الإنسان: ٣١]، أي: في دينه الإسلام. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [هود: ٢٨]، أي: الإيمان.

الثاني: الجنة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٧]، أي: في جنته.

الثالث: المطر: ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٣٠٤-٣٠٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، مقاتل بن سليمان ص ٣٩-٤٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٢٢٤-٢٢٧، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٣٣١-٣٣٤، الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري ص ٢٢٧-٢٢٨.

[الأعراف: ٥٧]، أي: المطر.

الرابع: النبوة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]، أي: مفاتيح النبوة.

الخامس: القرآن: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، أي: القرآن.

السادس: الرزق: ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠]، أي: رزق ربي.

السابع: النصر والفتح: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧]، أي: النصر والفتح.

الثامن: العافية: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٨]، أي: عافية.

التاسع: المودة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، أي: مودة.

العاشر: التوفيق: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ٨٣]، أي: توفيقه.

الحادي عشر: العصمة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ﴾ [يوسف: ٥٣].

الألفاظ ذات الصلة

١ الرأفة:

الرأفة لغة:

أصل مادة (ر أ ف) تدل على رقّة ورحمة، وهي الرّأفة[١].

الرأفة اصطلاحًا:

قال الكفويّ: «الرّأفة مبالغة في رحمة مخصوصة، هي رفع المكروه وإزالة الضرّ»[٢].

الصلة بين الرأفة والرحمة:

الرّأفة أخص من الرحمة؛ فالرّأفة: أشد الرحمة[٣]، أو الرّأفة: أعلى معاني الرحمة[٤]، أو الرّأفة: ألطف الرحمة وأرقها[٥].

قال الزجاج رحمه الله: «الرّأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»[٦].

٢ القسوة:

القسوة لغةً:

القسوة: الصّلابة في كلّ شيء، والقسوة في القلب تعني ذهاب اللّين والرّحمة والخشوع منه[٧].

القسوة اصطلاحًا:

قال الراغب: «القسوة: غلظ القلب»[٨].

الصلة بين القسوة والرحمة:

العلاقة بينهما التضاد، فالقسوة ضد الرحمة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٧١.
(٢) الكليات ص ٣٧٨.
(٣) انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٥٩، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٧٩.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ١٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٢٢١.
(٥) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٥١٨، تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمن، من سورة الحجرات وحتى الحديد ص٤٢٨.
(٦) تفسير أسماء الله الحسنى ص٦٢.
(٧) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ١٨٠.
(٨) المفردات ص٦٧١.

الرحمة في حق الله سبحانه وتعالى

الرحمة المضافة إلى الله تعالى نوعان: رحمة ذاتية موصوف بها سبحانه على الوجه اللائق به، وإضافتها إليه من إضافة الصفة إلى الموصوف كقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

والرحمة الأخرى: رحمة مخلوقة، وهي من أثر صفة الرحمة الذاتية، وإضافتها إليه سبحانه من إضافة المخلوق إلى خالقه كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

وكما جاء في الحديث: (فقال الله للجنة: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي)[1][2].

ورحمة الله وردت في القرآن الكريم صفة له سبحانه، واشتق منها اسمان عظيمان هما الرحمن والرحيم، وسأعرض لما تقدم من خلال النقاط الآتية:

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٥، رقم ٢٨٤٦، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٤٠٨.

أولًا: ورود الرحمة مفردة صفة لله تعالى:

جاءت رحمة الله في مواضع من القرآن الكريم موصوفة بصفة معينة، ككتابة الله لها على نفسه وكالسعة، والقرب من المحسنين، وسأعرض لهذه الأوصاف والدلالات من خلال الآتي:

١ . الرحمة مما كتبه الله سبحانه على نفسه.

ليس لأحد أن يلزم الله شيئًا، ولكن الله يلزم نفسه ما شاء، ومعنى إلزامه أن يخبر به، ووعده جل وعلا صادق لا يتخلف، فما وعد الله به فهو واجب الوقوع لازمه محتوم؛ لأن الله لا يخلف الميعاد[3].

ومما أخبر الله به سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه الرحمة، أي: أوجبها على نفسه الكريمة تفضلًا منه وإحسانًا؛ وهذه الكتابة كونية قدرية لم يوجبها عليه أحد[4].

قال ابن حجر رحمه الله: « قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ليس معناه أن ذلك لازم له؛ لأنه لا آمر له، ولا ناهي يوجب عليه ما يلزمه المطالبة به، وإنما معناه إنجاز ما وعد به من الثواب،

(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٣٤٠.

(٤) انظر: شرح العقيدة الواسطية، الفوزان ص٣٥.

وهو لا يخلف الميعاد»[1].

وقد ورد إخبار الله سبحانه عن نفسه أنه كتب على نفسه الرحمة في موضعين من سورة الأنعام:

الأول: قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢].

بيّن تعالى كمال إلاهيته وقدرته ونفاذ تصرفه في عالم المخلوقات بالكلية، ثم أردفه بكمال رحمته وإحسانه إلى الخلق فقال: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[2].

فقضى أنّه بعباده رحيم، لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة، وهذا منه تعالى استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة[3].

و﴿الرَّحْمَةَ﴾ هنا الظاهر أنها عامّة، فتعم المحسن والمسيء في الدنيا، وهي عبارة عن الاتصال بهم والإحسان إليهم، ولم يذكر متعلق الرحمة لمن هي فتعم[4].

قال ابن سعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾، أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابًا أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم»[5].

وقد أورد العلاّمة ابن عاشور رحمه الله عدة معانٍ بديعة في وقوع جملة ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ معترضة، حيث قال: «وفي هذا الاعتراض معان: أحدها: أنّ ما بعده لـمّا كان مشعرًا بإنذار بوعيد قدّم له التذكير بأنّه رحيم بعبيده، عساهم يتوبون ويقلعون عن عنادهم، على نحو قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

والشرك بالله أعظم سوءٍ وأشدّ تلبّسًا بجهالة، والثاني: أنّ الإخبار بأنّ لله ما في السماوات وما في الأرض يثير سؤال سائل عن عدم تعجيل أخذهم على شركهم بمن هم ملكه. فالكافر يقول: لو كان ما تقولون صدقًا لعجّل لنا العذاب، والمؤمن يستبطىء تأخير عقابهم، فكان قوله: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ جوابًا لكلا الفريقين بأنّه تفضّل بالرحمة، فمنها رحمة كاملة: وهذه

(١) فتح الباري ١٣/ ٤١٣.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ١٣٧.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٧٣.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٨٦.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥١.

رحمته بعباده الصالحين، ومنها رحمة موقّتة وهي رحمة الإمهال والإملاء للعصاة والضالّين، والثالث: أن ما في قوله: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ﴾ من التمهيد لما في جملة ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ من الوعيد والوعد. ذكرت رحمة الله تعريضًا ببشارة المؤمنين وبتهديد المشركين»[1].

والثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

جاءت هذه الآية إرشادًا من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في شأن فريق من الناس، وهم الذين يجيئون الرسول آنًا بعد آنٍ مؤمنين بآيات الله المثبتة للتوحيد والرسالة، فيدخلون في الإسلام مذعنين لأمر الله ورسوله[2].

ثم بين سبحانه أن المراد بالرحمة في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ غفرانه ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا، فقال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، فقوله: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا﴾ مفسر لتلك الرحمة مبين لها[3].

والتوبة لا بد فيها من ترك الذنوب، والندم عليها، وإصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك كله ﴿فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يصب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به[4].

وقريب من هذه الآية[5] قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧].

فمدلول هذه الآية أن الله ليس عليه حق بقبول توبة أحد من المذنبين، وليس الله براجع لأحد منهم إلى ما يحبه من العفو عنه والصفح عن ذنوبه التي سلفت منه، إلا للذين يزاولون المعاصي عن جهل منهم، وهم من عذاب ربهم مشفقون، فيتوبون من ذنوبهم ويراجعون طاعة الله التي ترضيه، ويلازمون الاستغفار والندم على ما فات

(١) التحرير والتنوير ٧/ ١٥١.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٧/ ٣٤٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٥٧، العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٣٤١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٢٥٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ١/ ١٣٩.

عازمين على ترك العودة إليه[١].

ومما يجدر الإشارة إليه في ختام الكلام على الآيتين الكريمتين أن ما أخبر الله من أنه سبحانه بأنه كتب على نفسه الرحمة هو الذي دلت عليه السنة، فقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يدل على أن الله جل وعلا كتب في كتاب فهو عنده فوق عرشه: (إن رحمتي غلبت غضبي)[٢].

وهذا المعنى هو الذي دلت عليه آيات أخرى من كتاب الله، وهو الذي سيكون عنه الحديث في الفقرة الآتية.

٢. سبق رحمة الله غضبه.

بسط الله سبحانه على عباده رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابًا أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة[٣].

وقد جاء هذا المعنى في عدة آيات من كتاب الله تعالى، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ﴾[الأنعام: ١٣٣].

الله سبحانه هو الغني: في ذاته وصفاته وأفعاله وأحكامه، الغني عن عباده والكل مفتقر إليه؛ فلا ينفعه إيمان المؤمنين، ولا طاعة الطائعين، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

كما لا يضره كفر الكافرين، أو معصية العاصين، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨][٤].

وفي الحديث القدسي، الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فيما يرويه عن ربه، أن الله جل وعلا يقول: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا)[٥].

والنكتة في الآية: أن الله بما قدّم قبل هذه الآية من آيات أمر ونهي، وبين ما

(١) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، عبدالرحمن الدوسري ٥/ ١٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: (وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده)، ٣/ ١١٦٦، رقم ٣٠٢٢، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى، ٤/ ٢١٠٧، رقم ٢٧٥١، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥١.

(٤) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٦٢.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، ٤/ ١٩٩٤، رقم ٢٥٧٧، عن أبي ذر رضي الله عنه.

يدخل الجنة وما يدخل النار، ثم نبه خلقه، فكأنه يقول: يا عبادي: لا تظنوا أنني آمركم وأنهاكم لأجل أن أجر بذلك لنفسي نفعًا أو أصرف عنها ضراً، لا، أنا الغني بذاتي الغنى المطلق، وإنما النفع لكم لا لي[(١)].

ثم تليت هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾ فأردف الاستغناء بالتفضل وهذا أجمل تناسق[(٢)]، والوصف بذي الرحمة يساوي وصف الرحيم؛ لأن ذو تقتضي رسوخ النسبة بين موصوفها وما تضاف إليه[(٣)]، وقوله: ﴿ذُو الرَّحْمَةِ﴾، أي: أنه صاحب الرحمة وحده، فهو الرحيم رحمة مطلقة بعباده، ورحمة غيره رحمة نسبية، تليق بالمخلوقات، أما الله تعالى فرحمته واسعة، وسعت كل شيء، خلق الكون والناس برحمته، وخلق العقلاء وكفلهم برحمته، وأنزل من السحاب ماءً مدرارًا برحمته، وخلق من الماء كل شيء حي برحمته، وجعل الأرض مهادًا والجبال أوتادًا برحمته، وخلق الموت والحياة برحمته، وخلق البعث والنشور برحمته، وأنشأ السمع والأبصار والأفئدة برحمته[(٤)].

والمقصود من الوصف بذي الرحمة، تمهيد لمعنى الإمهال الذي في قوله: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي: فلا يقولنّ أحد لماذا لم يذهب هؤلاء المكذبين، أي: أنه لرحمته أمهلهم إعذارًا لهم[(٥)]؛ فلو شاء لعجل لهم العقاب وسارع إلى إهلاكهم واستخلاف غيرهم، كما أهلك أسلافهم الذين خرجوا من أصلابهم، لكنه تعالى يمهلهم لعلهم يرجعون، ويؤخرهم فعساهم يتوبون[(٦)].

ومن الآيات الدالة على سبق رحمة الله غضبه قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨].

الله واسع المغفرة، يغفر الذنوب، ويتوب على من يتوب، فيتغمده برحمته، ويشمله بإحسانه، وأنه لو آخذ العباد على ما قدمت أيديهم من الذنوب، لعجل لهم العذاب، ولكنه تعالى حليم لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل ولا يهمل، والذنوب لا بد من وقوع آثارها، وإن تأخرت عنها مدة طويلة[(٧)].

وفي معنى هذه الآية وردت آيات

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٣٠٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٥٥- ٣٥٤.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٣٥٧.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥/ ٢٦٧٩.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٦) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٣/ ٥٦٢.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٠.

كثيرة[1]، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[النحل: ٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [فاطر: ٤٥].

فإنه لو عاجل الخلق بالعقوبة لأهلك جميع من في الأرض، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة؛ لأن العجلة من شأن من يخاف فوات الفرصة، ورب السماوات والأرض لا يفوته شيء أراده[2].

ذكر الله تعالى الكفار بالصفات الموجبة للخزي والخذلان[3] في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾[الكهف: ٥٧].

ولما كان هذا مقتضيًا لأخذهم أتبعه بقوله[4]: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ جريًا على عادة القرآن في تعقيب الترهيب بالترغيب والعكس؛ فلما رماهم بقوارع التهديد والوعيد عطف على ذلك التعريض بالتذكير بالمغفرة؛ لعلهم يتفكرون في مرضاته، ثم التذكير بأنه يشمل الخلق برحمته في حين الوعيد، فيؤخر ما توعدهم به إلى حد معلوم، إمهالًا للناس لعلهم يرجعون عن ضلالهم، ويتدبرون فيما هم فيه من نعم الله تعالى فلعلهم يشكرون[5].

ومن استمر منهم ﴿لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ وهو يحتمل أن يكون المراد ما سيكون عليهم من القتل بأيدي المؤمنين في الدنيا، أو ما سيكون عليهم يوم القيامة الذي لا مفر منه[6]، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾[مريم: ٧٥].

أي: فليهمله الرحمن إمهالًا فيما هو فيه حتى يستدرجه بالإمهال ويموت على ذلك ولا يرجع عنه، بل يستمر على ذلك حتى يرى ما يوعده الله، وهو: إما عذاب في الدنيا بأيدي المسلمين، كقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]، أو بغير ذلك، وإما عذاب الآخرة إن ماتوا وهم على ذلك الكفر[7].

وهذه سنة الله في الأولين والآخرين، أن لا يعاجلهم بالعقاب، بل يستدعيهم إلى التوبة والإنابة، فإن تابوا وأنابوا، غفر لهم

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ١٩٣.
(٢) المصدر السابق٣/ ٣٤٨.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٧٦.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٤/ ٤٨٤.
(٥) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ٣٥٦.
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة الكهف ص١٠٦.
(٧) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٥٠.

ورحمهم، وأزال عنهم العقاب، وإلا فإن استمروا على ظلمهم وعنادهم، وجاء الوقت الذي جعله موعدًا لهم، أنزل بهم بأسه[1]؛ ولهذا قال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩].

وهذا استشهاد على ما فعل بقريش من تعيين الموعد؛ ليتنبهوا لذلك، ولا يغتروا بتأخر العذاب[2].

٣. سعة رحمة الله.

الله سبحانه واسع الرحمة، له كمال الرحمة، ورحمته قد ملأت العالم العلوي والسفلي وجميع المخلوقات، وشملت الدنيا والآخرة[3].

وهذه الرحمة الواسعة التي عمت البر والفاجر، وجميع المخلوقات، دلّ عليها عدة آيات من كتاب الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٧].

جمع جلّ وعلا في هذه الآية الكريمة، بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد؛ لأن مطامع العقلاء محصورة في أمرين، هما جلب النفع ودفع الضر[4]، والله سبحانه قرن في عدة آيات من كتابه بين الترغيب في رحمته، والترهيب من عذابه، كقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ۝٥٠﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠].

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

أي: فإن كذبك مخالفوك من المشركين واليهود ومن شابههم[5]، فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ تسع جميع خلقه، المحسن والمسيء، لا يعاجل من كفر به بالعقوبة، ولا من عصاه بالنّقمة، ولا يدع كرامة من آمن به وأطاعه، ولا يحرمه ثواب عمله، رحمةً منه بكلا الفريقين[6].

فالله سبحانه أمهلهم، وأغدق عليهم نعمه، وأعطاهم العافية والإمهال، وهم يكذبون رسله، ويرتكبون مساخطه، ويتمردون عليه، فسبحانه ما أرحمه[7]!

إلا أنه سبحانه مع سعة رحمته؛ فإن سطوته وعذابه لا يردّه إذا أحله عند غضبه على المجرمين، فقال: ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٨٠.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٥/ ٢٣١.
(٣) المواهب الربانية من الآيات القرآنية، السعدي ص١١٦.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٧٥.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٥٧.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٠٦.
(٧) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٤٠٧.

﴿ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[(١)].

وقرن سبحانه بين سعة رحمته وشدة بأسه؛ ليكون الخوف والرجاء جناحين يطير بهما الإنسان إلى امتثال أمر الله، هذا الملك الجبار الذي أدعوكم إليه رحيم عظيم الرحمة الواسعة لمن أطاعه، شديد النكال والبأس لمن عصاه، فعليكم أن تخافوا بأسه ونكاله، وتطمعوا في رحمته فتطيعوه[(٢)].

ومن الآيات الدالة على سعة رحمته قوله تعالى عن حملة العرش ومن حوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

وسعتها عموم تعلقها بكل شيء؛ كما أن سعة علمه تعالى عموم تعلقه بكل معلوم[(٣)].

فما من موجود في الدنيا إلا وقد نالته قسمة من رحمة الله، سواء في ذلك المؤمن والكافر والإنسان والحيوان[(٤)]؛ لأن الله قرن الرحمة مع العلم، فكل ما بلغه علم الله، وعلم الله بالغ لكل شيء، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم الكافر، يرحم الكافر أيضًا؛ لكن رحمته للكافر رحمة جسدية بدنية دنيوية قاصرة غاية القصور بالنسبة لرحمة المؤمن، فالذي يرزق الكافر هو الله الذي يرزقه بالطعام والشراب واللباس والمسكن والمنكح وغير ذلك، أما المؤمنون، فرحمتهم رحمة أخص من هذه وأعظم، لأنها رحمة إيمانية دينية دنيوية[(٥)].

وسعة رحمته تتضمن أنّه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به أهل توحيده ومحبته، فإنّه واسع الرحمة، لا يخرج عن دائرة رحمته إلاالأشقياء، ولا أشقى ممن لم تسعه رحمته التي وسعت كلّ شيء[(٦)].

ومن الآيات الدالة على سعة رحمته قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهذه الآية قال عنها ابن كثير رحمه الله: «آية عظيمة الشمول والعموم؛ كقوله إخبارًا عن حملة العرش ومن حوله أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]»[(٧)].

فرحمته سبحانه وسعت العالم العلوي والسفلي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه[(٨)]، فالعموم في

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٠٦.
(٢) العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٤٠٧.
(٣) انظر: بدائع الفوائد، ابن القيم ٢/ ٤١٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٩١.
(٥) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ٢٠٥.
(٦) انظر: الداء والدواء، ابن القيم ص٢٧١.
(٧) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٨١.
(٨) تيسير الكريم الرحمن السعدي ص ٣٠٥.

الرحمة عموم كامل صادق، وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ ولم يقل كل شخص، للإشارة إلى أن الرحمة شاملة عامة للأشياء والأشخاص، فشريعته عدل ورحمة، وإرساله الرسل عدل ورحمة، وخلقه الكون وما فيه من شمس مشرقة مضيئة للكون، وقمر منير، ونجوم ذات بروج، وسحاب ورياح مرسلات رحمة، وهكذا كل ما سخره الله تعالى للإنسان، وما مكنه منه رحمة به[1].

ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[2].

فعموم الرحمة في الآية الكريمة قد ورد ما يخصصه وهو قوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[3].

قال ابن عادل رحمه الله: «﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾أي: أن رحمته في الدنيا تعم الكل، وأمّا في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين؛ لقوله هنا: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، وهذا من العام الذي أريد به الخاص كقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣]»[4].

فنعيم الجنة رحمة من الله، وقد كتبها الله تعالى للذين يؤمنون بالله وبالآخرة، ولذا قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[5].

وإن كان المتقون هم أهل الرحمة، والرحمة مرصدة لهم؛ فقد دل القرآن الكريم أيضًا على قربها منهم، وهو ماسيكون الكلام عنه في الفقرة الآتية.

٤ . قرب رحمة الله من المحسنين.

الله يرحم أهل توحيده المؤمنين به، وكتب رحمته ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

والذين يتبعون رسوله فهؤلاء هم أهل الرحمة، كما أنهم هم المحسنون، وكما أحسنوا جوزوا بالإحسان و﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠][6].

فالرحمة مرصدة للمحسنين، الذين يتبعون أوامر الله ويتركون زواجره[7]، وقد قرّب الله تعالى رحمته لعباده[8] فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وأوضح في موضع آخر صفات عبيده الذين سيكتبها لهم في قوله: ﴿وَرَحْمَتِي

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٩٦٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٥.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٩٢، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٢٧١.
(٤) اللباب في علوم الكتاب٩/ ٢٣٨.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٩٦٦.
(٦) بدائع الفوائد، ابن القيم ٤/ ٣١.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٨١.
(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٢٨٧٠.

﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾[الأعراف: ١٥٦][(١)].

جاء ذكر قرب رحمة الله من المحسنين عقب جملة من آداب الدعاء هي: الإخلاص فيه لله وحده، وأن يكون القلب خائفًا طامعًا لا غافلًا ولا آمنًا، ولا غير مبال بالإجابة[(٢)] فقال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝﴾ [الأعراف: ٥٥-٥٦].

ولما كان قوله: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مشتملًا على جميع مقامات الإيمان والإحسان، وهي الحب والخوف والرجاء، عقّبها بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: إنما تنال من دعاه خوفًا وطمعًا، فهو المحسن، والرحمة قريب منه؛ لأن مدار الإحسان على هذه الأصول الثلاثة.

وقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فيه تنبيه ظاهر على أن فعل هذا المأمور هو الإحسان المطلوب منكم، ومطلوبكم أنتم من الله رحمته، ورحمته قريب من المحسنين، الذين فعلوا ما أمروا به من دعائه تضرعًا وخفيةً، وخوفًا وطمعًا فقرر مطلوبكم منه، وهو الرحمة بحسب أدائكم لمطلوبه، وإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم، وإنما اختص أهل الإحسان بقرب الرحمة؛ لأنها إحسان من الله عز وجل أرحم الراحمين، وإحسانه تبارك وتعالى إنما يكون لأهل الإحسان؛ لأن الجزاء من جنس العمل، وكلما أحسنوا بأعمالهم أحسن إليهم برحمته، وأما من لم يكن من أهل الإحسان فإنه لما بعد عن الإحسان بعدت عنه الرحمة، بعدٌ ببعدٍ، وقربٌ بقرب، فمن تقرب إليه بالإحسان تقرب الله إليه برحمته، ومن تباعد عن الإحسان تباعد الله عنه برحمته، والله سبحانه يحب المحسنين، ويبغض من ليس من المحسنين، ومن أحبه الله فرحمته أقرب شيء منه، ومن أبغضه الله فرحمته أبعد شيء منه[(٣)].

فكان في بيان قربه سبحانه من المحسنين من التحريض على الإحسان واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه غاية حظ وأشرفه وأجله على الإطلاق، وهو أفضل إعطاء أعطيه العبد، وهو قربه تبارك وتعالى من عبده الذي هو غاية الأماني، ونهاية الآمال، وقرة العيون، وحياة القلوب، وسعادة العبد كلها[(٤)].

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٧٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩١.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٥/ ٢٦-٢٨.
(٤) بدائع الفوائد، ابن القيم ٤/ ٤٧.

ثانيًا: اسما الله تعالى الرحمن والرحيم:

ورد اسما الله تعالى الرحمن والرحيم منفردين في مواضع من كتاب الله، واقترنا في مواضع أخر من كتاب الله، كما اقترن اسم الرحيم بغيره من الأسماء الحسنى، كما اعتبر بعض أهل العلم الأسماء المضافة مثل: أرحم الراحمين، وعدّها من ضمن الأسماء الحسنى(١).وسأعرض لما تقدم من خلال الآتي:

١ . ورود كل من الاسمين الكريمين منفردًا كل منهما عن الآخر.

الحسن في أسماء الله تعالى يكون باعتبار كل اسم على انفراده، ويكون بجمعه إلى غيره فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمالٌ فوق كمال(٢).

وقد ورد اسما الله ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ منفردين في مواضع كثيرة من كتاب الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وأما اسم الله ﴿الرَّحِيمُ﴾ فلم يرد في القرآن منفردًا إلا في ثلاثة مواضع هي:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

و﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾ اسمان مشتقان من الرحمة، ورحمان أبلغ من رحيم، و ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ خاص لله لا يسمى به غيره ولا يوصف، و﴿الرَّحِيمُ﴾ يوصف به غير الله تعالى، فيقال: رجل رحيم، ولا يقال: رحمان(٣).

والمعنى الذي حمل عليه أكثر أهل العلم الاسمين الكريمين سواءً وردا منفردين أو مقترنين هو: أن ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، و﴿الرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة. وهذا القول نسبه الشنقيطي رحمه الله إلى أكثر العلماء واختاره(٤).

قال ابن كثير رحمه الله: «وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]. فذكر الاستواء باسمه الرحمن ليعم

---

(١) انظر: معتقد أهل السنة الجماعة في أسماء الله الحسنى، محمد التميمي ص ١٨٨.
(٢) المصدر السابق ص ٣١٥.
(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٢١٠.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨.

جميع خلقه برحمته، وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فخصهم باسمه الرحيم، قالوا: فدل على أن الرحمن أشد مبالغة في الرحمة لعمومها في الدارين لجميع خلقه، والرحيم خاصة بالمؤمنين»[١].

وذكر الشنقيطي رحمه الله قول ابن كثير المتقدم وزاد عليه بقوله: «ومثله قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ﴾ [الملك: ١٩]، أي: ومن رحمانيته: لطفه بالطير وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء، ومن أظهر الأدلة في ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢﴾ [الرحمن: ١-٢].

إلى قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن: ١٣].

وقال: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣]. فخصهم باسمه الرحيم»[٢].

٢. ورود الاسمين الكريمين مقترنين.

ورد هذان الاسمان مقترنين في أكثر من موضع من كتاب الله ومنها قوله تعالى في أول آية من كتاب الله تعالى: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [الفاتحة: ١].

وعن سر الجمع بينهما واقترانهما في آية واحدة رأيان لأهل العلم:

الرأي الأول: أن الرحمن والرحيم بمعنىً واحد، وجمع بينهما تأكيدًا.

قال النحاس رحمه الله: «قال قطرب: يجوز أن يكون جمع بينهما للتوكيد[٣]؛ وهذا قول حسن، وفي التوكيد أعظم الفائدة، وهو كثير في كلام العرب يستغني عن الاستشهاد»[٤].

وقال ابن العربي رحمه الله: «والصحيح أنهما بمعنىً واحد للتأكيد، كندمان ونديم»[٥].

الرأي الثاني: التفريق بين الرحمن والرحيم في المعنى، والجمع بينهما ليس للتأكيد.

وأشهر الأقوال التي ذكرت في معناهما قولان:

القول الأول: أن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ ذو الرحمة للمؤمنين يوم القيامة.

وهذا القول نسبه الشنقيطي رحمه الله إلى أكثر العلماء واختاره[٦].

(١) تفسير القرآن العظيم ١/ ١٢٦.
(٢) أضواء البيان ١/ ٤٨.

(٣) الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/ ٥٨.
(٤) معاني القرآن ١/ ٥٤.
(٥) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ١/ ٤٠٦.
(٦) أضواء البيان ١/ ٤٨.

قال الخطابي رحمه الله: «﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق في أرزاقهم وأسباب معايشهم ومصالحهم، وعمت الجميع المؤمن والكافر، وأما الرحيم فخاص للمؤمنين كما قال: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٤٣]»[١].

وقد أورد بعض أهل العلم على هذا القول إشكالًا؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [البقرة: ١٤٣][٢]؛ فلفظ الناس يشمل المؤمنين والكفار جميعًا.

وأجاب عنه ابن عثيمين رحمه الله بقوله: «هذه هي الرحمة العامة التي بها يعيش الناس في دنياهم برزق الله من طعام، وشراب، وكسوة، وغيرها؛ وأما الرحمة الخاصة فهي للمؤمنين خاصة؛ وبها يحصل سعادة الدنيا، والآخرة، كالعلم والإيمان المثمرين لطاعة الله، ورسوله»[٣].

(١) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦.

(٢) النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى، النجدي ١/ ٧٨.

(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثمين، سورة البقرة، ٢/ ١٢١.

وقال رحمه الله في شرح الواسطية ص٢٨: «فيجتمع من الرحمن الرحيم: أن رحمة الله واسعة وأنها واصلة إلى الخلق، وهذا ما أومأ إليه بعضهم بقوله الرحمن: رحمة عامة، والرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين، ولما كانت رحمة الله للكافر رحمة خاصة في الدنيا فقط فكأنها لا رحمة لهم».

القول الثاني: أن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ دال على صفة ذاتية، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ دال على صفة فعلية.

وهذا القول: هو اختيار: القرطبي، وابن القيم، وابن عاشور، وابن عثيمين رحمهم الله[٤].

قال القرطبي رحمه الله: «وروي عن أبي عبيدة أنه قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ ذو الرحمة، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ هو الراحم[٥]. قال ابن الحصّار: يشير -والله أعلم- إلى ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ صفة الخالق سبحانه، و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يدل على أفعاله التي يرحم بها عباده، ولله درّه في هذا القول»[٦].

إن التفريق بين الرحمن والرحيم في المعنى أولى من القول أنهما بمعنى واحد والجمع بينهما للتأكيد، وهو الذي تعضده قاعدة من قواعد الترجيح عند المفسرين وهي: قاعدة: التأسيس أولى من التأكيد[٧].

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «وينسب إلى قطرب: أن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يدلان على معنى واحد من

(٤) انظر: الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦، بدائع الفوائد، ابن القيم ص٤٢.

(٥) مجاز القرآن، أبو عبيدة ١/ ٢١.

(٦) الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، القرطبي ص ٤٠٦.

(٧) قواعد الترجيح عند المفسرين، الحربي ٢/ ٤٧٣.

الصفة المشبهة، فهما متساويان، وجعل الجمع بينهما في الآية من قبيل التوكيد اللفظي، ومال إليه الزجاج[(١)]، وهو وجه ضعيف؛ إذ التوكيد خلاف الأصل والتأسيس خير من التأكيد، والمقام هنا بعيد عن مقتضى التوكيد»[(٢)].

٣. اقتران اسم الله الرحيم ببقية الأسماء الحسنى.

اقترن اسم الله الرحيم بستة أسماء غير اسم الرحمن، وسأذكرها مرتبة حسب الأكثر ورودًا في القرآن، وهي:

الأول: الغفور:

اقترن الاسمان الغفور والرحيم في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كلها تقدّم فيها الغفور على الرحيم إلا في موضع واحد وهو قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]

والغفور: هو الذي يستر الذنوب عن الخلق، ولا يظهرها[(٣)].

والله سبحانه يقرن بين الاسمين الكريمين ﴿الْغَفُورُ﴾ و﴿الرَّحِيمُ﴾؛ لأنهما دالان على معنىً متشابه؛ ففي المغفرة زوال المكروب وآثار الذنب، وفي الرحمة حصول المطلوب[(٤)].

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن القيم رحمه الله بقوله: «فيجلب لهم الإحسان والنفع على أتم الوجوه برحمته، ويعفو عن زلتهم ويهب لهم ذنوبهم، ولا يؤاخذهم بها بمغفرته، فقال: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢]»[(٥)].

وعن سر تقديم الغفور على الرحيم في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبأ: ٢].

يقول ابن القيم رحمه الله: «وأما قوله: ﴿وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ في سبأ، فالرحمة هناك متقدمة على المغفرة فإما بالفضل والكمال، وإما بالطبع؛ لأنها منتظمة بذكر أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان، فالرحمة تشملهم، والمغفرة تخصهم والعموم بالطبع قبل الخصوص، كقوله: ﴿فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[الرحمن: ٦٨]»[(٦)].

الثاني: العزيز:

اقترن الاسمان العزيز والرحيم في أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[الشعراء: ٩].

والعزيز: هو الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع

(١) تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ص ٢٩.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٧٢.
(٣) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج ٢٨، الحجة في بيان المحجة، الأصبهاني ١/ ١٤٤.
(٤) شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين ص ٢٩٠.
(٥) بدائع الفوائد ١/ ٨٧.
(٦) المصدر السابق ١/ ١١٢.

أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته[1].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فللإشارة إلى أن العزة على من لم يؤمن منهم، والرحمة لمن آمن[2].

قال أبو حيان رحمه الله: «﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]، أي: الغالب القاهر، ولما كان الموضع موضع بيان القدرة، قدم صفة العزة على صفة الرحمة. فالرحمة إذا كانت عن قدرة، كانت أعظم وقعًا، والمعنى: أنه عز في نقمته من الكفار، ورحم مؤمني كل أمة»[3].

وقال ابن جرير رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: «﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الدخان: ٤٢].

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ يقول جلّ ثناؤه واصفًا نفسه: إن الله هو العزيز في انتقامه من أعدائه، الرحيم بأوليائه، وأهل طاعته»[4].

الثالث: التـواب:

اقترن الاسمان التواب والرحيم في أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

والتواب من أسمائه تعالى، وهو الكثير القبول لتوبة العبد، أو الكثير الإعانة عليها[5].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: أن الرحيم يدل على تفضله سبحانه على عبده مع التوبة بالرحمة، ورحمته إياه إقالة عثرته، وصفحه عن عقوبة جرمه، فقبول التوبة سبب رحمة الله لعبده[6].

قال ابن سعدي رحمه الله: «وختمه كثيرًا من الآيات بهذين الاسمين ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بعد ذكر ما يدعو به العبد إلى التعرض من رحمته ومغفرته، وتوفيقه وحلمه، فمناسبته جليلة لكل أحد، وأنه لما كان هو ﴿ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أقبل بقلوب التائبين إليه، ووفقهم للأخذ بالأسباب التي يتوب عليهم ويرحمهم بها، ثم يغفر لهم ويرحمهم، فتاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة وأسبابها، وتاب عليهم ثانيًا حين قبل متابهم وأجاب سؤالهم لطفًا منه ورحمةً بهم»[7].

الرابع: الرؤوف.

اقترن الاسمان الرؤوف والرحيم في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٦.
(٢) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٣/ ٢٢٧.
(٣) البحر المحيط ٧/ ٧.
(٤) جامع البيان ٢٢/ ٤٢.
(٥) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٠.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٥٤٨، البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٢٠.
(٧) انظر: القواعد الحسان ص٥٣.

أكثر من موضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

الرءوف: مأخوذ من الرّأفة، وهي أشد الرحمة، وألطف الرحمة[(١)].

قال الزجاج رحمه الله: «الرّأفة هي المنزلة الثانية، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدت رحمته فهو رءوف»[(٢)].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿لَرَءُوفٌ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾: فللإفادة أنه تعالى يرحم الرحمة القوية لمستحقها، ويرحم مطلق الرحمة من دون ذلك[(٣)].

قال ابن عثيمين رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: «﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]: الرءوف: مأخوذ من الرّأفة، وهي أشد الرحمة، وألطف الرحمة، والرحيم: هو ذو الرحمة التي يكون بها الإحسان إلى خلقه، والإنعام عليهم»[(٤)].

الخامس: الودود.

اقترن الاسمان الودود والرحيم في موضع واحد من كتاب الله، هوقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

والودود من أسمائه تعالى: هو الذي يحب أنبياءه ورسله وأولياءه وعباده المؤمنين فهو الودود بمعنى الوّاد، وهو المودود، أي: المحبوب الذي يستحق أن يحب الحب كله، وأن يكون أحب إلى العبد من سمعه وبصره وجميع محبوباته[(٥)].

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ و ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ يقول ابن القيم رحمه الله: «وما ألطف اقتران اسم الله الودود بالرحيم؛ فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولايحبّه، وكذلك قد يرحم من لايحبّ، والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب إليه، ويرحمه ويحبّه مع ذلك فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبّه ولو كان منه ما كان»[(٦)].

السادس: البر.

اقترن الاسمان البر والرحيم في موضع واحد من كتاب الله، هوقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٨].

والبـرّ: هو العطوف على عباده، المحسن إليهم، عم بيره جميع خلقه، فلم يبخل عليهم برزقه[(٧)].

---

(١) أحكام من القرآن الكريم، ابن عثيمين ١/ ٣٨١.
(٢) تفسير أسماء الله الحسنى ص٦٢.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٥.
(٤) أحكام من القرآن الكريم، ابن عثيمين ١/ ٣٨١.
(٥) انظر: جلاء الأفهام، ابن القيم ٤/ ١٤٤، فتح الرحيم الملك العلام، السعدي ص٥٥.
(٦) التبيان في أقسام القرآن، ص٥٧.
(٧) شأن الدعاء للخطابي ص ٨٩.

وعن سر الاقتران بين الاسمين الكريمين ﴿ٱلْبَرُّ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ فلأن كليهما عطاء من الله وتكرم، فالرحيم: المريد إكرام عباده المؤمنين في الدنيا بالرزق والعطف والإحسان، وفي الآخرة بالجنة، والبـرّ: هو المحسن إلى خلقه؛ عمهم برزقه، وخص من شاء منهم بولايته، ومضاعفة الثواب له على طاعته والتجاوز عن معصيته، وكلا الاسمين فيهما إحسان وإكرام وعطاء وتفضل، وكلا الاسمين نعمة، وهذا كله رحمة[(١)].

٤ . الأسماء المضافة.

ذهب جمع من أهل العلم إلى اعتبار الأسماء المضافة وعدّها من ضمن الأسماء الحسنى[(٢)]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحم الراحمين... وغير ذلك ممّا ثبت في الكتاب والسنّة، وثبت في الدّعاء بها بإجماع المسلمين»[(٣)].

ومن الأسماء المضافة ولها تعلق بالرحمة: أرحم الراحمين، وخير الراحمين. أما أرحم الراحمين: فقد ورد في دعاء أنبياء الله عليهم السلام.

قال تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأعراف: ١٥١].

وقال عن يوسف عليه السلام في موضعين: ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[يوسف: ٩٢].

وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾[الأنبياء: ٨٣].

وأرحم الراحمين، أي: الأشد رحمة من كل راحم[(٤)]، ومن يرحم غاية الرحمة[(٥)].

قال ابن جرير رحمه الله: « ﴿وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١].

يقول: وارحمنا برحمتك الواسعة عبادك المؤمنين، فإنك أنت أرحم بعبادك من كل من رحم شيئًا»[(٦)].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وكون الله تعالى أرحم الراحمين؛ لأن رحمته أكمل الرحمات لأن كل من رحم غيره فإما أن يرحمه طلبًا للثناء في الدنيا، أو للثواب

---

(١) رحمة الله أسبابها وآثارها، مسفر الغامدي، ص٢٠٦.
(٢) انظر: معتقد أهل السنة الجماعة في أسماء الله الحسنى، التميمي ص١٨٨.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٤٨٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١١٨.
(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٣١.
(٦) جامع البيان١٣/ ١٣٣.



في الآخرة، أو دفعًا للرقة العارضة للنفس من مشاهدة من تحق الرحمة له، فلم يخل من قصد نفع لنفسه، وأما رحمته تعالى عباده فهي خلية عن استجلاب فائدة لذاته العلية»[1].

وأما خير الراحمين: فقد ورد في موضعين من القرآن الكريم في سورة المؤمنون وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩].

وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

وخير الراحمين، أي: أفضل من رحم[2]، وخير من رحم[3].

قال الواحدي رحمه الله: «﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾، أي: أفضل رحمة من الذين يرحمون»[4].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فكل راحم للعبد، فالله خير له منه، أرحم بعبده من الوالدة بولدها، وأرحم به من نفسه»[5].

٥. اقتران الفضل بالرحمة.

اقترن الفضل والرحمة في مواضع من كتاب الله، ومنها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤].

وقد ذكر بعض أصحاب الوجوه والنظائر أن الفضل إذا اقترن بالرحمة يكون بمعنى المنة أو النعمة.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «ذكر أهل التفسير أن الفضل في القرآن على ثمانية أوجه... السادس: المنة والنعمة، ومنه قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]... وفي النور: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]»[6].

وقال الحيري رحمه الله: في بيان الوجوه التي ورد بها الفضل في القرآن الكريم: «أحدها: المنة كقوله في البقرة: ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤] وحيث كان»[7].

وقال ابن عثيمين رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ١١٣]: «والفضل هو العطاء الزائد، والرحمة أعم؛ لأن الرحمة يكون فيها دفع المكروه وحصول المطلوب،

(١) التحرير والتنوير ١٧/ ١٢٧.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي زمنين ٣/ ٢١٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٤٩٦.
(٤) الوسيط ٣/ ٣٠١.
(٥) تيسير الكريم الرحمن ص ٥٦٠.
(٦) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص ٤٧٢.
(٧) وجوه القرآن، الحيري ص ٤١٧. وانظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٣٦٧.

والفضل حصول المطلوب»[1].

وفي كلام ابن جرير ما يدل للمعنى الذي ذكره ابن عثيمين رحمه الله؛ فقد قال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ﴾ [النساء: ١٧٥]: «يقول: فسوف تنالهم رحمته التي تنجيهم من عقابه، وتوجب لهم ثوابه ورحمته وجنته، ويلحقهم من فضله ما لحق أهل الإيمان به والتصديق برسله»[2].

من وصف بالرحمة في القرآن

الله أرحم الراحمين، جعل الرحمة صفةً له سبحانه، ووصف بها من شاء في كتابه، فوصف كتبه، وأنبياءه، وعباده المؤمنين، وبعض مخلوقاته بالرحمة، وسأعرض لمن وصفهم بها من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الكتب السماوية:

نعمة إنزال الكتب من أجل النعم التي أنعم الله بها عباده.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

قال الخازن: «قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾ يعني: إنزاله عليهم رحمةً مني عليهم»[3]؛ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية[4].

ومن أعظم الكتب المنزلة: القرآن، والتوراة؛ وجرت العادة أن الله ينوه بالتوراة والقرآن معا؛ لأنهما أعظم الكتب المنزلة؛ لأنه قبل نزول القرآن كانت التوراة أعظم

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/ ٢٠٥.
(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٤٢٩.
(٣) لباب التأويل ٢/ ٢٠١.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣٣.

الكتب المنزلة وأجمعها للأحكام، كما قال الله فيه: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٤].

فلما نزل القرآن كان أشمل كتاب وأعظمه؛ لأنه جمع الله فيه علوم الأولين والآخرين، وزاد فيه أشياء لم تنزل على غيره؛ ولذا لما نزلت التوراة في قوله: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٤]. نوّه بالقرآن العظيم بعده فقال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

ومثل هذا يتكرر في القرآن[١].

وقد ورد وصف كلا الكتابين بالرحمة كما تقدم في الآيتين من سورة الأنعام، كما اقترن وصف الرحمة في كليهما بأوصاف أخرى، كوصفهما بالهدى والبصائر.

قال الشنقيطي رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]: «وما تضمنته آية الجاثية من أن القرآن بصائر وهدى ورحمة، ذكر تعالى مثله في سورة القصص عن كتاب موسى الذي هو التوراة في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]»[٢].

وقد جاءت الرحمة بصيغة التنكير في وصف كلا الكتابين في جميع المواضع التي وردت فيها في القرآن الكريم؛ للدلالة على التعظيم والتفخيم؛ حيث لا يقدر قدرها ولا يدرك شأنها[٣].

قال الشوكاني رحمة الله: «والرحمة ما يحصل لهم من الله عند عملهم بما فيها من الرحمة الواسعة»[٤].

وقد قصر الله الرحمة التي تضمنتها تلك الكتب على المؤمنين فقط، فقال تعالى في التوراة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤].

فليس كل أحد يقبل هدى الله ورحمته، وإنما يقبل ذلك وينقاد له، ويتلقاه بالقبول الذين ﴿هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾[٥]، الذين هم يخافون الله؛ وخصهم لأنهم هم المنتفعون به[٦].

---

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ٥٢٥، ٥٢٤.

(٢) أضواء البيان ٧/ ٣٨٠.

(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ١٥٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٥.

(٤) فتح القدير ٢/ ٢٨٥.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٣.

(٦) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ١٩٠.

وقال تعالى أيضًا عن التوراة: ﴿وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾[هود: ١٧].

أي: أنزل الله تعالى إلى تلك الأمة إمامًا لهم، وقدوةً يقتدون بها، ورحمةً من الله بهم؛ فمن آمن بها حق الإيمان قاده ذلك إلى الإيمان بالقرآن؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۚ﴾[هود: ١٧][1].

وقال سبحانه في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

فالهدى هو العلم بالحق والعمل به، والرحمة هي ما يحصل من الخير والإحسان، والثواب العاجل والآجل، لمن اهتدى به، فالهدى أجل الوسائل، والرحمة أكمل المقاصد والرغائب، ولكن لا يهتدي به، ولا يكون رحمة إلا في حق المؤمنين، وإذا حصل الهدى، وحلت الرحمة الناشئة عنه، حصلت السعادة والفلاح، والربح والنجاح، والفرح والسرور[2].

ومما يجدر الإشارة إليه أن التوارة رحمة لمن أنزلت إليهم قبل أن تنسخ بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، فكانوا يرجعون إليها في أمور الدين والأحكام، فهداهم الله بها من الضلال؛ وهذا هو السبب للرحمة حتى نسخ الله منها ما نسخ[3]؛ فلا يستدل بالمطبوع من التوراة الذي يغيّر إلى الآن آنًا بعد آنٍ، تقرؤه تجد في ذاته دليل بطلانه، وبرهان بهتانه[4].

ثانيًا: الرسل:

الرحمة صفة الأنبياء والمرسلين، وقد جاء ذلك مصرحًا به في القرآن الكريم؛ فقال تعالى عن نبيه يحيى عليه السلام ﴿وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا﴾ [مريم: ١٣].

والحنان هو الرحمة، والعطف والشفقة[5]؛ وقد أعطاه الله هذه الصفة لا بتربية ولا تعليم، فهو مهدي حنون شفيق بمقتضى تكوينه الفطري، ولذا قال تعالى: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾[6]، فأعطاه الله تلك الرحمة التي تيسرت بها أموره، وصلحت بها أحواله، واستقامت بها أفعاله[7]، ويجوز أن يكون المعنى أعطيناه رحمةً من لدنا كائنةً في قلبه يتحنن بها على الناس؛ حتى يخلصهم من الكفر[8].

والمعنيان متلازمان؛ قال البغوي رحمه

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣١٢.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٦٦.
(٣) انظر: الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص١٤٣.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٨٧.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨٨.
(٦) انظر: زهرة التفاسير ٩/ ٤٦١٨.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.
(٨) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٢٦.



الله: «ومعنى الآية: وآتيناه رحمةً من عندنا وتحننًا على العباد، ليدعوهم إلى طاعة ربهم»[1].

والحنان صفةٌ ضرورية للنبي المكلف برعاية القلوب والنفوس، وتأليفها واجتذابها إلى الخير في رفق[2]؛ ولذا قال تعالى في وصف نبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

أي: برحمة الله لك ولأصحابك، منّ الله عليك أن ألنت لهم جانبك، وخفضت لهم جناحك، وترققت عليهم، وحسنت لهم خلقك، فاجتمعوا عليك وأحبوك، وامتثلوا أمرك؛ لأن الأخلاق الحسنة من الرئيس في الدين، تجذب الناس إلى دين الله، وترغبهم فيه، مع ما لصاحبه من المدح والثواب الخاص، والأخلاق السيئة من الرئيس في الدين تنفر الناس عن الدين، وتبغضهم إليه، مع ما لصاحبها من الذم والعقاب الخاص؛ فلذا كان من أوجب الواجبات، وأهم المهمات، معاملة الناس بما يعاملهم به صلى الله عليه وسلم، من اللين وحسن الخلق والتأليف، امتثالًا لأمر الله، وجذبًا لعباد الله لدين الله[3].

وقال تعالى عن نبيه عيسى عليه السلام ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١].

رحمة من الله عز وجل لمريم؛ لما حصل لها من الفخر والثناء الحسن والمنافع العظيمة[4]؛ لأنها صارت به أم نبي، له وجاهته ومكانته في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾[آل عمران: ٤٥].

ورحمة من الله به حيث جعله نبيًا يدعو إلى عبادة الله تعالى وتوحيده في مهده وكهولته، كما قال تعالى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥][5].

ورحمة لمن آمن به؛ لما ينالونه منه من الهداية والخير الكثير؛ لأن كل نبي رحمة لأمته[6].

وخاتم الأنبياء وأفضلهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وصفه ربه بالرحمة في آيات عدة من كتاب الله، وأخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه بقوله: (إنما أنا رحمة مهداة)[7].

(١) معالم التنزيل ٥/ ٢٢٢.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣٠٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٥٤.
(٤) انظر: المصدر السابق ص ٤٩١.
(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٢٢.
(٦) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٣٧٩.
(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/ ٩١، رقم

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

اشتملت هذه الآية بوجازة ألفاظها على مدح الرسول عليه الصلاة والسلام، ومدح مرسله تعالى، ومدح رسالته؛ بأن كانت مظهر رحمة الله تعالى للناس كافة، وبأنها رحمة الله تعالى بخلقه(١).

والرحمة على عمومها في الآية الكريمة، وهذا العموم يحتمل وجهين:

أحدهما: أن عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته(٢)؛ لأن الناس كانوا ثلاثة أصناف: مؤمن، وكافر، ومنافق، وكان رحمةً للمؤمنين حيث هداهم طريق الجنة، ورحمةً للمنافقين حيث أمنوا القتل، ورحمة للكافرين بتأخير العذاب(٣).

الوجه الثاني: أنه رحمة لكل أحد، لكن المؤمنين قبلوا هذه الرحمة، فانتفعوا بها دنيا وأخرى، والكفار ردوها، فلم يخرج بذلك عن أن يكون رحمةً لهم لكن لم يقبلوها(٤).

وضرب بعض أهل العلم لهذا مثلًا قال: لو فجر الله عينًا للخلق غزيرة الماء، سهلة التناول، فسقى الناس زروعهم ومواشيهم بمائها، فتتابعت عليهم النعم بذلك، وبقي أناس مفرطون كسالى عن العمل، فضيعوا نصيبهم من تلك العين، فالعين المفجرة في نفسها رحمة من الله، ونعمة للفريقين. ولكن الكسلان محنة على نفسه حيث حرمها ما ينفعها(٥)، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ كُفۡرٗا وَأَحَلُّواْ قَوۡمَهُمۡ دَارَ ٱلۡبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وقال الله تعالى في صفة القرآن: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ [فصلت: ٤٤](٦).

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ

١٠٠، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٦٣.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٦٥.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٥٢.

(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٤٥.

(٤) انظر: جلاء الأفهام ص٢٨٨. تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٨٥، أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٢٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٢.

(٥) انظر: أضواء البيان ٤/ ٢٨٨.

(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم ٥/ ٣٨٥، أضواء البيان ٤/ ٢٨٨.

﴿يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

كان النبي صلى الله عليه وسلم يسعى في إيصال الخير والرحمة إلى المنافقين مع كونهم في غاية الخبث والخزي، ثم إنهم بعد ذلك يقابلون إحسانه بالإساءة، وخيراته بالشرور[١]؛ وقد جرأهم على ذلك إغضاؤه صلى الله عليه وسلم عن إجرامهم وإمهالهم حتى يتمكن من الإيمان من وفقه الله للإيمان منهم[٢]؛ فإنه لو أمره الله تعالى أن يعاملهم بما يخفون من الكفر لكان ذلك أمرًا بقطع رقابهم، ويقاؤهم خير لهم بالمعنى الذي يعتقدونه من لفظ الخير، وخير لهم في نفس الأمر؛ لأنه إمهال لهم يرجى أن يتوب بسببه من فيه استعداد للإيمان منهم بما يراه من آيات الله، وتأييده لرسوله وللمؤمنين[٣].

وخص المؤمنين في قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ وإن كان رحمة للعالمين، لأن ما حصل لهم بالإيمان بسبب الرسول لم يحصل لغيرهم، وخصوا هنا بالذكر وإن كانوا قد دخلوا في العالمين لحصول مزيتهم[٤].

وعلى هذا يكون المراد بالذين آمنوا: من اتبعه واهتدى بهداه، وصدّق بما جاء به من عند ربه، لأن الله استنقذهم به من الضلالة، وأورثهم باتّباعه جنّاته[٥].

ولذا قال أبو الليث السمرقندي رحمه الله: «﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾ في السر والعلانية»[٦].

ويؤيد هذا القول: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ فهو مقابل قوله: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ﴾، يدل على إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم بالقول أو الفعل ينافي الإيمان الذي هو سبب الرحمة، فجزاؤه ضد جزائه وهو العذاب الشديد الإيلام[٧].

وقيل المراد بالذين آمنوا هنا: المتظاهرون بالإيمان المبطنون للكفر، وهم المنافقون[٨].

وكونه رحمةً لهم؛ لأنه قبل منهم الإيمان الظاهر، لا تصديقًا لهم بل رفقًا بهم، ولم يكشف أسرارهم ولم يهتك أستارهم، وأنه رحمة لهم بقبول ظواهرهم ومعاملتهم بها معاملة المؤمنين[٩].

ويؤيد هذا أن الله قال: ﴿لِّلَّذِينَ آمَنُوا﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي١٦/ ٩٤.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٤٣.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٦٤.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨.
(٥) انظر: جامع البيان ١٨/ ٥٥٢.
(٦) تفسير السمرقندي ٢/ ٦٩.
(٧) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٩.
(٨) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٤٤.
(٩) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٧١، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٧٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩، روح المعاني، الألوسي ١٠/ ١٢٧.

بالوصف[(١)].

وهذا القول لم يرتضه عدد من أهل العلم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما بعث رحمة لمن آمن به حقًا، وأما غير المؤمنين فإنهم لم يقبلوا هذه الرحمة بل ردوها، فخسروا دنياهم وآخرتهم[(٢)].

وأما قولهم: أن الله قال: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فعبر عنهم بالفعل، ولم يقل المؤمنين بالوصف؛ فهذا القول ضعيف؛ لأن كثيراً ما ناط التنزيل الجزاء على الإيمان بالتعبير عن أهله بالفعل الماضي[(٣)].

وأما تفسيرهم كونه رحمةً بالمنافقين بستره عليهم وقبول الإيمان منهم ظاهرًا؛ فهو خطأ أيضًا؛ لأن ذلك يعتبر استدراجًا من الله لهم، وكيف يكون رحمةً لهم وهم يعيشون في الدنيا في أسوأ حال، وهم يتوقعون في كل يوم أن يوقع بهم النبي صلى الله عليه وسلم إذا انكشفوا وظهرت حقيقتهم، وسيؤول أمرهم في الآخرة إلى أسوأ حال حيث يكونون في الدرك الأسفل من النار؟![(٤)].

ومن الآيات التي وصف الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وصف الله رسوله بصفتين من صفاته العلى، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى، فإنه قال: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

وهذا نهاية الكرامة[(٥)].

وتقديم الرأفة باعتبار أن آثارها دفع المضار؛ وتأخير الرحمة باعتبار أن آثارها جلب المنافع والأول أهم من الثاني؛ فهو صلى الله عليه وسلم يسعى بشدة في إيصال الخير والنفع للمؤمنين، وفي إزالة كل مكروه عنهم[(٦)].

ولما كانت الرأفة والرحمة خاصة جاء متعلقها خاصًا وهو قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[(٧)]؛ للاهتمام بالمؤمنين في توجه صفتي رأفته ورحمته بهم، وأما رحمته العامة الثابتة بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فهي رحمة مشوبة بشدة على غير

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤١.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٤٨.
(٤) انظر: المنافقون في القرآن الكريم، الحميدي ص ٤١٩.
(٥) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٦٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٤٤٢.
(٦) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٥٢.
(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٢٠.

المؤمنين فهو بالنسبة لغير المؤمنين رائف وراحم، ولا يقال: بهم رؤوف رحيم[(١)].

قال محمد رشيد رضا رحمه الله: «وتخصيص رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين، لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين، كما هو ظاهر، فإن هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم، لعموم بعثته صلى الله عليه وسلم ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردّها، وقد بينّا في تفسير ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة: ٧٣]، أنه إنما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه؛ لأن الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة، والأدب في المقابلة والمعاشرة، وقد قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[آل عمران: ١٥٩]»[(٢)].

ثالثًا: المؤمنون:

وصف الله عباده المؤمنين بالرحمة في عدة آيات من كتابه مدحًا وثناءً عليهم بهذه الصفة، ومنها قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

ابتدأ الله سبحانه الآية الكريمة بوصف رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾، وهو مشتمل على كل وصف جميل[(٣)]؛ ومن الصفات الجميلة التي وصف الله بها نبيه أنه ﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

وارتضى لعباده المؤمنين ما ارتضاه لنبيه صلى الله عليه وسلم، وأمرهم بالتأسي به، ووصفهم بقوله: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[(٤)].

وفي وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، مدح عظيم لهم، وجمع بين الوصفين على سبيل الاحتراس، فهم ليسوا أشداء مطلقًا، ولا رحماء مطلقًا، وإنما شدتهم على أعدائهم، ورحمتهم لإخوانهم في العقيدة، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[المائدة: ٥٤][(٥)].

وفي هذا إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد، فلا تغلب على نفوسهم محمدة دون أخرى، ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الروية[(٦)]؛ لأن الشدة في محل اللين هي من الحمق والخرق، واللين في محل الشدة هو من الضعف والخور، والسداد والحكمة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٧٣.
(٢) المنار ١١/ ٧٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٦٠.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ١١٩.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ٢٦/ ١٢٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٠٥.
(٦) انظر: التحرير والتنوير٢٦/ ٢٠٥.

أن تكون الشدة في محل الشدة، واللين في محل اللين[١].

قال ابن كثير رحمه الله: «وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار، رحيمًا برًا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر، ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة: ١٢٣].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسّهر)[٢]، وقال: (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه)[٣]»[٤].

ومن الآيات التي وصف الله بها عباده المؤمنين بالرحمة، ما وصف به الحواريين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾[الحديد: ٢٧].

ثناء من الله على أتباع عيسى عليه السلام، وهم الحواريين، الذين اتبعوا عيسى على منهاجه وشريعته[٥]، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾[الصف: ١٤].

ووصف لهم بما وصف به صحابة نبيه صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾[الفتح: ٢٩][٦].

وعطف الرحمة على الرأفة من باب عطف العام على الخاص؛ لأن الرأفة رحمة خاصة، تتعلق بدفع الأذى والضر، أما الرحمة فهي أشمل وأعم؛ لأنها عطف وشفقة على كل من كان في حاجة إليها[٧].

ومعنى جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتّبعوه: أن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها، أو أن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى؛ لأنه أمرهم به ويسّره عليهم، ذلك أن عيسى بعث لتهذيب نفوس

(١) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٢/ ١٥٢.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٥/ ٢٢٣٨، رقم ٥٦٦٥، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/ ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٦، عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب نصر المظلوم، ٢/ ٨٦٣، رقم ٢٣١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، ٤/ ١٩٩٩، رقم ٢٥٨٥، عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٤) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣٦٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٢١٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٤/ ١٠٠.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٠٢.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٢١.

اليهود، واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيال طويلة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤][١].

بل إن الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢][٢].

ولكن بعد أن كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم صاروا أغلظ الناس، أو من أغلظ الناس، كما جرى بين المسلمين وبين النصارى في الحروب الصليبية[٣]، وتمالؤهم مع اليهود ضد الإسلام والمسلمين منذ القدم إلى يومنا هذا تبين حقيقة عداوتهم للإسلام والمسلمين[٤].

ومن الآيات التي وصف الله بها عباده المؤمنين بالرحمة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧].

التواصي بالصبر على الشدائد والطاعات، وعن المعاصي والسيئات، والتواصي بالتراحم، من شأنه أن يفتح الباب أمام سائر الفضائل، ويغلق الطريق دون سائر الرذائل، وهذا عنوان أهل الميمنة[٥]؛ لأن هاتين الصفتين على رأس الصفات الفاضلة بعد الإيمان بالله[٦].

فالصبر ملاك الأعمال الصالحة كلها؛ لأنها لا تخلو من كبح الشهوة النفسانية وذلك من الصبر، والمرحمة ملاك صلاح الجامعة الإسلامية، قال تعالى: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

والتواصي بالرحمة فضيلة عظيمة، وهو أيضًا كناية عن اتصافهم بالمرحمة؛ لأن من يوصي بالمرحمة هو الذي عرف قدرها وفضلها، فهو يفعلها قبل أن يوصي بها[٧].

وقد قرن الله بين الصبر والمرحمة في الآية الكريمة والناس أربعة أقسام: منهم من يكون فيه صبر بقسوة، ومنهم من يكون فيه رحمة بجزع، ومنهم من يكون فيه القسوة والجزع، والمؤمن المحمود الذي يصبر على ما يصيبه ويرحم الناس[٨].

(١) انظر: المصدر السابق.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٦٧.
(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، من سورة الحجرات وحتى الحديد ص٤٢٧.
(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/ ٥٤٣.
(٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم٩/ ١٣٨.
(٦) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٥/ ٤٠٧.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٦١.
(٨) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ٤٧.

فالذين اتصفوا بالصبر والرحمة، هم الذين وفقهم الله لاقتحام العقبة التي ذكرها الله في الآيات التي تسبق هذه الآية[١].

قال تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ۝١٦﴾ [البلد: ١١-١٦].

ففكوا الرقاب، وأطعموا المساكين، وواسوا ذوي القربى في يوم المسغبة؛ ولذا كانوا هم السعداء الممتعون بجنات النعيم[٢] ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ﴾ [البلد: ١٨]؛ الذين يؤتون كتابهم يوم القيامة بأيمانهم، ومن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابًا يسيرًا، وينقلب إلى أهله مسرورًا[٣].

رابعًا: الغيث:

المطر رحمة من الله يرحم بها عباده في الدنيا فيكونون في جدب وفي فقر، ومواشيهم على وشك الهلاك، فيغيثهم الله بالمطر، فتنبت زروعهم وثمارهم وتنعم مواشيهم فتكثر عندهم اللحوم والأسمان والأزباد، وتتوفر عندهم الأشعار والأصواف والأوبار، ينسجون منها اللباس وغيره من الفرش والخيام وما جرى مجرى ذلك. فهذا من غرائب آياته، وعظائم نعمه، فهذا هو أصل النعم الدنيوية على الخلق[٤]؛ ولذا سماه الله رحمة في أكثر من موضع من كتابه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ طَهُورٗا ۝٤٨ لِّنُحۡـِۧيَ بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗا وَنُسۡقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقۡنَآ أَنۡعَٰمٗا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرٗا ۝٤٩﴾ [الفرقان: ٤٨-٤٩].

فالحياة على هذه الأرض كلها تعيش على ماء المطر إما مباشرة، وإما بما ينشئه من جداول وأنهار على سطح الأرض، ومن ينابيع وعيون وآبار من المياه الجوفية المتسربة إلى باطن الأرض منه، ولكن الذين يعيشون مباشرة على المطر هم الذين يدركون رحمة الله الممثلة فيه إدراكًا صحيحًا كاملًا، وهم يتطلعون إليه شاعرين بأن حياتهم كلها متوقفة عليه، وهم يترقبون الرياح التي يعرفونها تسوق السحب، ويستبشرون بها؛ ويحسون فيها رحمة الله إن كانوا ممن شرح الله صدورهم للإيمان[٥].

فإذا انقطع عنهم المطر مدة وظنوا أنه لا يأتيهم، وأيسوا وعملوا لذلك الجدب أعمالًا، فينزل الله الغيث وينشر به رحمته من إخراج الأقوات للآدميين وبهائمهم، فيقع عندهم موقعًا عظيمًا، ويستبشرون

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ١٧٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٢٤.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٣٠/ ١٦٣.
(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، جزء عم، ص٢١٨.
(٤) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤١٦، ٤١٥.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٥٧٠.

بذلك ويفرحون[1]، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]

وقد أمرهم تعالى أن ينظروا نظرة تعقل واتعاظ واستبصار، إلى الآثار المترتبة على نزول المطر، وكيف أن نزوله حول النفوس من حالة الحزن إلى حالة الفرح، وجعل الوجوه مستبشرة بعد أن كانت عابسة يائسة[2]، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٤٨-٥٠].

فبعد أن بيّن استبشار الناس بنزوله بعد الإبلاس؛ اعترض بذكر الأمر بالنظر إلى أثر الرحمة وإغاثة الله عباده حين يحيي لهم الأرض بعد موتها بالجفاف، والأمر بالنظر للاعتبار والاستدلال[3]؛ فبعد ما كانت أرضهم مقشعرة هامدة أصبحت وقد اهتزت وربت، وأنبتت من كل زوج بهيج؛ ولهذا قال: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾، يعني: المطر، ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾[4].

موجبات رحمة الله تعالى

إن رحمة الله جل وعلا تستجلب بأسباب ذكرها الله في كتابه، ومن هذه الأسباب:

١ . الإيمان والهجرة والجهاد.

الإيمان الصحيح الذي يحشو قلوب أهله بحب الله وتعظيمه، ويجعلهم يتفانون في طاعة الله ورسوله ويفضلونها على الأهل والعشيرة والأوطان والمال والإخوان والجاه وكل متع الدنيا ولذاتها، فيهجرونها في سبيل الله، ويعرضون أنفسهم للمكايد؛ والمكائد، فيجاهدون ابتغاء وجهه الكريم[5]؛ فحقيق بهؤلاء أن يكونوا هم الراجون رحمة الله، لأنهم أتوا بالسبب الموجب للرحمة[6]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وبين جل وعلا في موضع آخر أن من قام بهذه الأعمال المذكورة، أنهم أعظم درجة عند الله من جميع الخلق[7]، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥٨.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ٩٨.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٢٣.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٣.
(٥) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٣/ ٣٥٧.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٨.
(٧) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٦/ ٤٤٢.

﴿ٱلۡفَآئِزُونَ﴾[التوبة: ٢٠].

ثم بين الدرجة العظيمة التي في قوله: ﴿أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ بقوله: ﴿يُبَشِّرُهُمۡ رَبُّهُم بِرَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَرِضۡوَٰنٖ وَجَنَّـٰتٖ لَّهُمۡ فِيهَا نَعِيمٞ مُّقِيمٌ ٢١ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٢﴾[التوبة: ٢١-٢٢].

فتلك الدرجة: هي عناية الله تعالى بهم بإدخال المسرة عليهم، وتحقيق فوزهم، وتعريفهم برضوانه عليهم، ورحمته بهم، وبما أعد لهم من النعيم الدائم[١].

٢ . طاعة الله ورسوله؛ وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

انتظمت هذه الطاعات والعبادات التي جعلها الله من موجبات رحمته في آية من كتاب الله تعالى، أبان الله فيها حسن حال المؤمنين والمؤمنات في الحال والمآل فقال: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[التوبة: ٧١].

وابتدأها بالإشارة إلى أنّ اللحمة الجامعة بينهم هي ولاية الإسلام، فهم فيها على السواء ليس واحد منهم مقلّدًا للآخر، ولا تابعًا له على غير بصيرة؛ لما في معنى الولاية من الإشعار بالإخلاص والتناصر[٢].

ثم بين الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله.

ومنها: طاعة الله ورسوله التي هي سبب للرحمة[٣] كما تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

فأمر الله المؤمنين أن يطيعوا اللّه في كل ما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن يكونوا في ذلك مطيعين للرسول صلوات الله وسلامه عليه، سالكين وراءه فيما به أمرهم، وتاركين ما عنه زجرهم، لعلكم بهذه الطاعة تكونون في رحمة من الله؛ ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ سَيَرۡحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١][٤].

والمراد: أنه تعالى يتعهد المؤمنين والمؤمنات برحمته الخاصة المستمرة في مستقبل أمرهم في الدنيا والآخرة، باستمرارهم على طاعته وطاعة رسوله[٥].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ١٤٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٠/ ٢٦٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة آل عمران، ٢/ ١٦٥.

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٨١.

(٥) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٦٩.

ومن الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله: إقام الصلاة وإيتاء الزكاة، كما قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

الصلاة والزكاة أكبر الطاعات وأجلهما، جامعتان لحقه وحق خلقه، للإخلاص للمعبود، وللإحسان إلى العبيد فمن أراد الرحمة، فهذا طريقها، ومن رجاها من دون إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الرسول، فهو متمنٍ كاذب، وقد منّته نفسه الأماني الكاذبة[1].

وخص الله الزكاة بكونها سببًا من أسباب الرحمة في قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وخصها دون ما عداها من الطاعات؛ لأن النفوس شحيحة ففتنته تقتضي أن يكون المانعون للزكاة أكثر من التاركين غيرها من الطاعات[2].

ويفهم من هذه الآية من مفهوم مخالفتها: أن الذين لا يتقون الشرك ولا المعاصي، ولا يؤتون الزكاة لا تكتب لهم هذه الرحمة، وقد بين تعالى ذلك في قوله: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٧﴾ [فصلت: ٦-٧][3].

ومن الصفات التي أوجبت لهم رحمة الله: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وهاتان الصفتان من أخص صفات المؤمنين التي يمتازون بها على المنافقين وعلى غيرهم من الكفار، هما سياج حفظ الفضائل، ومنع فشو الرذائل[4]، والمعروف اسم جامع، لكل ما عرف حسنه، من العقائد الحسنة، والأعمال الصالحة، والأخلاق الفاضلة، وأول من يدخل في أمرهم أنفسهم، والمنكر كل ما خالف المعروف وناقضه من العقائد الباطلة، والأعمال الخبيثة، والأخلاق الرذيلة[5].

ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو بعيد عن رحمة الله، مستحق لغضب الله ولعنته، كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٣.
(٢) انظر: تفسير المراغي ٩/ ٨٠.
(٣) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٤/ ٢٠٥.
(٤) انظر: المنار، محمد رشيد رضا١٠/ ٤٦٧.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٣.

﴿عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝﴾ [المائدة: ٧٨]

فهذه الصفات الأربع استوجب بها المؤمنون رحمة الله.

وبعد أن بيّن صفاته ورحمته لهم إجمالًا بقوله: ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾؛ بين ما وعدهم به من الجزاء المفسر لرحمته تفصيلًا؛ للتنبيه على أنّ تلك الرحمة هي هذه الأشياء[1] فقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

٣. الصبر.

الصابرون المحتسبون على المصائب، عليهم من ربهم الرحمن الرحيم صلواته العامة ورحمته الخاصة[2]، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ۝﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

فازوا بالبشارة العظيمة، والمنحة الجسيمة؛ ثناء وتنويه بحالهم ورحمة عظيمة، أولها توفيقه إياهم للصبر الذين ينالون به الأجر، وجبرهم في مصيبتهم بأن يخلف عليهم خيرًا منها[3].

فالله تعالى لم يمن على عباده الصابرين بالمغفرة والرضوان فقط، وحسبهما جزاءً للصبر ولكن منّ بالرحمة، رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء، فرحمهم في الدنيا بالهداية والتوفيق لفعل الخير، ورحمهم في الآخرة بالنعيم المقيم[4].

وهذه الرحمة يحسدهم عليها الكافرون، فإن الكافر الذي حرم من هذه الرحمة، إذا نزلت به المصيبة تضيق به الأرض بما رحبت، حتى لقد يقضي على نفسه بيده إذا لم يجد وسيلةً للخلاص مما حلّ به[5]؛ فمن لم يصبر فهو محروم من صلوات الله ورحمته وهدايته[6].

٤. العفو.

القصاص في النفس والجراح كان حتمًا في التوراة على اليهود، ولم يكن لهم أخذ الدية، وكان في شرع النصارى الدية ولم يكن لهم القصاص، فخير الله تعالى هذه الأمة بين القصاص وبين العفو عن الدية

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٥٧.
(٢) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٢/ ٤٦٩.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٥.
(٤) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٧٥.
(٥) انظر: تفسير المراغي ١/ ٢٥٦.
(٦) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم الدوسري ٢/ ٤٦٩.

تخفيفًا منه ورحمة[1]، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

فالإسلام قد جمع في تشريعه الحكيم لعقوبة القتل بين العدل والرحمة، فالأخذ بالقصاص عدل، والأخذ بالعفو رحمة[2].

وكان العفو والدية تخفيفًا من الله إذ فيه انتفاع الولي بالدّية، وحصول الأجر بالعفو استبقاء مهجة القاتل، وبذل ما سوى النفس هين في استبقائها[3].

وقد رغب الشارع في العفو بما يحرك عاطفة الرحمة والحنان[4]؛ بذكر الأخوة الرابطة التي لم يقطعها الاعتداء؛ لأنها برباط الله تعالى فلا يفكه العبد[5]، فقال: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾ ترقيق وحث على العفو إلى الدية، وأحسن من ذلك العفو مجانًا[6].

وإنما كانوا العفو رحمة؛ لأن من استبقى مهجتك بعد استحقاق إتلافها فقد رحمك؛ وأي رحمة أعظم من ذلك؟ ولعل القاتل المعفو عنه يستقل من الأعمال الصالحة في المدة التي عاشها بعد استحقاق قتله ما يمحو به هذه الفعلة الشنعاء، فمن الرحمة إمهاله لعله يصلح أعماله[7].

وكذلك العفو رحمة بالعافي إذ به يتخلص من الأحقاد، وأضغانها، ورحمة بالأمة لكونه بدل أن ينقص عددها اثنين ينقص إلى واحد، وبدل أن تتبادل الدماء تنتهي المعركة[8].

فبالعدالة والرحمة تسعد الأمم وتطمئن في حياتها؛ إذ العدالة هي التي تكسر شر النفوس، وتغسل غل الصدور، وتردع الجاني عن التمادي في الاعتداء، لأنه يعلم علم اليقين أن من وراء الاعتداء قصاصًا عادلًا، والرحمة هي التي تفتح الطريق أمام القلوب لكي تلتئم بعد التصدع وتتلاقى بعد التفرق، وتتواد بعد التعادي، وتتسامى عن الانتقام إلى ما هو أعلى منه وهو العفو؛ فلله هذا التشريع الحكيم الذي ما أحوج العالم إلى الأخذ به، والتمسك بتوجيهاته[9].

٥. الموت في سبيل الله.

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩١.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٤٣.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٧.
(٤) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٣/ ٤٢.
(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٣٦.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤.
(٧) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ١٧.
(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٣٧.
(٩) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٣٧٢.

الموت في سبيل الله، وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه، وذلك خير من البقاء في الدنيا وجمع حطامها الفاني[1]، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[آل عمران: ١٧٥].

في هذه الآية ترغيب للمؤمنين في الجهاد وأنه مما يجب أن يتنافس فيه المتنافسون؛ وتعزية لهم وتسلية مما أصابهم في سبيل الله تعالى[2]؛ لأنه سبحانه لا يختارهم لشيء أفضل مما عنده، ولا يختار الجزاء الدنيوي فقط مهما عظم وضخم؛ لأنه لا يساوي شيئًا مما في الآخرة، فبموت المؤمن أوقتله يتخلص من عدوه ويلحق بمحبوبه الرب العظيم، فكان جزاؤه منه سبحانه المغفرة والرحمة التي لا تعدلها الدنيا ثمنًا[3]؛ لأن الشيء يعظم بعظم باذله ﴿لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ﴾[4]؛ وجمع بينهما ليكمل للإنسان سعادته؛ إذ بالمغفرة زوال المكروه، وبالرحمة حصول المطلوب[5]، فالمغفرة تمحو ما كان من ذنوبه، والرحمة ترفع درجاته[6].

وذكر رحمة الله تعالى في هذا المقام؛ لكيلا تذهب نفوس المؤمنين حسرة على من ماتوا منهم، فإنهم ليسوا في شقاء بل هم في نعيم، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩][7].

٦. الاعتصام بالله.

وعد الله المؤمنين المعتصمين به بالرحمة والفضل والهداية، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[النساء: ١٧٥].

فالذين اعترفوا بوجوده واتصافه بكل وصف كامل، وتنزيهه من كل نقص وعيب، ولجأوا إليه واعتمدوا عليه، وتبرؤوا من حولهم وقوتهم واستعانوا بربهم[8]؛ ستنالهم الرحمة العاجلة والآجلة[9]، الرحمة العاجلة في الدنيا بأن يكونوا في سعادة واطمئنان وهدوء بال[10]؛ لأن أنعم الناس بالًا وأشدهم انشراحًا في الصدور هم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ١٤٧.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٠٤.
(٣) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٤/ ٣٨٤.
(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة آل عمران ٢/ ٣٥٩.
(٥) المصدر السابق ٢/ ٣٦٠.
(٦) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١١٠.
(٧) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٤٧٢، تفسير المراغي ٤/ ١١٠.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٧.
(٩) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/ ٥٣٣.
(١٠) انظر: زهرة التفاسير ٤/ ١٩٩٤.

المؤمنون المعتصمون بالله[1]، وأما الرحمة الآجلة فهي النعيم المقيم، وجنات عدن خالدين فيها أبدًا[2].

ومن لم يؤمن بالله ويعتصم به ويتمسك بكتابه، منعهم من رحمته، وحرمهم من فضله، وخلى بينهم وبين أنفسهم، فلم يهتدوا، بل ضلوا ضلالًا مبينًا، عقوبةً لهم على تركهم الإيمان فحصلت لهم الخيبة والحرمان، نسأله تعالى العفو والعافية والمعافاة[3].

٧. التقوى.

تقوى الله تعالى بفعل أوامره واجتناب نواهيه سبب لرحمة أرحم الراحمين[4]، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

فرحمته سبحانه وسعت العالم العلوي والسفلي، والبر والفاجر، والمؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد، ولهذا قال عنها: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[5] [الأعراف: ١٥٦].

لأن الإقبال إلى الله عز وجل، واجتناب معصيته -الذي هو التقوى- سبب للرحمة[6]، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [يس: ٤٥].

أي: فيرحمكم ربكم إن أنتم حذرتم ذلك، واتقيتموه بالتوبة من شرككم والإيمان به، ولزوم طاعته فيما أوجب عليكم من فرائضه[7].

ولذا قال نبي الله نوح عليه السلام لقومه: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

أي: لينذركم العذاب الأليم، وتفعلوا الأسباب المنجية من استعمال تقوى الله ظاهرًا وباطنًا، وبذلك تحصل عليهم وتنزل رحمة الله الواسعة[8].

قال الرازي رحمه الله: «وهذا الترتيب في غاية الحسن؛ فإن المقصود من البعثة الإنذار، والمقصود من الإنذار التقوى عن

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة النساء ٢/ ٥٣٣.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٩٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٧.
(٤) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/ ٤٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٥.
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، سورة يس ص١٦١.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٥٢٦.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٩٢.

كل ما لا ينبغي، والمقصود من التقوى الفوز بالرحمة في دار الآخرة»[(١)].

بل جاء ما يدل على زيادة الرحمة لأهل التقوى فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

فهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم أعطاهم الله ﴿كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لا يعلم وصفهما وقدرهما إلا الله تعالى: أجر على الإيمان، وأجر على التقوى، أو أجر على امتثال الأوامر، وأجر على اجتناب النواهي، أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء مرة بعد أخرى[(٢)].

٨. قراءة القرآن والاستماع والإنصات إليه.

الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزغ الشيطان، هي الاستماع له إذا قرئ، والإنصات مدة القراءة[(٣)] كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

وقد جاء الأمر بالاستماع والإنصات بعد أن وصف القرآن بأنه بصائر وهدى ورحمة في قوله: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]؛ لأنّ الذي اشتمل على هذه الأوصاف من البصائر والهدى والرحمة حريّ بأن يصغى إليه، حتى يحصل منه للمنصت هذه النتائج العظيمة وينتفع بها؛ فيستبصر من العمى ويهتدي من الضلال ويرحم بها[(٤)].

والخطاب في قوله: ﴿فَٱسْتَمِعُوا﴾ إن كان للكفار فترجى لهم الرحمة باستماعه والإصغاء إليه بأن كان سببًا لإيمانهم، وإن كان للمؤمنين فرحمتهم هو ثوابهم على الاستماع والإنصات والعمل بمقتضاه، وإن كان للجميع فرحمة كلّ منهم على ما يناسبه[(٥)].

فمن لازم الاستماع والإنصات؛ حين يتلى كتاب الله، فإنه ينال خيرًا كثيرًا وعلمًا غزيرًا، وإيمانًا مستمرًا متجددًا، وهدًى متزايدًا، وبصيرةً في دينه، ولهذا رتب الله حصول الرحمة عليهما؛ فدل ذلك على أن من تلي عليه الكتاب، فلم يستمع له وينصت، أنه محروم الحظ من الرحمة، قد فاته خير كثير[(٦)].

٩. البراءة من عبادة غير الله.

(١) انظر: مفاتيح الغيب ١٤/ ١٢٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٤٣.
(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٤٦١.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٤٤٨.
(٥) انظر: المصدر السابق.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.

اعتزال المؤمن قومه الكفار ومعبوديهم من أسباب لطف الله به ورحمته[1]، كما قال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ [الكهف: ١٦].

فهؤلاء الفتية بعد تقريرهم لعقيدة التوحيد، وإبطالهم لعقيدة الشرك وبراءتهم من الكفر وأهله بينوا واجبهم الذي يتحتم عليهم فعله، وهو اعتزال قومهم، وما يعبدون من دون الله، والبراءة من شركهم[2].

فلما اعتزلوه أمرهم الله بالتوجه للكهف؛ وفي هذا دليل على ما كانوا عليه من التوكل حيث أووا إلى كهف، ورتبوا على مأواهم إليه نشر رحمة الله عليهم، وتهيئة رفقه تعالى بهم؛ لأن من أخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان لا يضيعهم[3].

وقبل هذا أخبر سبحانه أنهم دعوه بقولهم: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

فجمعوا بين التبري من حولهم وقوتهم، والالتجاء إلى الله في صلاح أمرهم، ودعائه بذلك، وبين الثقة بالله أنه سيفعل ذلك، لا جرم أن الله نشر لهم من رحمته، وهيأ لهم من أمرهم مرفقًا، فحفظ أديانهم وأبدانهم، وجعلهم من آياته على خلقه، ونشر لهم من الثناء الحسن، ما هو من رحمته بهم، ويسر لهم كل سبب، حتى المحل الذي ناموا فيه، كان على غاية ما يمكن من الصيانة[4].

وفي معنى هذه الآية أيضًا قوله تعالى في نبيه إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ۝٤٩ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ۝٥٠﴾ [مريم: ٥٠].

واعتزالهم إياهم هو مجانبتهم لهم، وفرارهم منهم بدينهم[5].

والرحمة تذكر هنا؛ لأنها هبة الله التي تعوض إبراهيم عن أهله ودياره، وتؤنسه في وحدته واعتزاله[6].

والأظهر أنها عامة لكل خير ديني ودنيوي أوتوه مما لم يؤت أحد من العالمين؛ وإن كان ذكرها بعد جعلهم أنبياء إيذانًا بأن النبوة من باب الرحمة التي يختص بها من يشاء[7].

قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿مِّن رَّحْمَتِنَا﴾ يشمل جميع ما وهب الله لهم

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٣.
(٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٤/ ٣١٠.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٠٣.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٤.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤٣.
(٦) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٣١٣.
(٧) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٦/ ١٠٣.

من الرحمة، من العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والذرية الكثيرة المنتشرة، الذين قد كثر فيهم الأنبياء والصالحون»[(١)].

١٠ . قيام الليل.

العابد لربه الطائع له، يقضي ساعات الليل في القيام والسجود لله، يخاف عذاب الآخرة، ويأمل رحمة ربه[(٢)]، أي: حصولها[(٣)]، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[الزمر: ٩].

فوصفه الله بأفضل العبادات الظاهرة وهي الصلاة، في أفضل الأوقات وهو أوقات الليل، ووصف عمل قلبه بالخوف والرجاء، فهو بين الخوف من سيئاته وفلتاته، وبين الرجاء لرحمة ربه أن يثيبه على حسناته[(٤)]، فيدخله الجنة[(٥)].

١١ . الإصلاح بين المؤمنين.

من حقوق المؤمنين الإصلاح بينهم، وبه تحصل لهم الرحمة من الله عز وجل[(٦)]، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠].

فالمؤمنون إخوة في الدين والعقيدة، يجمعهم أصل واحد وهو الإيمان، كما يجمع الإخوة أصل واحد وهو النسب، وكما أن أخوة النسب داعية إلى التواصل والتراحم والتناصر في جلب الخير، ودفع الشر، فكذلك الأخوة في الدين تدعوكم إلى التعاطف والتصالح[(٧)]، ومن ذلك إذا وقع الاقتتال بينهم، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها.

وقد رتب الله على الإصلاح بين المؤمنين وبتقوى الله، الرحمة[(٨)]؛ وإنما اختيرت الرحمة لأن الأمر بالتقوى واقع إثر تقرير حقيقة الأخوة بين المؤمنين، وشأن تعامل الإخوة الرحمة، فيكون الجزاء عليها من جنسها[(٩)].

وإذا حصلت الرحمة، حصل خير الدنيا والآخرة، ودل ذلك على أن عدم الاقتتال والتنازع بين المؤمنين، من أعظم حواجب الرحمة[(١٠)].

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٩٤.
(٢) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٤٨٣.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٠٢.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢٠، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٤٦.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٨.
(٦) انظر: تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن، اللاحم ١/ ٤٢.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٣/ ٣٠٩.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٠٠.
(٩) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٤٥.
(١٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٨٠٠.

أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله

عرض القرآن الكريم لعدد من أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله؛ ومن هذه الأسباب:

١ . الجهل بالله تعالى وسعة رحمته.

من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئًا كثيرًا[1]؛ كما ذكر الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بالولد مع كبر سنه وحال زوجه التي يستبعد معها حصول الولد: ﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ۝ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر: ٥٥- ٥٦].

فأجابهم بأنه ليس بقانط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر وأسنت امرأته؛ فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك[2]، لكنه قال ذلك على وجه التعجب والتفكر في عظيم قدرة الله ورحمته[3].

وإنما يقنط من رحمة الله القوم الذين أخطؤوا سبيل الصواب، وتركوا قصد السبيل في تركهم رجاء الله؛ لأنهم لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره فضلّوا بذلك عن دين الله[4].

وقد كان القانط من رحمة الله ضالًا؛ لأن من علم أن الله على كل شيء قدير لم يستبعد شيئًا على قدرة الله، ومن علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله سبحانه[5].

قال الرازي رحمه الله: «القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور: أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادرًا عليه، وثانيها: أن يجهل كونه تعالى عالمًا باحتياج ذلك العبد إليه، وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزهًا عن البخل والحاجة والجهل؛ فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾[الحجر: ٥٦]»[6].

والمعنى الذي قاله إبراهيم عليه السلام، قاله أيضًا يعقوب عليه السلام لبنيه في قوله: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٢.
(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، ابن محمد بن عبدالوهاب ص٤٤٩.
(٣) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان ص٧٢.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ١١٣، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٣٢.
(٥) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ٢/ ٢٠٤.
(٦) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٥١.

فروح الله رحمته، وفرجه، وتنفيسه[١]، وقد كان اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين؛ إذ فيه: إما التكذيب بالربوبية؛ وإما الجهل بصفات الله تبارك وتعالى[٢]، جهل بقدرته وسعة رحمته، وجهل لما لله في عباده من حكم بالغة ولطف خفي، أما المؤمن حقًا فلا تقنطه المصايب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفريجه لكربه[٣].

٢. إسراف العبد على نفسه في المعاصي والإفراط فيها.

فيصر عليها ويصمم على الإقامة على المعصية، ويقطع طمعه من رحمة الله؛ لأجل أنه مقيم على الأسباب التي تمنع الرحمة[٤]؛ وهذا ما يلمح إليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

الخطاب في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟﴾ جميع من أسرف على نفسه من أهل الإيمان والشرك؛ لأن الله عم بقوله: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ جميع المسرفين، فلم يخصص به مسرفًا دون مسرف[٥]، وكلهم مظنة تطرق اليأس من رحمة الله إلى نفوسهم[٦]؛ فأهل الشرك لما دعوا إلى الإيمان بالله قالوا: كيف نؤمن وقد أشركنا وزنينا، وقتلنا النفس التي حرّم الله، والله يعد فاعل ذلك النار، فما ينفعنا مع ما قد سلف منا الإيمان، وأهل المعاصي من أهل الإيمان يقولون: كثرت ذنوبنا وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، فيبقون بسبب ذلك مصرين على العصيان، متزودين ما يغضب عليهم الرحمن[٧].

وفي نسبة عبوديتهم إلى الله تعالى إيماء إلى أن شأن الرب الرحمة بعباده[٨]، ولكن لهذه الرحمة ونيلها أسباب إن لم يأت بها العبد، فقد أغلق على نفسه باب الرحمة والمغفرة، أعظمها وأجلها، بل لا سبب لها غيره، الإنابة إلى الله تعالى بالتوبة النصوح، والدعاء والتضرع والتأله والتعبد، فهلم أيها المسرف إلى هذا السبب الأجل، والطريق الأعظم[٩].

٣. عدم الصبر عند حصول المحن، والشكر عند حصول المنن.

الصبر خير كله، وهو أول صفات المؤمنين، ومن الصبر ألا يكفر عند النعمة،

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٣٣٤.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٨.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٣/ ٣٠.
(٤) انظر: القول السديد ص ١٢٢.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣١٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.
(٧) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣١٠، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٢٧.
(٨) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٤١.
(٩) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٢٧.

وألا ييأس عند النقمة[1]، كما قال تعالى:
﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [هود: ٩-١١].

فإذا أعطي الإنسان نوعًا من أنواع النعم كرخاء عيش، وبسطة رزق، وصحة، وأمن، وولد بار، فكان شديد الاغتباط بها، ثم سلب تلك النعمة بما يحدث من الأسباب التي قدرها الله في الخليقة كالمرض والموت والعسر، فإنه يظل في هذه الحال شديد اليأس من الرحمة، قاطعاً للرجاء من عود تلك النعمة، كثير الكفران لغيرها من النعم التي لا يزال يتمتع بها فضلًا عما سلف منها؛ فهو يجمع بين اليأس مما نزع منه، والكفر بما بقي له؛ لحرمانه من فضيلتي الصبر والشكر[2].

ولذا استثنى تعالى الصابرين على الضراء وعاملي الصالحات، ومنها: الشكر على النعماء[3] من هذا الجنس بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ لأنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا[4]؛ فكان جزاؤهم ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ غفران ذنوبهم التي يزول بها عنهم كل محذور، والفوز بجنات النعيم، التي فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذ الأعين[5].

وما تضمنته هذه الآيات من أن عدم الصبر عند حلول المصايب، والشكر عند حلول النعم من أسباب اليأس والقنوط من رحمة الله دلت عليه آيات أخرى، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣].

فالنعمة تطغى وتبطر ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمد ويشكر، والشدة تيئس وتقنط ما لم يتصل الإنسان بالله، فيرجو ويأمل، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله، فيتفاءل ويستبشر، ومن هنا تتجلى قيمة الإيمان، وما فيه من رحمة في السراء والضراء سواء[6].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ [الروم: ٣٦].

فهم يفرحون بها فرح البطر الأشر، الذي لا يقابل نعم الله تعالى بالشكر، ولا يستعملها فيما خلقت له؛ فالمراد بالفرح هنا: الجحود والكفران للنعم، وليس مجرد السرور بالحصول على النعم، وإن أصابتهم مصيبة بسبب شؤم معاصيهم، وإهمالهم

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٦٧.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ١٢/ ٢٤.
(٣) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٠٧.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٦٤.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٢٧.
(٦) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٨.

لشكر اللّه تعالى على نعمه أسرعوا باليأس من رحمة اللّه، وقنطوا من فرجه، واسودت الدنيا في وجوههم، شأن الذين لا يعرفون سنن الله تعالى في خلقه، والذين يعبدون اللّه على حرف، فهم عند السراء جاحدون مغرورون، وعند الضراء قانطون يائسون[1].

من مظاهر رحمة الله وآثارها

ما يفتحه للناس من رحمته وإنعامه عليهم بجميع أنواع النعم، لا يقدر أحد كائنًا ما كان أن يمسكه عنهم، وما يمسكه عنهم من رحمته وإنعامه لا يقدر أحد كائنًا من كان أن يرسله إليهم، وهذا معلوم بالضرورة من الدين[2]، كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [فاطر: ٢].

فخزائن الرحمات بيد الذي يقول للشيء: كن فيكون، يجود بها على من يشاء من عباده[3]، وعبر عن إرسالها بالفتح؛ إيذانًا بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالًا[4].

والرحمة المذكورة في الآية عامة في كل ما يرحم الله به خلقه من الإنعام الدنيوي والأخروي، كفتحه لهم رحمة المطر، كما قال تعالى: ﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

ومن رحمته إرسال الرسل، وإنزال الكتب؛ كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن

(١) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١١/ ٨٧.

(٢) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٦٩٥.

(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٦/ ٢٤٣.

(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٤٢.

﴿يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦](1).

وقد عرض القرآن الكريم لعدد من مظاهر رحمة الله في القرآن الكريم، ومنها:

١ . إرسال الرسل وإنزال الكتب.

إرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه(2)؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان: ٦].

وقد جاء في القرآن الكريم إطلاق الرحمة على النبوة في غير موضع، كما في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[البقرة: ١٠٥].

فالنبوة وما أيدها من الوحي والقرآن والنصر وهو المعبر عنه بالرحمة في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾(3)، وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه، وهدايته من هدى من عباده، رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة، واستحقاقه بها ثناءه؛ وكل ذلك رحمة من الله له(4).

ومن إطلاق النبوة على الرحمة ما ذكره الله عن هارون عليه السلام وأن نبوته رحمة في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ۝٥١ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ۝٥٣﴾[مريم: ٥١-٥٣].

فالهبة في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ هي في الحقيقة واقعة على رسالته لا على نفس هارون؛ لأن هارون أكبر من موسى(5)؛ كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد أنه وهب له نبوته(6).

ولهذا قال بعض السلف: ما شفع أحد في أحد شفاعة في الدنيا أعظم من شفاعة موسى في هارون أن يكون نبيًا، قال الله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣](7).

ومن إطلاق النبوة على الرحمة قوله تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن

(١) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٦/ ٦٩٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٧١.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٦٥٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٤٧١.
(٥) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٣٠٣.
(٦) انظر: جامع البيان١٨/ ٢١١.
(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٣٨.

﴿قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦].

فبعثة الرسول بما أوحاه الله إليه من الوحي رحمة من الله له ولهم[1]؛ فتثبت بالدليل القطعي صحة رسالته، ورحمة الله به للعباد[2].

ومن إطلاق النبوة على الرحمة قوله تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ۝٨ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٨-٩].

فالنبوة عطية من الله عز وجل يتفضل بها على من يشاء من عباده المصطفين[3]، وليس الاختيار لهؤلاء المشركين المنكرين وحي الله إلى محمد؛ ولكنها بيد العزيز في سلطانه، الوهاب لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من ملك وسلطان ونبوة، فيمنعوك يا محمد، ما من الله به عليك من الكرامة، وفضّلك به من الرسالة[4].

ونظير هذه الآية قوله تعالى[5]: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالله يخص بالنبوة من يشاء من عباده على ما تقتضيه حكمته وإرادته، وليس ذلك بتدبير المخلوقين ولا بإرادتهم[6]، فإذا كانت معايش العباد وأرزاقهم الدنيوية بيد الله تعالى، وهو الذي يقسمها بين عباده، فيبسط الرزق على من يشاء، ويضيقه على من يشاء، بحسب حكمته، فرحمته الدينية، التي أعلاها النبوة والرسالة، أولى وأحرى أن تكون بيد الله تعالى، فالله أعلم حيث يجعل رسالته[7]؛ فإنه لا ينزلها إلا على أزكى الخلق قلبًا ونفسًا، وأشرفهم بيتًا، وأطهرهم أصلًا[8].

وقد جاء في القرآن التنصيص على إن إرسال الرسل بالكتب إلى العباد رحمة من الله، كما قال تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان: ٦].

فإرسال الرسل وإنزال الكتب التي أفضلها القرآن رحمة من رب العباد بالعباد، فما رحم الله عباده برحمة أجل من هدايتهم بالكتب والرسل، وكل خير ينالونه في الدنيا والآخرة فإنه من أجل ذلك وسببه[9]؛ لأن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٨٦.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٧.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢١٦.
(٤) انظر: جامع البيان٢١/ ١٥٥.
(٥) انظر: السراج المنير، الشربيني ٣/ ٣٢٦.
(٦) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٤/ ٢٨.
(٧) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٤.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٢٦.
(٩) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٧٧١.

الإرسال بالإنذار رحمة بالناس ليتجنبوا مهاوي العذاب ويكتسبوا مكاسب الثواب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] [1].

وأنزل الله الكتاب على نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة به وبالعباد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦].

فالآية تذكير لنعمه تعالى على رسوله، وأنه تعالى رحمه رحمةً لم يتعلق بها رجاؤه[2]، فالاستثناء في ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ استثناء منقطع؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يرجو أن يبعثه الله بكتاب من عنده، بل كان ذلك مجرد رحمة من الله تعالى به واصطفاء له[3]، فأرسله بهذا الكتاب، الذي رحم به العالمين، وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وزكاهم وعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين[4].

وقال تعالى أيضًا لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]؛ وذلك لما يحصلون فيه من العلم الكثير، والخير الغزير، وتزكية القلوب والأرواح، وتطهير العقائد، وتكميل الأخلاق، والفتوحات الإلهية، والأسرار الربانية[5].

٢. رحمته بالرسل عليهم السلام.

الأنبياء عليهم السلام هم أكثر الخلق مسارعةً إلى الخيرات، وأصدقهم توجّهًا وتذلّلًا لله تعالى؛ وأعظمهم رغبةً ورهبةً؛ وفي ذكر رحمة الله لهم، وبأي سبب حصلت لهم، مما يدعو إلى محبة الله تعالى، والإكثار من ذكره ومعرفته، والسبب الموصل إليه[6].

ومن ذلك الرحمة التي رحم الله بها عبده زكريا عليه السلام حين أسرّ بدعائه إليه، كما قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم: ٣].

ثم فصّل كيفية دعائه بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ٢٨١.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ١٣٢.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ١٩٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٥.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٣.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٤٨٩، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٤١٣.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: ٤-٦][1].

فمن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم؛ فرحمه ربه واستجاب دعوته، فقال: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧][2].

فوهبه الله الولد الصالح مع كبر سنه وعقم زوجه، فكانت ولادة يحيى تكريمًا ورحمةً بهذا النبي العابد[3].

ومن ذلك أيضًا الرحمة التي رحم الله بها عبده أيوب عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

فقد ألطف أيوب في السؤال؛ حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب، ولم يعين الضر الذي مسه[4]؛ فأذهب الله عنه ما به من الأذى، ورد عليه أهله وماله، ومنحه الله العافية من الأهل والمال شيئًا كثيرًا[5]؛ وكل ذلك رحمةً بأيوب إذ قال: وأنت أرحم الراحمين[6].

ووصفت الرحمة بأنها من عند الله تنويهًا بشأنها بذكر العندية الدالة على القرب المراد به التفضيل[7]؛ فهي رحمة تليق بذاته الكريمة، وهو الرحمن الرحيم[8].

وكون كشف الضر عن أيوب رحمةً من الله به، فكذلك هو ذكرى؛ لنعتبر ونعلم أن رحمة الله قريب من المحسنين، وأن مع العسر يسرًا، وأن الإنسان لا يقنط من الفرج بعد الشدة[9].

٣. قبول التوبة وغفران الذنوب.

التوبة لا بد فيها من ترك الذنوب، والندم عليها، وإصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة، فإذا وجد ذلك فإن الله يصب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به[10] كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ

(١) انظر: تفسير المراغي ١٦/ ٣٤.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٩.
(٣) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٤١٢.
(٤) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ٣١٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص ٥٢٨.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٢٨.
(٧) انظر: المصدر السابق.
(٨) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٩٠٧.
(٩) انظر: تفسير المراغي ٢٣/ ١٢٦.
(١٠) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٥٨.

﴿عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فبين سبحانه أن المراد بالرحمة في قوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ غفرانه ما يعملون من سوء إذا تابوا وأصلحوا، فقوله: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا﴾ مفسر لتلك الرحمة مبين لها[1].

فرحمة الله جل وعلا وسعت كل شيء، ولا يهلك على الله إلا هالك؛ ولا أحد أشنع قولاً من الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة، ومع هذه الفريةالعظمى والوقوع في جناب الله جل وعلا بهذا الأمر الهائل العظيم، فالله مع هذا يستعطفهم ويتلطف بهم للتوبة والمغفرة[2]، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

فالآية فيها التعجب من افترائهم على الله وإصرارهم على ذلك بدون توبة من هذا الاعتقاد القبيح، وفيها التلطف بدعوتهم إلى التوبة، وأن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة يقبل توبة التائبين، فلذلك ختمها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، يغفر ذنوب التائبين، ولو بلغت عنان السماء، ويرحمهم بقبول توبتهم، وتبديل سيئاتهم حسنات[4].

٤. عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام.

امتن الله على رسوله بحفظه وعصمته ممن أراد أن يضله[5]، فقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

والفضل والرحمة هنا: نعمة إنزال الكتاب تفصيلًا لوجوه الحق في الحكم، وعصمته من الوقوع في الخطأ فيه[6]؛ فيحفظه ويعصمه من قبول تدليس المبطلين، فلا تنطلي تضليلاتهم عليه، بل يوفقه الله ويحفظه من مؤامرتهم، وينور بصيرته، ويعلمه ما لم يكن يعلمه صيانة لأحكامه أن يصدر منها تبرئة مجرم، أو ظلم بريء[7].

ثم كرر الامتنان عليه بتأييده إياه في جميع الأحوال، وعصمته له[8]، فقال: ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ﴾، وهذه نعمة

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٥٧، العذب النمير، الشنقيطي ١/ ٣٤١.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٨.
(٣) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٩/ ١٩٤.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٩.
(٥) المصدر السابق ص ٢٠٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٩٧.
(٧) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٦/ ٢٥٨.
(٨) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٠.

كبيرة على رسوله صلى الله عليه وسلم تتضمن النعمة بالعمل، وهو التوفيق لفعل ما يجب، والعصمة له عن كل محرم[(١)].

٥. إرسال الرياح اللينة بالغيث.

إجراء الريح وانتشارها من ههنا وهاهنا أمام المطر مبشرة به من غرائب صنعه وعجائبه، ومن عظائم نعمه على خلقه[(٢)]، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٥٧].

فإنه سبحانه لما ذكر قرب رحمته من المحسنين في قوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦][(٣)]، أتبعها بذكر أثر من آثار قدرته، ونفحة من نفحات رحمته، وهو إرسال الرياح المبشرات بالغيث، التي تثيره بإذن الله من الأرض، فيستبشر الخلق برحمة الله، وترتاح لها قلوبهم قبل نزوله[(٤)].

٦. إنجاء المؤمنين وإهلاك المجرمين.

نزول العقاب بالكافرين ونجاة المؤمنين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٠٠.
(٢) انظر: العذب النمير، الشنقيطي ٣/ ٤١٥.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٧٨.
(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٢٩٢.

يكون برحمة كريمة من الله، وحسبها شرفًا أنها من رب العالمين[(٥)]؛ كما قال تعالى عن نبيه هود عليه السلام ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وقال عن نبيه صالح عليه السلام: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾

[هود: ٦٦-٦٧].

وقال عن نبيه شعيب عليه السلام: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤].

فنجاتهم جميعًا هم ومن آمن معهم وإهلاك أعدائهم كان برحمة من الله؛ وقد جاءت الرحمة بصيغة التنكير في جميع المواضع التي وردت فيها؛ للتعظيم، ووصفها بأنها من الله للدلالة على كمالها[(٦)].

والباء في ﴿بِرَحْمَةٍ﴾ يحتمل أن تكون

(٥) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٧٢٠.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢١٤.



للسببية[1]؛ حيث جعل إيمانهم سببًا ينالون به رحمته فأنجاهم برحمته؛ ويجوز أن تكون للمصاحبة؛ حيث الرحمة مصاحبة لهم إذ كانوا بمحل اللطف والرفق حيثما حلوا إلى انقضاء آجالهم[2].

وفي هذا ما يدل على التشبث بعرى الإيمان ومتابعة المرسلين لينال العباد بذلك الرحمة والنجاة من العذاب الدنيوي والأخروي، والتحذير من مخالفة المرسلين، وبيان أن ذلك سبب العذاب في الدنيا والآخرة؛ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣].

ويقول: ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٨][3].

٧. حفظ الصالحين وأولادهم.

العبد المؤمن الصالح يتولاه الله حتى بعد مماته رحمة منه، وخاصة ما ترك من الذرية[4]؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

فإنه تعالى من كمال تدبيره وحكمته وتمام لطفه ورحمته أن قيض موسى والخضر في مصلحة يتيمين[5]؛ حالهما تقتضي الرأفة بهما ورحمتهما، لكونهما صغيرين عدما أباهما، وحفظهما الله أيضًا بصلاح والدهما[6]؛ وكان الذي فعله الخضر لم يكن من تلقاء نفسه، ومجرد إرادته؛ وإنما ذلك من رحمة الله وأمره، الرحمة التي ليس بعدها رحمة، والحكمة التي ليس بعدها حكمة[7].

٨. الوقاية من عداوة الشيطان ووسوسته.

الإنسان بطبعه ظالم جاهل، فلا تأمره نفسه إلا بالشر؛ فإذا لجأ إلى ربه واعتصم به واجتهد في ذلك، لطف به ربه ووفقه لكل خير، وعصمه من الشيطان الرجيم[8]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٢٩، روح المعاني، الألوسي ١٢/ ٩٢.
(٢) انظر: روح المعاني ١٢/ ٩٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢١٤.
(٣) انظر: الرحمة في القرآن الكريم، موسى عسيري ص١٤٨.
(٤) انظر: رحمة الله أسبابها وآثارها، مسفر الغامدي ص٢٤٠.
(٥) انظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة من المؤلفين ٤/ ٣٨٠.
(٦) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨٢.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ٨/ ٥٦١.
(٨) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص١٩٠.

فاتباع الشيطان هم المحرومون من فضل الله ورحمته، فقدوا عصمة الله لعنادهم، وركوبهم أهواءهم، وإيثارهم رغبات أنفسهم على فطامها عما حرم الله، وجعلهم الخيرة لأنفسهم في سلوك مراداتهم من السبل دون سبيل الله، أما القليل الرافضون لهمزات الشيطان على اختلاف أنواعها، والمتقبلون هداية الله، والمؤثرون لمرضاته وسلوك سبيله على مرادات أنفسهم وشهواتها فهم الحائزون على فضله بعصمتهم من أي شيطان، ورحمتهم بتثبيت قلوبهم، وهم الذين يأّس الله منهم بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

وقد اعترف إبليس أنهم لا من جنده ولا أتباعه بقوله: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٣].

فعصمتهم من اتباع الشيطان هي بفضل الله ورحمته[١].

وهذه الآية كقوله تعالى[٢]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

فالشيطان يأتي النفوس من قبل أهوائها وشهواتها، والنفس ميالة إلى السوء أمارة به، والنقص مستول على العبد من جميع جهاته، والإيمان غير قوي، ولكن الله تعالى لا يترك عباده جميعًا تحت غواية الشيطان الرجيم؛ فإن الزكاء يتضمن الطهارة والنماء، فهو يجتبي من عباده من يزكيه ويطهره في قلبه ولسانه ونفسه، ولا يشاء الله تعالى لعبده تلك الطهارة إلا إذا سلك سبيلها، واختار طريقها، فيأخذه إلى ما اختار[٣].

٩. المودة والرحمة بين الزوجين.

لا ألفة بين زوجين أعظم مما بين الزوجين[٤]، ومحبة الزوجين لا تقاس بمحبة غيرهما؛ لأن الله قال في حقهما[٥]: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فجعل بين كل زوجين مودةً ومحبةً، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وجعل بينهما رحمة فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة[٦].

وجعل بينهما محبةً ورأفةً، فإن الرجل

(١) انظر: صفوة الآثار والمفاهيم، الدوسري ٦/ ١١٤.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٤٥.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٦٣، وزهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥١٦٧.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٢٥.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن ص٦١.
(٦) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٧١.

يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها، بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق[1]؛ فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة[2].

١٠ . إمساك الطير حال الطيران.

من رحمانيته تعالى لطفه بالطير وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء[3]، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ [الملك: ١٩].

فالذي يحفظ الطير من السقوط بما أودع فيها من خاصية الطيران بالقبض والبسط هو الرحمن، وخص ذكره دون لفظ الجلالة (الله)؛ للدلالة على أن هذا الحفظ من رحمته بهذه المخلوقات وبمن سخرت له، فرحمة الله بالمخلوقات بإمهالهم وعدم العجلة بعقابهم كرحمة الله بالطير في الهواء من السقوط والهلاك[4].

فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها، دلته على قدرة الباري، وعنايته الربانية، وأنه الواحد الأحد، الذي لا تنبغي العبادة إلا له، المدبر لعباده بما يليق بهم، وتقتضيه حكمته[5].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٠٩.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣٩.
(٣) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٤٨.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٤٠، التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، مجموعة مؤلفين ٨/ ٢٨٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٧٧.

موقف الخلق من رحمة الله

رحمة الله مبذولة لكل أحد، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولا يهلك على الله إلا هالك، وقد انقسم الناس تجاه هذه الرحمة إلى طرفين وواسطة، ولكل عرض القرآن الكريم.

أولًا: الآيسون القانطون من رحمة الله:

والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان:

١. إياس الكفار منها، وتركهم الأسباب التي تقربهم منها[1].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [العنكبوت: ٢٣].

فأخبر عن يأسهم من رحمة الله بالفعل الماضي؛ تنبيهًا على تحقيق وقوعه، والمعنى: أولئك سييأسون من رحمة الله لا محالة[2]؛ لأنهم لم يعملوا سببًا واحدًا يحصلون به الرحمة، وإلا لو طمعوا في رحمته، لعملوا لذلك أعمالًا[3].

قال القرطبي رحمه الله: «اليأس من رحمة الله؛ فيه تكذيب القرآن؛ إذ يقول وقوله الحق: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وهو يقول: لا يغفر له؛ فقد حجر واسعًا؛ هذا إذا كان معتقدًا لذلك؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧][4]».

٢. إياس العصاة[5].

فيقوى خوف العبد بما جنت يداه من الجرائم، ويضعف علمه بما لله من واسع الرحمة والمغفرة، ويظن بجهله أن الله لا يغفر له ولا يرحمه ولو تاب وأناب، وتضعف إرادته، فييأس من الرحمة[6]؛ وهذا ما يلمح إليه قوله سبحانه: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

ثانيًا: الذي يتكلون على عفو الله ومغفرته ورحمته:

الاتكال على رحمة الله يسبب مفسدةً عظيمةً هي الأمن من مكر الله[7]؛ فيسترسل في المعاصي ويتكل على رحمة الله من غير

(١) انظر: المصدر السابق ص ٦٢٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٣٤.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن٦/ ٢٦٥.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٢٩.
(٦) انظر: القول السديد، السعدي ص١٢٢.
(٧) انظر: القول المفيد، ابن عثيمين ١/ ٥٦.

عمل[1]؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].

فإذا كان أمن العالم المدبر والصالح المتعبد من مكر الله تعالى جهلًا يورث الخسر، فكيف حال من يأمن مكر الله، وهو مسترسل في معاصيه اتكالًا على عفوه ومغفرته ورحمته؟[2]، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب[3].

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ، على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان، بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيًا بقوله: (يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك)[4]، وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة[5].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٦٥.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٢٦.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٤٥٦.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧، والترمذي في سننه، ٤/ ٤٤٨، رقم ٢١٤٠، عن أنس رضي الله عنه.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٢٣.

(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٩٨.

ثالثًا: الذين جمعوا بين الخوف من عذاب الله، وبين الرجاء لرحمة الله:

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: ٩].

فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا[6].

فللخوف مزيته من زجر النفس عما لا يرضي الله، وللرجاء مزيته من حثها على ما يرضي الله، وكلاهما أنيس السالكين[7].

وقد وصف الله عبده في الآية الكريمة بأفضل العبادات الظاهرة وهي الصلاة، ووصف عمل قلبه بالخوف والرجاء، فهو بين الخوف من سيئاته وفلتاته، وبين الرجاء لرحمة ربه أن يثيبه على حسناته[8].

فالمؤمن إذا خاف لا يقنط من رحمة الله، بل يرجوها مع العمل الصالح، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٨].

فذكر سبحانه أنهم يرجون رحمة الله

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٤٥٧.

(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٤٧.

(٨) انظر: المصدر السابق ٢٣/ ٣٤٦.

مع الاجتهاد في الأعمال الصالحة[١]؛ لأن الرجاء يتبعه السعي لتحصيل المرجو، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩]؛ فإن ترقب المرء المنفعة من غير أسبابها فذلك الترقب يسمى غرورًا[٢].

ومن الآيات التي مدح الله فيها أهل الخوف والرجاء قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

فابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب بحبه وطاعته، ثم ذكر الرجاء والخوف[٣]؛ وذكر خوف العذاب بعد رجاء الرحمة للإشارة إلى أنهم في موقف الأدب مع ربهم؛ فلا يزيدهم القرب من رضاه إلا إجلالًا له وخوفًا من غضبه[٤].

وهذه الأمور الثلاثة: الخوف والرجاء والمحبة التي وصف الله بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير، فمن تمت له تمت له أموره وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات وأحاطت به الشرور[٥].

ولذا جاء عن بعضهم قوله: من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهوحروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد[٦].

موضوعات ذات صلة.

الجنة، الحساب، السعة، العذاب، العفو، الهداية، اليأس

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص٤٤٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالله ص٤٤٦.
(٤) انظر: التحرير والتنوير ١٥/ ١٤٠.
(٥) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٠.
(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٤٥٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الرزق	١٧٦
الرزق في الاستعمال القرآني	١٧٧
الالفاظ ذات الصلة	١٧٨
الله خير الرازقين	١٨٠
حقيقة الرزق وتنوع صوره	١٨٧
المعبودات من دون الله والرزق	١٨٩
أسباب الرزق	١٩٠
علاقة المعاصي بالرزق	٢٠٢
الرزق في الآخرة	٢٠٥

المجلد السادس عشر

مفهوم الرزق

أولًا: المعنى اللغوي:

الرزق: الراء والزاء والقاف أصيلٌ واحدٌ، يدلّ على عطاءٍ لوقت، ثم يحمل عليه غير الموقوت؛ والرزق: بالفتح مصدر، وبالكسر اسم الشيء المرزوق، وهو كل ما ينتفع به، وجمعه أرزاق، والرازق والرزّاق: صفة الله تعالى، فعّال من أبنية المبالغة، لا يقال إلا لله تعالى، ولأنه يرزق الخلق أجمعين، وهو الذي خلق الأرزاق، وأعطى الخلائق أرزاقها وأوصلها إليهم، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦][(١)].

قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٩]، أي: فليأتكم بقوت منه[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الرزق: كل ما ينتفع به، سواءً كان ماديًّا كالأموال من ذهب وفضة وحيوان وزروع وثمار وعقار، وكل ما هو مأكول ومطعوم وملبوس ومشروب ومسكون ونحو ذلك، أو كان معنويًّا كالمعارف والعلوم والمنزلة والجاه والسلطان والعقل والذكاء وحسن الخلق ونحو ذلك، وسواءً كان ما ينتفع به في الدنيا وهو ما ذكرناه، أو ينتفع به في الآخرة وهو رضوان الله تعالى وثوابه ونعيم الجنة، ونحو ذلك مما أخبرنا الله تعالى به[(٣)].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٣٣٣، المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٥١، لسان العرب، ابن منظور ١٠/ ١١٥.

(٢) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص٢٩٥.

(٣) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان ص٢٦٤.

الرزق في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رزق) في القرآن الكريم (١٢٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣٧	﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الروم: ٤٠]
الفعل المضارع	١٩	﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩]
فعل الأمر	٥	﴿وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: ٣٧]
اسم الفاعل	٦	﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩]
صيغة المبالغة	١	﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٨]
اسم	٥٥	﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ [طه: ١٣١]

وجاء الرزق في القرآن على وجهين[٢]:

الأول: العطاء بكل أنواعه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، يعني: مما أعطيناهم من الأموال والعلوم والجاه وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، يعني: طعامًا أو فاكهة.

الثاني: النفقة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٣]، يعني: نفقتهنّ.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٣١١-٣١٢، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٥٧٦-٥٧٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٣٤-٢٣٥، نزهة الأعين النظائر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٢٤-٣٢٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٦٥-٦٧، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٨٧-٨٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الكسب:

الكسب لغة:

طلب الرّزق وابتغاؤه، والسعي في تحصيله، وأصله: الجمع، كسب يكسب كسبًا وتكسّب واكتسب، قال سيبويه: «كسب: أصاب، واكتسب: تصرف واجتهد»[(١)].

الكسب اصطلاحًا:

هو: الأفعال الموصلة إلى المادة، والتصرف المؤدي إلى الحاجة[(٢)].

وقال الراغب في مفرداته: «الكسب: ما يتحرّاه الإنسان مما فيه اجتلاب نفعٍ، وتحصيل حظٍ، ككسب المال، وقد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة، ثم استجلب به مضرة»[(٣)].

وعلى ذلك فالكسب هو: ما يحصل ويجتمع من المال بالاكتساب من حلالٍ أم من حرام[(٤)].

الصلة بين الكسب والرزق:

الكسب لا يأتي إلا بسعي و طلب، و الرزق قد يأتي بسعي و بدون سعي، فكل كسبٍ رزقٌ و ليس كل رزقٍ كسبًا.

٢ العطاء:

العطاء لغة:

مأخوذٌ من العطو: وهو التّناول، يقال: عطوت الشّيء أعطو: تناولته، وفي الأثر: (أربى الرّبا عطو الرّجل عرض أخيه بغير حقٍّ)[(٥)]، أي: تناوله بالذم ونحوه، وهو في اللغة: اسم لما يعطى به، والجمع عطايا، وأعطية وجمع الجمع: أعطيات[(٦)].

العطاء اصطلاحًا:

(١) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٣٨٧٠.
(٢) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص٢٥٧.
(٣) المفردات ص٤٣٠.
(٤) الاكتساب في الرزق المستطاب، محمد بن الحسن الشيباني ص٢١.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٥٠٨.
(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٦٨.



لا يخرج المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي في أن معناه يدور حول المناولة، قال ابن العربي: «حقيقة العطاء هي: المناولة، وهي في اللغة والاستعمال عبارة عن: كل نفع أو ضر يصل من الغير إلى الغير»[(١)].

وقال المناوي: «العطاء: التناول، والمعاطاة: المناولة، لكن استعملها الفقهاء في مناولة خاصة»[(٢)].

والعطاء نوعان: العطاء العام: وهو ما يكون للخلائق عامة، والعطاء الخاص: وهو ما كان خاصًّا كإجابة الدعاء، وتحقيق مطلب الأنبياء والصالحين[(٣)].

الصلة بين العطاء والرزق:

يقال للعطاء الجاري: رزقٌ، دينيًّا كان أم دنيويًّا، فالرزق يشمل العطاء وغيره، وقيل: الرّزق: ما يفرض للرّجل في بيت المال بقدر الحاجة والكفاية، مشاهرةً أو مياومةً[(٤)].

والعطاء: ما يفرض للرّجل في كل سنةٍ لا بقدر الحاجة بل بصبره وعنائه في أمر الدّين[(٥)].

---

(١) أحكام القرآن ٤/ ٧٤.
(٢) التوقيف على مهمات التعريف ١/ ٢٢٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٨.
(٤) ياومه في مياومةً، ويوامًا: عامله أو استأجره باليوم.
انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٥٦.
(٥) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٠/ ١٥٠.

الله خير الرازقين

أولًا: الله هو الرزاق:

«الرازق: المفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قوامًا إلا به، والمنعم لهم باتصال حاجتهم من ذلك إليهم؛ لئلا تتنغص عليهم لذة الحياة بتأخره عنهم، ولا يفقدوها أصلًا بفقدهم إياه.

والرزاق: هو الرازق رزقًا بعد رزق، والمكثر الواسع لها»[(١)].

يقول العلامة الشيخ السعدي: «الرزاق لجميع عباده، فما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها، والرزق الحلال الذي يعين على صلاح الدين، وهذا خاص بالمؤمنين على مراتبهم منه بحسب ما تقتضيه حكمته ورحمته»[(٢)].

لقد ضمن الله تعالى لكل مخلوق رزقه كما وقت له أجله، وذلك ظاهر في آيات متعددة منها:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

فالآية تثبت أن الله هو الرازق مطلقًا لخلقه، المتكفّل بأقواتهم، ذو القوة المتين[(٣)] ويعتبر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾؛ تعليلًا لما تقدّم من الأمرين؛ فقوله: ﴿هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ تعليلٌ لعدم طلب الرزق، وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ تعليل لعدم طلب العمل؛ لأن من يطلب رزقًا يكون فقيرًا محتاجًا، ومن يطلب عملًا من غيره يكون عاجزًا لا قوة له، والله ليس كذلك[(٤)].

ومن لطائف ما جاء في هذا الباب: ما قاله السفاريني: «قال العمريّ: رأيت البهلول وقد دلّى رجله في قبرٍ وهو يلعب بالتّراب، قلت أنت ها هنا؟ قال: نعم عند قوم لا يؤذوني، وإن غبت لا يغتابوني. قلت له إنّ السّعر قد غلا، قال: لو بلغت كلّ حبّةٍ بمثقالٍ لا أبالي، نعبده كما أمرنا، ويرزقنا كما وعدنا، ثمّ أنشد يقول: رحمه الله تعالى:

أفنيت عمرك فيما لست تدركه
ولا تنام عن اللّذّات عيناه
يا من تمتّع بالدّنيا ولذّتها
يقول للّه ماذا حين يلقاه»[(٥)]

وجاءت الآية التالية لتثبت تعميم الرزق على السماء والأرض: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان، الحليمي ١/ ٢٠٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٩٤٨.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٥٥.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٩٥.
(٥) غذاء الألباب شرح منظومة الآداب، السفاريني ٢/ ٤٢١.

يعترف بذلك المشركون بأن الرزق بيد الله وحده، ومن على الأرض يعلم أن الرزق بيد الله الواحد، قال صاحب الظلال: «من المطر الذي يحيي الأرض وينبت الزرع، ومن طعام الأرض نباتها وطيرها وأسماكها وحيوانها، ثم سائر ما كانوا يحصلون عليه من الأرض لهم ولأنعامهم، وذلك بطبيعة الحال ما كانوا يدركونه حينذاك من رزق السماء والأرض، وهو أوسع من ذلك بكثير، وما يزال البشر يكشفون - كلما اهتدوا إلى نواميس الكون - عن رزق بعد رزق في السماء والأرض، يستخدمونه أحيانًا في الخير، ويستخدمونه أحيانًا في الشر حسبما تسلم عقائدهم أو تعتلّ، وكله من رزق الله المسخَّر للإنسان، فمن سطح الأرض أرزاق، ومن جوفها أرزاق، ومن سطح الماء أرزاق، ومن أعماقه أرزاق، ومن أشعّة الشمس أرزاق، ومن ضوء القمر أرزاق، حتى عفن الأرض كشف فيه عن دواء وترياق»[1]، ثم جاءت الآية التي تخصص بعد تعميم فتذكر رزق الدواب، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[هود: ٦]. إن المتأمل في آيات القرآن المتلوة، وآيات الكون المرئية يجد -بلا ريب- أن الرزق بيد الله وحده؛ فكما أنه الخالق فهو الرازق[2].

أثر الإيمان بهذه الأسماء في ترسيخ العقيدة وزيادة الإيمان:

١. إفراد الله بالعبادة.
٢. زيادة التوكل على الله.
٣. زيادة الرضا عن الله تعالى.
٤. زيادة محبة العبد لله تعالى.
٥. الشكر لله تعالى.
٦. دعاء الله تعالى.
٧. الإحسان إلى الناس.
٨. تزكية النفس من التكبر والحسد[3].

ثانيًا: الحكمة في تفاوت الأرزاق:

من سنة الله في الخلق التفاوت في الأرزاق بين الناس، وله حكم عظيمة يعلمها الله عز وجل، وقد يظهر لنا بعض منها، وسأعرض لبعض الآيات التي تبين بعضًا من هذه الحكم.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[النحل: ٧١].

قال المفسرون: أخبر الله عز وجل في هذه الآية أن الرزق متفاوت بين البشر، قد

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٧٨١.

(٢) الرزق في القرآن الكريم، عدي عصفور ص٤.

(٣) دراسة لاسمي الله الرازق والرزاق وما في معناهما من أسماء الله تعالى، أحمد المزيد ٥٢-٥٣.

قسمه الله عز وجل، أي: جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق مماليككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردّوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملبس والمطعم[1].

وقيل: جعلكم متفاوتين فيه، فوسّع على بعض عباده حتى جعل له من الرّزق ما يكفي ألوفًا مؤلّفةً من بني آدم، وضيقه على بعض عباده حتى صار لا يجد القوت إلا بسؤال الناس والتكفّف لهم؛ وذلك لحكمة بالغة تقصر عقول العباد عن تعقلّها، والاطلاع على حقيقة أسبابها، وكما جعل التفاوت بين عباده في المال جعله بينهم في العقل والعلم، والفهم وقوة البدن وضعفه، والحسن والقبح والصحّة والسقم، وغير ذلك من الأحوال[2].

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩].

لطيف بعباده، برٌّ بليغ البرّ بهم، قد توصّل برّه إلى جميعهم، وتوصّل من كل واحد منهم إلى حيث لا يبلغه، وهم أحدٌ من كلياته وجزئياته.

يقول صاحب الكشاف: «فإن قلت: فما معنى قوله: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ بعد توصّل برّه إلى جميعهم؟ قلت: كلهم مبرورون لا يخلو أحد من برّه، إلا أن البرّ أصناف، وله أوصاف، والقسمة بين العباد تتفاوت على حسب تفاوت قضايا الحكمة والتدبير، فيطير لبعض العباد صنف من البرّ لم يطر مثله لآخر، ويصيب هذا حظٌّ»[3].

ومن أروع ما قرأت في هذا الباب ما قاله الشيخ السعدي رحمه الله تعالى: «ومن لطفه بهم تبارك وتعالى: أن يقدر لهم أرزاقهم بحسب علمه تبارك وتعالى بمصالحهم، لا بحسب مراداتهم، فقد يريدون شيئًا وغيره الأصلح وإن كرهوا؛ لطفًا بهم وبرًّا وإحسانًا»[4].

قال ابن مسعود رضي الله عنه: «إن العبد ليهمّ بالأمر من التجارة والإمارة حتى ييسر له، فينظر الله إليه من فوق سبع سماوات، فيقول للملائكة: اصرفوه عنه، فإني إن يسرته له أدخلته النار، فيصرفه الله عز وجل عنه، فيظلّ يتطيّر يقول: سبقني فلان، دهاني فلان، وما هو إلا فضل الله عز وجل عليه»[5].

ويتضح من النصوص السابقة أن الرزق وسعته وضيقه من الله، فهو سبحانه وتعالى يبسط الرزق ويوسعه لمن يشاء وفق قضائه

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٢٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢١٣.
(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢١٨.
(٤) المواهب الربانية من الآيات القرآنية، السعدي ص١٢٥.
(٥) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٢٦١.

وقدره المبني على علمه وحكمته على الأوجه التالية: إما أن يكون:

- فضلًا منه ورحمةً ابتداءً.
- امتحانًا واختبارًا.
- استدراجًا وإمهالًا وعذابًا.

ويضيق الله الرزق على من يشاء وفق قضائه وقدره المبني على علمه وحكمته على الأوجه التالية:

- إما حمايةً لعبده منةً ورحمةً به.
- أو امتحانًا له واختبارًا.
- أو حرمانًا وعذابًا.

وهو سبحانه يبسط الرزق لبعض عباده؛ لأنه يعلم أنه لا يصلحه إلا بسط الرزق، ويضيق الرزق على بعض عباده؛ لأنه يعلم أن التضييق عليه في الرزق أصلح له، ولله في قضائه وقدره حكم عظيمة، وكل ما يقدره ويقضيه لعباده فيه الخير والصلاح[1].

ومن حكم التفاوت في الرزق كما جاء بها القرآن:

١ . ليتخذ بعضنا بعضًا سخريا.

قال تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

والمعنى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾، أي: أسباب معيشتهم في الحياة الدنيا قسمةً تقتضيها مشيئتنا المبنية على الحكم والمصالح، ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ﴾ في الرزق وسائر مبادى المعاش وأسبابه ﴿دَرَجَاتٍ﴾ متفاوتة. فقد فاوتنا بينهم فيما أعطيناهم من الأموال والأرزاق والعقول والفهوم وغير ذلك من القوى الظاهرة والباطنة، فكان منهم القوي والضعيف، والعالم والجاهل، والحاذق والأبله، والرئيس والمرؤوس، والغني والفقير. وإنما فعلنا ذلك ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾، أي: ليسخر بعضهم بعضًا في الأعمال لاحتياج بعضهم إلى بعض، وبهذا يمكن أن يتعايشوا ويحصل كل منهم على ما يحتاجه بمساعدة الآخرين، ولولا هذا التفاوت فيما ذكرنا لما أمكن أن يقضي بعضهم حاجة بعض، ولا أن يخدم بعضهم بعضًا[2].

٢ . المنع من البغي.

ومن حكمة التفاوت في الرزق: منع بغي الناس في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

والمعنى: لو وسع الله على عباده

(١) الرزق: مصدره، أسباب حصوله وزيادته، حلاله وحرامه، شروطه، مسفر الغامدي ص٢٥١.

(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/٢٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٢٠٩.

في الرزق ﴿لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: لطغوا وعصوا، أو لتكبروا في الأرض وفعلوا ما يتبع الكبر من الفساد والعلو فيها، ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ﴾ أي: ينزل أرزاقهم بقدر ما يشاء لكفايتهم، ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ﴾ يعرف ما يؤول إليه أحوالهم، فيقدر لهم ما هو أقرب إلى جمع شملهم، فيرزقهم من الرزق ما يختاره مما فيه صلاحهم وهو أعلم بذلك، فيغني من يستحق الغنى، ويفقر من يستحق الفقر كما توجبه حكمته تعالى. ولو أغناهم جميعًا لبغوا، ولو أفقرهم جميعًا لهلكوا، ولا شبهة في أن البغي مع الفقر أقل، ومع الغنى أكثر وأغلب[1]، والمؤمن لا يحزن لهذا التفاوت الذي اقتضته حكمة الله حتى ولو كان شديد الفقر، لأن كل ما يؤتاه الإنسان من الدنيا فهو متاع قليل وزائل، ولا يستحق أن تستشرف له نفس المؤمن، ولا أن يكون مقصدها وهمها، ولا أن يحزن على فوته أو فقده، لأن مقصده الآخرة، وغايته طلب مرضاة الله، ولأنه يعلم مدى حقارة الدنيا عند الله تعالى. ومما يدل على حقارة الدنيا عند الله تعالى وإنها وكل ما فيها مما تستشرف إليه النفس، شيء تافه وزائل ومتاع قليل[2].

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٢٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٢٧.

الحكمة في رزق الكفار:

إن حقيقة أرزاق الكفار وأهل المعاصي تكمن في أن الله سبحانه قد ضمن الرزق لكل مخلوقاته مؤمنهم وكافرهم؛ فعموم الأدلة الشرعية تدل على شمول رزق الله لكل مخلوقاته، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ كُلّٞ فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٦﴾ [هود: ٦].

ولذلك لما دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يرزق من آمن من ذريته من أهل البيت بيّن الله تعالى له أنه يرزق الكافرين أيضًا[3].

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

قال الشيخ السعدي: «قيد عليه السلام هذا الدعاء للمؤمنين، تأدبًا مع الله، إذ كان دعاؤه الأول فيه الإطلاق، فجاء الجواب فيه مقيدًا بغير الظالم، فلما دعا لهم بالرزق، وقيده بالمؤمن، وكان رزق الله شاملًا للمؤمن والكافر، والعاصي والطائع، قال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾، أي: أرزقهم كلهم، مسلمهم وكافرهم، أما المسلم فيستعين بالرزق على عبادة الله، ثم ينتقل منه إلى نعيم الجنة، وأما الكافر، فيتمتع فيها قليلًا

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ١١٩.

﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ أي: ألجئه وأخرجه مكرهًا ﴿إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾»[(١)]؛ لأنه ربهم ولا رازق إلا هو، ولكنه سبحانه يمتعهم برزقهم ذلك في الحياة الدنيا، ويعذبهم في الآخرة على خلاف المؤمنين الذين يرزقهم في الدنيا، ويكمل لهم رزقهم ويمتعهم به خالصًا في الآخرة.

بل لربما يزيد الله في أرزاق بعض الكفار أكثر من أرزاق المؤمنين في الدنيا، وذلك ابتلاءً للمؤمنين وامتحانًا لهم، كما في قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزخرف: ٣٢ - ٣٥].

قال القرطبي في تفسير هذه الآيات: «ذكر حقارة الدنيا وقلة خطرها، وأنها عنده من الهوان بحيث كان يجعل بيوت الكفرة ودرجها ذهبًا وفضةً لولا غلبة حب الدنيا على القلوب فيحمل ذلك على الكفر. قال الحسن: المعنى لولا أن يكفر الناس جميعًا بسبب ميلهم إلى الدنيا عن الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه لهوان الدنيا عند الله»[(٢)].

ويستفاد من الآيات: أن الميل إلى الدنيا وطلب متاعها فطري في الإنسان؛ فلذا لو أعطيها الكافر بكفره لمال إليها كل الناس وطلبوها بالكفر، وكذا: هوان الدنيا على الله وعدم الاكتراث بها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء)**[(٣)].

وقوله عليه الصلاة والسلام: **(الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر)**[(٤)].

ثم: بيان أن الآخرة خير للمتقين[(٥)]، والله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا من يحب.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾ [الفجر: ١٥ - ١٦].

يقول شيخ الإسلام: «فالجواب يقول:

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٦٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٦/ ٨٥.

(٣) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب هوان الدنيا على الله عز وجل، ٤/ ٦٥٠.
وصححه الألباني صحيح الجامع، رقم ٥٢٩٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، ٤/ ٢٢٧٢، رقم ٢٩٥٦.

(٥) أيسر التفاسير، الجزائري ٤/ ٦٤٠.

ما كل من وسعت عليه أكرمته، ولا كل من قدرت عليه أكون قد أهنته، بل هذا ابتلاء، ليشكر العبد على السراء، ويصبر على الضراء، فمن رزق الشكر والصبر كان كل قضاء يقضيه الله خيرًا له[1]، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(عجبت للمؤمن إن الله تعالى لم يقض له قضاءً إلا كان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)**[2].

فالمؤمن يصبر على البلاء ولكن لا يسأل الله الصبر قبل وقوع البلاء، قال صلى الله عليه وسلم لرجل سمعه يقول: اللهم إني أسألك الصبر، فقال: **(لقد سألت الله البلاء، فسله العافية)**[3].

لكن عند وقوع الضيق والشدة يسأل العبد ربه الصبر على ما ابتلي به، ولعل من الحكمة في هذا -يعني أن الفضلاء يقلل لهم، والجهلاء يضيق عليهم- لئلا يتوهم الفضلاء أن الفضل يرزقهم، وإنما يرزقهم الله تعالى.

ورحم الله الشافعي إذ قال[4]:

تموت الأسد في الغابات جوعًا ... ولحم الضأن تأكله الكلاب

وعبدٌ قد ينام على حريرٍ ... وذو نسبٍ مفارشه التراب

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ١/ ٢٦٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، ٤/ ٢٢٩٥، رقم ٢٩٩٩.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، ٥/ ٥٤١، رقم ٣٥٢٧.
وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ١٠/ ٢٥، رقم ٤٥٢٠.

(٤) ديوان الشافعي ص١٨.

حقيقة الرزق وتنوع صوره

قد يرزق الله عباده بسبب وبغير سبب، وبطلب وبغير طلب، وقد يرث الإنسان مالًا فيدخل في ملكه من غير قصد إلى تملكه، وهو من جملة الأرزاق، وكل ما وصل منه إليه من مباح فهو رزق الله، على معنى أنه قد جعله له قوتًا ومعاشًا، إلا أن الشيء إذا كان مأذونًا له في تناوله فهو حلال حكمًا، وما كان منه غير مأذون له فيه فهو حرام حكمًا(١).

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٢-٣٤].

وهذا من رحمة الله ولطفه بعباده أن نوع أرزاقه وفضله ونعمه وعددها؛ فجعل منها ما هو ظاهر، وما هو باطن، ومنها ما هو أول، ومنها ما هو آخر، ومنها ما هو مادي، ومنها ما هو معنوي؛ ومنها ما عجله لعباده في الحياة الدنيا، ومنها ما أخره، والآية فيها إشارة إلى ذلك حيث خلق لنا كل شيء، وسخر لنا كل شيء، وأعطانا من كل شيء سألناه، ومن كثرة نعمه لا يمكن أن يحصيها أحد، ولا يمكن أن يعدها عاد، فلله الحمد، وله الشكر، وله الثناء الحسن.

وللرزق مفهومان: مفهوم عام، ومفهوم خاص.

فالعام: هو كل ما تفضل به الله على عباده وأنعم، سواءً في الدنيا أو في الآخرة، وسواءً كان هذا الرزق ماديًا أو معنويًا.

أما الخاص: فهو المادي في الدنيا، ومن كسب الإنسان.

ومن أمثلة على الرزق العام فيما يأتي:

١. خلق المخلوقات علويها وسفليها لصالح الإنسان. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩].

٢. تفضله سبحانه وتعالى على من يشاء بالملك والعز والخير. قال تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

٣. إنزال المطر وإنشاء الجنات والأنعام. قال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ

---

(١) شأن الدعاء، الخطابي ص٥٥.

مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ
إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦۖ
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ
﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًاۚ
كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟
خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿١٤٢﴾ [الأنعام: ١٤١- ١٤٢]

٤. ومن رزق الله: البحر وما فيه من أرزاق وخيرات، قال عز وجل: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَاۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ [فاطر الآية ١٢].

أخرج البخاري في صحيحه من حديث جابر، قال: غزونا جيش الخبط، وأمّر أبو عبيدة فجعنا جوعًا شديدًا فألقى البحر حوتًا ميتًا لم نر مثله، يقال له: العنبر، فأكلنا منه نصف شهرٍ، فأخذ أبو عبيدة عظمًا من عظامه فمرّ الرّاكب تحته، فأخبرني أبو الزّبير أنّه سمع جابرًا يقول: قال أبو عبيدة: كلوا، فلمّا قدمنا المدينة ذكرنا ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: (كلوا رزقًا أخرجه اللّه، أطعمونا إن كان معكم)، فأتاه بعضهم بعضوٍ فأكله)[1].

هذه الغزوة: غزوة سيف البحر، أو سرية الخبط[2]، وكانت في رجب سنة ثمانٍ، بعثهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ساحل البحر يتلقون عيرًا لقريش، بينهم وبين المدينة خمس ليال، وخرج بهم أبو عبيدة رضي الله تعالى عنه، ولما كانوا في أثناء الطريق انتهى زاد الجيش، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش، فجمعها فكانت مزود تمر، والمزود هو: ما يوضع فيه الزاد، قال جابر: فكان أبوعبيدة يعطينا تمرةً تمرةً، فقلت: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعصينا الخبط ثم نبله بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا في ساحل البحر، فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر فأكلنا منها نصف شهر.. الحديث.

(١) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة سيف البحر، رقم ٤٣٦١.

(٢) الخَبَط: ورق الشّجر السّاقط بمعنى المخبوط، وخبط الشجرة بالعصا يخبطها خبطًا: شدّها ثم ضربها بالعصا ونفض ورقها منها ليعلفها الإبل والدوابّ. انظر: لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٢٦٩ .

المعبودات من دون الله والرزق

أولًا: لا تملك المعبودات من دون الله الرزق:

من ثوابت الإيمان التي يجب على المسلم أن يؤمن بها ويتمسك بها أن تكون ثقته أن الرزق بيد الله، وأنه سبحانه هو الرزاق ذو القوة المتين، وأن على الإنسان أن يلجأ في طلب الرزق إليه سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

في الآية السابقة: وجوب إفراد الله تعالى بالدعاء والعبادة، أما هذه الآية فهي كالتفسير للآية السابقة، وقد دلت على وجوب الدعاء لله وحده وطلب الرزق منه، وعلى وجوب إفراد الله بجميع أنواع العبادة ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾، وعلى وجوب شكر الله على نعمه، ﴿وَٱشْكُرُوا۟﴾ هذا فعل أمر.

ثانيًا: التقرب إلى المعبودات من دون الله بنصيب من رزق الله:

العبادة حق لله وحده لا شريك له سواءً كانت ذبحًا أو نذرًا أو سجودًا أو ركوعًا أو طوافًا ونحوها، فإن من جعل شيئًا منها لمخلوق كائنًا من كان فقد أشرك بالله تعالى في عبادته، واتخذ مع الله أندادًا.

وبيان ذلك أن الذبح أو النذر لغير الله تعالى شرك بالله تعالى؛ لأنهما عبادتان يجب صرفهما لله تعالى وحده، فمن صرفهما لغيره فقد أشرك، كما أن هؤلاء الذين ينحرون أو ينذرون لغير الله تعالى سواءً كان للأموات، أو للجن، أو للملائكة عليهم السلام، أو لطلعة سلطان ونحوها، إنما يفعلون ذلك عن اعتقاد باطل، فيعتقدون أنها تجلب النفع أو تدفع الضر، ومنهم من يقدم تلك النحائر والنذور إلى هذه المعبودات من أجل أن تقربهم عند الله زلفى.

يقول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾[المائدة: ٣].

يقول ابن عطية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ «يعني: ما ذبح لغير الله تعالى، وقصد به صنم أو بشر من الناس كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أن يسمي مقصوده ويصيح به،

فذلك إهلاله»[1].

يقول ابن تيمية: «قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣].

ظاهره أنه ما ذبح لغير الله تعالى، مثل أن يقال: هذا ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود، فسواءً لفظ به أو لم يلفظ، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقربًا به إليه لحرم، وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين قد يتقربون إلى الكواكب، بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان»[2].

ويقول ابن كثير: «وقوله تعالى: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصبًا، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرم عليهم أكل هذه الذبائح التي فعلت عند النصب، حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله في الذبح عند النصب، فهو من الشرك الذي حرمه الله ورسوله، وينبغي أن يحمل هذا على هذا»[3].

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٢١.
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/ ٥٦٣.
(٣) تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٢.

أسباب الرزق

أولًا: الإيمان والتقوى:

الإيمان بالله تعالى سبب من أسباب الرزق، لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [٩٦: الأعراف].

ومن لوازم الإيمان بالله تعالى: شكره سبحانه، فكما أن الإيمان سبب في الرزق فالشكر سبب في زيادته، والشكر مبني على ثلاثة أركان هي: الاعتراف بها -أي: بالنعمة- باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة وليّها ومسديها ومعطيها سبحانه[4].

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]؛ فقد بينت الآية الكريمة أن الشكر سبب في زيادة النعم، والمزيد يتضمن الحفظ والزيادة، ومتى لم يرِ الإنسان نفسه في مزيد فليستقبل الشكر.

وذكر القرطبي أن الآية نص في أن الشكر سبب المزيد في الرزق وأنه أحد الأقوال في الآية[5]، وأن الكفر عمومًا بعدم الإيمان وعدم رد النعمة إلى الله تعالى سبب في

(٤) الوابل الصيب، ابن القيم ص١٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٣٤٢.

العذاب لأن الكفر بالنعمة كفر ببارئها. كما جاءت الأحاديث الشريفة مؤكدة للمعنى الذي أشارت إليه الآية الكريمة، فعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يرزق الله عبدًا الشكر فيحرمه الزيادة)؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1].

كما جعل الله تعالى التقوى في الآية نفسها سببًا من أسباب الرزق، وفي هذا إشارة إلى أن رغد العيش وسعة الرزق تكون بالإيمان والتقوى.

وفي آية أخرى أفرد الله سبحانه التقوى سببًا من أسباب الرزق، فقال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢].

وقد يتصوّر أكثر الناس أن السعي في الأرض والمشي في مناكبها هو السبب الوحيد لتحصيل الرزق، ولكن اللّه سبحانه، الذي هو باسط الرزق ومسبب أسبابه، يؤكد في كتابه المجيد أن الأمر مختلف، فالتقوى والإيمان في البيان القرآني من أسباب الرزق أيضًا:

التقوى عرفها العلماء بقولهم: امتثال أمر الله، واجتناب نهيه، والوقاية من سخطه وعذابه عز وجل؛ ولذا من صان نفسه عن المعاصي هو متق لله، ومن قام بالواجبات والأوامر وحافظ عليها كان من المتقين لله تعالى، أما من عرض نفسه بالمعصية لسخط الله وعقوبته فقد أخرج نفسه عن وصف المتقين، والدليل على ارتباط التقوى بالرزق قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

أي: لأكثر الله الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض، ولأسبغ عليهم الدنيا إسباغًا[2].

ومن صور التقوى: التفرغ لعبادة الله عز وجل: ومعناه: حضور القلب وخشوعه وخضوعه لله أثناء العبادة، فعن معقل بن يسارٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول ربكم تبارك وتعالى: يا ابن آدم، تفرّغ لعبادتي، أملأ قلبك غنىً، وأملأ يديك رزقًا، يا ابن آدم، لا تباعد منّي، فأملأ قلبك فقرًا، وأملأ يديك شغلًا)[3].

ثانيًا: التوكل:

جعل الله التوكل عليه من أسباب الرزق كذلك. وحقيقة التوكل على الله هي

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني ٣/ ٣٣٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٦.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٢١، رقم ٨٦٩٦، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٤٢، رقم ٢٤٦٦.
وصححه الألباني في السلسة الصحيحة، ٣/ ٣٤٦، رقم ١٣٥٩.

الاعتماد عليه سبحانه، وإسناد الأمر إليه، والتفويض الكامل له، واستسلام القلب له؛ اعتمادًا على كفاية الله عبده، وإحسان العبد الظنّ بربه، وإثباتًا للتوحيد في الأمر كله لله سبحانه، حيث لا خالق ولا فاعل إلا هو، وهو تام العلم والقدرة والرحمة، فمن آمن بذلك توكل على الله[١]، كما دل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ إلى كفاية الله لكل من توكل عليه في أي أمر من الأمور، ويدخل في هذا العموم الرزق. وفي سنن الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا)[٢].

ففي هذا الحديث دلالة على الجمع بين الرزق والتوكل، وأن الناس لو توكلوا على الله لرزقهم كما يرزق الطير، التي تخرج من أعشاشها صباحًا خاوية البطون من الجوع تبحث عن رزقها، وتعود مساءً ممتلئة الحواصل، شبعةً من رزق الله[٣].

فترك الأسباب ومجرد تفويض الأمر إلى الله في نظرهم هو الإيمان. وحقيقة الأمر أن التوكل حال النبي صلى الله عليه وسلم والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركنّ سنّته[٤]، والتوكل على الله في عموم حاجات المسلم من علامات إيمان المرء، ويتأكد ذلك في التوكل على الله في الرزق، وتحصيله، قال أبو حاتم بن حبّان رحمه الله الواجب على العاقل: لزوم التوكل على من تكفل بالأرزاق؛ إذ التوكل هو نظام الإيمان، فالنظام: هو السلك الذي تنظم فيه حبات العقد.

وقرين التوحيد، وهو السبب المؤدي إلى نفي الفقر، ووجود الراحة، وما توكل أحدٌ على الله جل وعلا من صحة قلبه، حتى كان الله جلّ وعلا بما تضمّن من الكفالة أوثق عنده بما حوته يده: إلا لم يكله الله إلى عباده، وآتاه رزقه من حيث لم يحتسب.

وأنشدني منصور بن محمد الكريزي[٥]:

توكل على الرحمن في كلّ حاجةٍ
أردتّ فإن الله يقضي ويقدر
متى ما يرد ذو العرش أمرًا بعبده
يصبه، وما للعبد ما يتخيّر
وقد يهلك الإنسان من وجه أمنه
وينجو بإذن الله من حيث يحذر

(١) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٣١٨.
(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله، باب في التوكل على الله، ٤/ ٥٣٧، رقم ٢٣٤٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٣٢، رقم ٥٢٥٤.
(٣) شرح السنة، البغوي، ١٤/ ٣٠١.
(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، ٢/ ٤٩٨.
(٥) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان البستي ص ١٥٣، ١٥٤.

قال ابن حجر: والمراد بالتوكل اعتقاد ما دلت عليه هذه الآية: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

وليس المراد به: ترك التسبب والاعتماد على ما يأتي من المخلوقين لأن ذلك قد يجر إلى ضد ما يراه من التوكل، وقد سئل أحمد عن رجل جلس في بيته أو في المسجد، وقال: لا أعمل شيئًا[(١)].

ثم إن التوكّل على الله -وليس بمعنى التواكل- من أبواب الرزق، فعلى الإنسان أن يعمل ويجدّ في طلب الرزق، ولا يعني أن عمله بالطاعة يغنيه عن العمل الدّنيوي لجلب الرزق، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم: (لو توكّلتم على الله حق توكّله لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتروح بطانًا)[(٢)].

وقد قال ابن تيمية: وأما قوله: (يا عبادي، كلّكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم، وكلكم عارٍ إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم)[(٣)].

فيقتضي أصلين عظيمين؛ أحدهما: وجوب التوكّل على الله في الرّزق المتضمّن جلب المنفعة؛ كالطعام، ودفع المضرّة كاللّباس، وأنه لا يقدر غير الله على الإطعام والكسوة قدرةً مطلقةً[(٤)].

قال ابن القيم رحمه الله: «التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل[(٥)].

ثالثًا: الاستغفار:

والاستغفار: طلب المغفرة قولًا وفعلًا، والغفران والمغفرة: هو أن يصون الله عز وجل العبد من أن يمسه العذاب[(٦)].

ثمرات الاستغفار:

إن من منن الله الكبرى، والفضائل العظمى، ما رتّب على الاستغفار من عظيم الجزاء، ومن ذلك:

١. أن الاستغفار سبب المغفرة، ولو عظمت الذنوب، وبلغت من الكثرة عنان السماء.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[النساء: ١١٠].

أي: من تجرأ على المعاصي، واقتحم على الإثم، ثم استغفر الله استغفارًا تامًّا،

(١) فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣٠٥.
(٢) سبق تخريجه قريبًا.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧.
(٤) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، ١/ ١٠٦.
(٥) طريق الهجرتين،ابن القيم ص٣٨٩.
(٦) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٤/ ١٣٦.

يستلزم الإقرار بالذنب، والندم عليه، والإقلاع، والعزم على ألا يعود، فهذا قد وعده من لا يخلف الميعاد بالمغفرة والرحمة، فيغفر له ما صدر منه من الذنب، ويزيل عنه ما ترتب عليه من النقص والعيب، ويعيد إليه ما تقدّم من الأعمال الصالحة، ويوفّقه فيما يستقبله من عمره، ولا يجعل ذنبه حائلًا عن توفيقه؛ لأنه قد غفره، وكذا سائر المعاصي الصغيرة والكبيرة، وسمي ﴿سُوٓءًا﴾؛ لكونه يسوء عامله بعقوبته، ولكونه في نفسه سيئًا غير حسن، وكذلك ظلم النفس عند الإطلاق، يشمل ظلمها بالشرك فما دونه، وسمى ظلم النفس ظلمًا؛ لأن نفس العبد ليست ملكًا له، يتصرف فيها بما يشاء، وإنما هي ملك لله تعالى قد جعلها أمانة عند العبد، وأمره أن يقيمها على طريق العدل، بإلزامها الصراط المستقيم علمًا وعملًا، فيسعى في تعليمها ما أمر به، ويسعى في العمل بما يجب[(١)].

٢. أن الاستغفار سبب لرفع البلاء والنقم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد دلّت هذه الآية على فضيلة الاستغفار وبركته، بإثبات أن المسلمين أمنوا من العذاب، الذي عذّب الله به الأمم؛ لأنهم استغفروا من الشرك باتّباعهم الإسلام[(٢)] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان في هذه الأمة أمانان: رسول الله صلى الله عليه و سلم، والاستغفار، فذهب أمان، يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقي أمان، يعني: الاستغفار[(٣)].

٣. الاستغفار سبب للمتاع الحسن في الدنيا.

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠ - ١٢].

هذه الآيات نزلت في قوم نوح لما كذبوه زمانًا طويلًا فحبس الله عز وجل عنهم المطر، وأعقم أرحام نسائهم أربعين سنة، فرجعوا فيه إلى نوح، فقال نوح عليه السلام: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، أي: استغفروا ربكم من الشرك حتى يفتح عليكم أبواب نعمه، والغفار أبلغ من الغفور، وهو من الغافر، وأصل الغفر: الستر والتغطية، والمغفرة من الله ستره للذنوب وعفوه عنها بفضله ورحمته لا بتوبة العباد وطاعتهم[(٤)].

ولتحريك داعي الاستغفار قال الله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا﴾، فبين أنه دائم

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٦.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ٣٣٥.

(٣) الدر المنثور، السيوطي ٤/ ٥٨.

(٤) روح البيان، إسماعيل حقي ١٦/ ١٤٨.

المغفرة كثيرها للتائبين، ووعدهم أنهم إن آمنوا يرزقهم الله تعالى الخصب ويدفع عنهم ما هم فيه[1]، فالآيات تدل على أن الاشتغال بالطاعة سبب لانفتاح أبواب الخيرات، ويحكي لنا القرآن الكريم أن نبي الله هود عليه السلام قد تفطن لثمرة الاستغفار، وأنه من أسباب الرزق والعز والقوة؛ حيث قال عز وجل على لسانه: ﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].

والمعنى: كما يقول السعدي: «﴿ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ عما مضى منكم ﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فيما تستقبلونه، بالتوبة النصوح، والإنابة إلى الله تعالى، فإنكم إذا فعلتم ذلك ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا﴾ بكثرة الأمطار التي تخصب بها الأرض، ويكثر خيرها، ﴿وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ﴾ فإنهم كانوا من أقوى الناس، ولهذا قالوا: ﴿مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

فوعدهم أنهم إن آمنوا، زادهم قوة إلى قوتهم، أي: عزًا مضمومًا إلى عزكم أو مع عزكم»[2].

وكان أكثر دعاء نبينا صلي الله عليه وسلم: (اللّهمّ ربّنا آتنا في الدّنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النّار)[3].

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «قال ابن كثير: الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوي، من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، وولد بار، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما شملته عباراتهم، فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا، وأما الحسنة في الآخرة فأعلاها دخول الجنة، وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة»[4].

فإذا ما استغفر المسلم ولم يجد نتيجة، فليتذكر أنه ليس المراد بالاستغفار مجرد قول «استغفر الله» بل الرجوع عن الذنوب وتطهير الألسنة والقلوب[5].

وليعلم أن الخلل فيه هو لا في غيره، وأن استغفاره لم يتجاوز لسانه، وأن استغفاره دون وعي، ودون عمل يحتاج إلى استغفار.

قال تعالى حاكيًا قول شعيب عليه السلام

(١) روح المعاني، الألوسي ٢١/ ٣١٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٨٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، ٨/ ٨٣، رقم ٦٣٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار،٤/ ٢٠٧٠، رقم ٢٦٩٠.
(٤) فتح الباري ١٨/ ١٨٤.
(٥) إعراب القرآن وبيانه، الدرويش ١٠/ ٢٢٧

لقومه: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

قال السعدي في سرده لفوائد قصة شعيب: «ومنها: أن التائب من الذنب كما يسمح له عن ذنبه ويعفى عنه، فإن الله تعالى يحبه ويودّه ولا عبرة بقول من قال: (إن التائب إذا تاب فحسبه أن يغفر له ويعود عليه بالعفو، وأما عود الود والحب فإنه لا يعود)، فإن الله تعالى قال: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]»[(١)].

رابعًا: الدعاء:

لقد أمر الله تعالى عباده بأن يدعوه وحضهم على الدعاء وسماه عبادة، ووعدهم بأن يستجيب لهم، وأخبرهم بأنه قريب يجيب دعوة من دعاه، ويستحي أن يرد يدي عبده خاليتين.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: **(إن ربكم تبارك وتعالى حيي كريم، يستحيي من عبده إذا رفع يديه إليه أن يردهما صفرًا)**[(٢)].

وللدعاء أهمية كبرى، وثمرات جليلة، وفضائل عظيمة، وأسرار بديعة منها[(٣)]:

١. الدعاء طاعة لله وامتثال لأمره عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩].

٢. الداعي مطيع لله، مستجيب لأمره، السلامة من الكبر.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

قال الإمام الشوكاني في هذه الآية: «والآية الكريمة دلت على أن الدعاء من العبادة؛ فإنه سبحانه وتعالى أمر عباده أن يدعوه، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾. فأفاد ذلك أن الدعاء عبادة، وأن ترك دعاء الرب سبحانه استكبار»[(٤)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٣٨٩.

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب الصلاة، باب الدعاء، ٢/ ٧٨، رقم ١٤٨٨، والترمذي في أبواب الدعوات، ٥/ ٥٥٦، رقم ٣٥٥٦. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٦٢، رقم ١٧٥٧.

(٣) أهمية الدعاء وكيفيته في السنة النبوية، محمد بن إبراهيم الحمد ١-٢.

(٤) تحفة الذاكرين ص٢٨.

ويجمع خيري الدنيا والآخرة سؤال الله حسنة في الدنيا، وفي الآخرة حسنة، فهذا من جوامع الدّعاء؛ سأل قتادة أنسًا: أي دعوة كان يدعو بها النبيّ صلى الله عليه وسلم أكثر؟ قال: كان أكثر دعوة يدعو بها، يقول: (اللهمّ آتنا في الدنيا حسنةً، وفي الآخرة حسنةً، وقنا عذاب النار)، قال: وكان أنسٌ إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها، فإذا أراد أن يدعو بدعاءٍ دعا بها فيه[(١)].

قال ابن كثير: «جمعت هذه الدعوة كلّ خيرٍ في الدنيا، وصرفت كلّ شرٍّ، فإنّ الحسنة في الدنيا تشمل كلّ مطلوب دنيوي؛ من عافية، ودار رحبة، وزوجة حسنة، ورزق واسع، وعلم نافع، وعمل صالح، ومركب هنيء، وثناء جميل، إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسّرين، ولا منافاة بينها، فإنّها كلها مندرجةٌ في الحسنة في الدنيا»[(٢)].

وقال الله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٤- ١١٥].

والمعنى: «﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ﴾ أي: يا الله المطلوب لكل مهمّ، الجامع للكمالات، الذي ربانا بها، ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية، إظهارًا لغاية التضرع ومبالغةً في الاستدعاء، ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: التي فيها ما تعدنا من نعيم الجنة، ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: يكون يوم نزولها عيدًا نعظمه ونسرّ به، نحن الذين يدركونها. ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوّون في دينهم، (العيد) العائد، مشتق من (العود) لعوده في كل عام بالفرح والسرور، وكل ما عاد عليك في وقت فهو عيد، وقيل: العيد: ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه، كل يوم فيه جمع، ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ أي: على كمال قدرتك وصدق وعدك وتصديقك إياي، ﴿وَٱرْزُقْنَا﴾ أي: أعطنا ما سألناك، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: خير من يرزق، لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض»[(٣)].

ومن صور الدعاء: الاستعاذة بالله من المأثم والمغرم:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم ربنا آتنا في الدنيا حسنة، ٨/ ٨٣، رقم ٦٣٨٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار، ٤/ ٢٠٧٠، رقم ٢٦٩٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٥٨.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٢٩٧.

عن عائشة رضي الله عنها أنّ النّبيّ صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصّلاة: **(اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللّهمّ! إنّي أعوذ بك من المأثم والمغرم). قالت: فقال له قائلٌ: ما أكثر ما تستعيذ من المغرم يا رسول الله! فقال: (إنّ الرّجل إذا غرم، حدّث فكذب، ووعد فأخلف)**[1].

خامسًا: الإنفاق:

ومن صوره:

١-الإنفاق في سبيل الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

والمعنى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في فعل الخيرات التي أمر الله بها في كتابه وبيّنها رسوله صلّى الله عليه وسلّم، ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ أي: يعوضه عليكم إما في الدنيا وإما في الآخرة، ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ أي: إن الناس مجرد وسطاء، فإن رزق العباد لبعضهم بعضًا إنما هو بتيسير الله وتقديره، وليسوا برازقين على الحقيقة، وإنما الرازق الحقيقي هو الله تعالى[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: **(قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم أنفق أنفق عليك)**[3].

٢-الإنفاق على أهل العلم:

عن أنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال: **كان أخوان على عهد النّبيّ صلى الله عليه وسلم فكان أحدهما يأتي النّبيّ صلى الله عليه وسلم والآخر يحترف فشكا المحترف أخاه إلى النّبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: (لعلّك ترزق به)**[4].

٣-إكرام الضعفاء والإحسان إليهم:

عن مصعب بن سعدٍ قال: **رأى سعدٌ رضي الله عنه أنّ له فضلًا على من دونه، فقال النّبيّ صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلاّ بضعفائكم)**[5].

وفي الصحيح عن أبي هريرة أنّ النبي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الدعاء قبل السلام، رقم ٨٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة المحيا والممات وفتنة المسيح الدجال ومن المأثم والمغرم بين التشهد والتسليم، ١/ ٤١٢، رقم ٥٨٩.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ١٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النفقات، باب فضل النفقة على الأهل، ٧/ ٤٩٧، رقم ٥٣٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، ٢/ ٦٩٠، رقم ٩٩٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، ٤/ ١٥٢، رقم ٢٣٤٥. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ٦٣٦، رقم ٢٧٦٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، رقم ٢٨٩٦.

صلى الله عليه وسلم قال: (ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا)[1].

ويكون الخلف بعدة وجوه:

يخلفه في الدنيا، إذا رأى ذلك صلاحًا، فيعوّضه مثل ما أنفق وأزيد يخلفه في الآخرة بالأجر والثواب.

سادسًا: السعي في الأرض:

لقد أعلن القرآن الكريم دعوته الأكيدة على ضرورة العمل، وعلى الكسب، وبذل الجهد.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠].

إن المنهج الإسلامي يتسم بالتوازن بين العمل لمقتضيات الحياة في الأرض، وبين العمل في تهذيب النفس، والاتصال بالله تعالى وابتغاء رضوانه، والى ذلك يشير القرآن الكريم[2].

قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: ٧٧].

والمعنى: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند اللّه، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ولا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعًا، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعًا لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، وأحسن إلى عباد اللّه كما أحسن اللّه إليك بهذه الأموال، ولا تبغ الفساد في الأرض بالتكبر والعمل بمعاصي اللّه والاشتغال بالنعم عن المنعم، إنّ اللّه لا يحبّ المفسدين بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة[3].

قال تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

لما ذكر سبحانه أنه يسرها للمشي، ذكرهم بأنه سهلها لإخراج الخيرات والبركات فقال: ﴿وَكُلُوا۟﴾ ودل على أن الرزق فوق الكفاية بقوله: ﴿مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: الذي أودعه لكم فيها، وأمكنكم من إخراجه بضد ما تعرفون من أحوالكم، فإن الدفن في الأرض مما يفسد المدفون ويحيله إلى جوهرها كما يكون لمن قبرتموه فيها، ومع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قول الله تعالى: (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى)، رقم ١٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك رقم ١٠١٠.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٧/ ٢٠٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩٠٨.

ذلك فأنتم تدفنون الحب وغيره مما ينفعكم فيخرجه لكم سبحانه على أحسن ما تريدون ويخرج لكم من الأقوات والفواكه والأدهان والملابس ما تعلمون، وكذلك النفوس هي صعبة كالجبال وإن قدتها للخير انقادت لك، كما قيل: (هي النفس ما عودتها تتعود)، ولما كان التقدير للبعث على الشكر والتحذير من الكفر: واعبدوه جزاءً على إحسانه إليكم وتربيته لكم. فمنه مبدأ جميع ذلك، عطف عليه ما يدعو إلى الحياء من السيد والخجل من توبيخه عند لقائه فقال: ﴿وَإِلَيْهِ﴾ أي: وحده ﴿النُّشُورُ﴾ وهو إخراج جميع الحيوانات التي أكلتها الأرض وأفسدتها، يخرجها في الوقت الذي يريده[1].

والكد والعمل -طلبًا للرزق- من سنن الأنبياء، قال عليه الصلاة والسلام: (**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده**)[2].

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «**لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضةً**»[3].

وخلاصة القول: أن الحياة جهاد وكفاح، فليس طلب المعيشة بالتمني ولكن بالعمل، وعجز المرء وكسله سبب البلاء والتأخير، وقد تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم من الكسل فقال: (**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والجبن والبخل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال**)[4].

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تكسل**)[5].

فسبحان من أخرج الناس من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، وجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وأمرهم باستعمالها، وهداهم إلى أسباب الرزق، ويسرها لمن طلبها.

ومن آداب السعي لطلب الرزق وزيادته وحصول البركة فيه:

التبكير في طلب الرزق:

عن صخرٍ الغامديّ رضي الله عنه عن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: (**اللّهمّ بارك لأمّتي في بكورها**)، وكان إذا بعث سريّةً أو جيشًا بعثهم من أوّل النّهار، وكان صخرٌ

(١) نظم الدرر، البقاعي ٢٠/ ٢٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كسب الرجل وعمله، رقم ٢٠٧٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب كراهة المسألة للناس، رقم ١٠٤٢.

(٣) تاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي ص٢٠٢.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من غلبة الرجال، رقم ٦٣٦٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله، وتفويض المقادير لله، ٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

رجلًا تاجرًا، وكان يبعث تجارته من أوّل النّهار، فأثرى وكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضع ماله[(١)].

قال الإمام الشوكاني: «وحديث صخر المذكور فيه مشروعية التبكير من غير تقييد بيوم مخصوص سواءً كان ذلك في سفر جهاد أو حج أو تجارة أو في الخروج إلى عمل من الأعمال ولو في الحضر»[(٢)].

سابعًا: صلة الرحم:

إن من أعظم الطاعات التي تزيد في الرزق هي صلة الرحم؛ كما روي عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(من سرّه أن يبسط له في رزقه، أو ينسأ له في أثره، فليصل رحمه)**[(٣)].

ومعنى قوله: **(وينسأ له في أثره)** أي: يبقى ذكره الطيب وثناؤه الجميل مذكورًا على الألسنة، فكأنه لم يمت، والعرب تقول: «الثناء يضارع الخلود»، كما يسمى الذم موتًا، وقال سابق البربري: موت التقيّ حياةٌ لا انقطاع لها، قد مات قومٌ وهم في النّاس أحياء[(٤)].

يعنى: بسوء أفعالهم وقبح ذكرهم، وفي الحديث السابق: إباحة اختيار الغنى على الفقر، فإن قيل: هذا الحديث يعارض قوله عليه السلام: **(يجمع خلق أحدكم في بطن أمّه أربعين يومًا مضغة...)** وفيه: **(فيكتب رزقه وأجله)**[(٥)].

قال المهلب: اختلف العلماء في وجه الجمع بينهما على قولين:

القول الأول: معنى البسط في رزقه: البركة؛ لأن صلته أقاربه صدقة، والصدقة تربي المال وتزيد فيه، فينمو بها ويزكو.

والقول الثاني: أنه يجوز أن يكتب في بطن أمه أنه إن وصل رحمه فإن رزقه وأجله كذا، وإن لم يصل رحمه فكذا؛ بدلالة قوله تعالى في قصة نوح: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٣- ٤].

يريد: أجلًا قد قضى به لكم إن أطعتم،

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البيوع، باب التبكير في التجارة، ٣/ ٥١٧، رقم ١٢١٢، وابن ماجه في سننه، كتاب التجارات، باب ما البركة في البكور، ٢/ ٧٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٨، رقم ١٣٠٠.

(٢) نيل الأوطار، الشوكاني ٧/ ٢٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم، ١٠/ ٤٢٩، رقم ٥٩٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم، ٩/ ٣٦٨٧، رقم ٤٦٠٤.

(٤) زهر الأكم في الأمثال والحكم، اليوسي ١/ ٧٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٨، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، رقم ٢٦٤٣.

يؤخّركم إليه؛ لأن أجل الله إذا جاء في حال معصيتكم لا يؤخّر عنكم[1].

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]؛ وهو الهلاك على الكفر، ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ فهذا كله من المكتوب في بطن أمه؛ أي الأجلين استحقّ لا يؤخر عنه، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩].

وقد روي عن عمر بن الخطاب ما هو تفسيرٌ لهذه الآية؛ كان يقول: «اللهم إن كنت كتبتني عندك شقيًّا، فامحني واكتبني سعيدًا؛ فإنك تقول: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩]».

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، ابن بطال ٦/ ٢٠٦.

علاقة المعاصي بالرزق

لا شك أن المعاصي جميعًا سواءً كانت في حق الله أو في حقوق العباد من أسباب ضيق الرزق ونكد العيش، وعن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يردّ القدر إلاّ الدّعاء، وإنّ الرجل ليحرم الرّزق بالذنب يصيبه)[2].

حتى وإن أنعم الله سبحانه على العاصي ببعض النعم استدراجًا له فإنها لا تأتيه إلا منغصةً منزوعة البركة بسبب ذنوبه ومخالفته.

يقول ابن القيم في كتابه الجواب الكافي: «ومن عقوباتها -المعاصي-: أنها تمحق بركة العمر، وبركة الرزق، وبركة العلم، وبركة العمل، وبركة الطاعة، وبالجملة أنها تمحق بركة الدين والدنيا، فلا تجد أقل بركة في عمره ودينه ودنياه ممن عصى الله، وما محيت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق»[3].

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم ٢١٣٩، وابن ماجه في سننه، المقدمة، باب العقوبات، ٢/ ١٣٣٤، رقم ٤٠٢٢.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ١٤٥٢.

(٣) الجواب الكافي ص ٥٨.

﴿وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أي: لوسّعنا عليهم الخير، ويسّرناه لهم من كل جانب»[١].

قال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن: ١٦].

وفي الحديث: (إنّ روح القدس نفث في روعي أنّ نفسًا لن تموت حتّى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطّلب، ولا يحملنّ أحدكم استبطاء الرّزق أن يطلبه بمعصية الله، فإنّ الله تعالى لا ينال ما عنده إلاّ بطاعته)[٢].

وإن الله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

والمعنى: لئن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنّكم نعمةً إلى نعمة؛ تفضّلًا منّي، وقيل: لأزيدنكم من طاعتي، وقيل: لأزيدنّكم من الثواب[٣].

المعاصي تمحق الأرزاق:

قد ينخدع الناس بزيادة خيرات الدنيا مع معاصيهم؛ فيظنوا ذلك بسطًا في الرزق فيزدادوا غيًّا وإعراضًا، ولكن اقتران المعاصي مع فيض النعم يعني الإمهال من الله تعالى لحصول التوبة، فإذا تعدى ذلك حدود الإياب والتوبة؛ فإنه يكون الاستدراج الذي يليه الهلاك والعذاب.

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدة مواضع، ولعل من أوضحها دلالة ما جاء في سورة الكهف -في قصة صاحب الجنتين- حيث يقول تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٣/ ٢٥٣.
(٢) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء، ١٠/ ٢٧. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٢٠، رقم ٢٠٨٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٩٦.

﴿خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ [الكهف: ٣٢-٤٤].

تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلًا للقيم الزائلة والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله، وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى القوة الكبرى التي تسيطر على أقدار الناس والحياة، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبةً لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره[(١)].

إن الوقوع في المعاصي والآثام يؤدي إلى محق الرزق وإهلاكه، وتهلك أصحابها ذلًا وضيقًا وعذابًا في الدنيا والآخرة. إن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم قيام الليل، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقًا كان قد هيئ له.

فانظر رعاك الله إلى قول الله عز وجل: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ١٩ - ٢٠].

قال ابن كثير: «عوقبوا بنقيض قصدهم، فأذهب الله ما بأيديهم بالكلية: رأس المال، الربح، والصّدقة، فلم يبق لهم شيءٌ، قد حرموا خير جنتهم بذنبهم»[(٢)].

فما محقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق، وليست سعة الرزق والعمل بكثرته، ولا طول العمر بكثرة الشهور والأعوام، ولكن سعة الرزق وطول العمر بالبركة فيه، ومعلوم أن عمر العبد: مدة حياته، ولا حياة لمن أعرض عن الله واشتغل بغيره، بل حياة البهائم خير من حياته؛ فإن حياة الإنسان بحياة قلبه وروحه، ولا حياة لقلبه إلا بمعرفة فاطره، ومحبّته، وعبادته وحده، والإنابة إليه، والطمأنينة بذكره، والأنس بقربه، ومن فقد هذه الحياة فقد الخير كله[(٣)].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٩٦.

(٣) الجواب الكافي، ابن القيم، ص٨٤.

الرزق في الآخرة

لقد شاءت حكمة الله تعالى أن يكون رزقه لعباده في الدنيا محدودًا، وعلى دفعات.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

ولو بسط الله الرزق لعباده، فوسّعه وكثّره عندهم لبغوا؛ فتجاوزوا الحد الذي حدّه الله لهم إلى غير الذي حده لهم في بلاده بركوبهم في الأرض ما حظره عليهم، ولكنه ينزّل رزقهم بقدر؛ لكفايتهم الذي يشاء منه، فالله يعلم أن عباده -هؤلاء البشر- لا يطيقون الغنى إلا بقدر.

وفي قوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء: ١٨-١٩].

وهكذا الحال: ترى كثيرًا من هؤلاء يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضًا منه، وكثيرًا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة، وأمّا المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة، فما يبالي: أوتي حظًا من الدنيا أو لم يؤت، فإن أوتي فيها وإلا فربما كان الفقر خيرًا له وأعون على مراده[(١)].

ومن عظيم رزقه تعالى في الآخرة الجنة: الجنة هي الجزاء العظيم، والثواب الجزيل، الذي أعده الله لأوليائه وأهل طاعته، وهي نعيم كامل لا يشوبه نقص، ولا يعكر صفوه كدر، وما حدثنا الله به عنها، وما أخبرنا به الرسول صلى الله عليه وسلم يحير العقل ويذهله، لأن تصور عظمة ذلك النعيم يعجز العقل عن إدراكه واستيعابه، وهي دار النعيم الأبدي بعد دار التعب والنصب والعمل، ولا يمكن بحال مقارنة نعيمها بنعيم الدنيا وإن اشتركا في الاسم، إذ بينهما فرق أعظم مما بين السماء والأرض، سواءً في المساكن، أو النساء، أو الطعام، أو المراكب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الجنة شيء يشبه ما في الدنيا إلا الأسماء[(٢)].

ونعيم الجنة يفوق الوصف، ويقصر دونه الخيال، ليس لنعيمها نظير فيما يعلمه أهل الدنيا، ومهما ترقى الناس في دنياهم، فسيبقى ما يبلغونه أمرًا هينًا بالنسبة لنعيم الآخرة، فالجنة: نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد وفاكهة نضيجة، وزوجة حسناء جميلة، وحلل كثيرة، في

---

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٦.
(٢) أخرجه ابن عساكر في تاريخه، رقم ١١٩٤. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٤١٠.

مقام أبدًا، في حبرة ونضرة، في دور عالية سليمة بهية.

ومن أعظم فضل الله ورزقه وعطائه في الآخرة: النظر إلى وجه الكريم يوم القيامة؛ قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

روى صهيب عن النبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم قال: (إذا دخل أهل الجنّة الجنّة يقول اللّه تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم. فيقولون: ألم تبيّض وجوهنا، ألم تدخلنا الجنّة وتنجّنا من النّار. قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النّظر إلى ربّهم عزّ وجلّ)[1].

وذكر القرآن أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة في المحشر، وفي الجنة.

قال تعالى عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥].

فدل على المؤمنين يرونه يوم القيامة، و قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥].

وفسّر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم الحسنى: بأنها الجنّة، وفسّر الزّيادة بأنها: النظر إلى وجه الله الكريم، وهو ثابتٌ في صحيح مسلم[2].

وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

إن مما لا شك أن في الجنة فوق ما يخطر بالبال، أو يدور في الخيال، مما لا يوجد مثله في الدنيا، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قال الله: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشرٍ، اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، ولموضع سوط أحدكم في الجنّة خيرٌ من الدّنيا وما فيها، فاقرءوا إن شئتم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾، وإنّ في الجنّة لشجرةً يسير الرّاكب في ظلّها مائة عام فما يقطعها، اقرءوا إن شئتم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾)[3].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم كان يومًا يحدّث وعنده رجلٌ من أهل البادية، أنّ رجلًا من أهل الجنّة استأذن ربّه في الزّرع، فقال له: ألست فيما شئت؟ قال: بلى، ولكنّي أحبّ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، ١/ ٦٣، رقم ١٨١.

(٢) أخرج مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى رقم ١٨١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٠٧٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، رقم ٢٨٢٤.

أن أزرع، قال: فبذر فبادر الطّرف نباته واستواؤه واستحصاده فكان أمثال الجبال، فيقول الله تعالى: دونك يا ابن آدم، فإنّه لا يشبعك شيءٌ، فقال الأعرابيّ: والله لا تجده إلاّ قرشيًّا أو أنصاريًّا فإنّهم أصحاب زرعٍ، وأمّا نحن فلسنا بأصحاب زرعٍ، فضحكَ النبيّ صلى الله عليه وسلم)[(١)].

وهي ليست جنة واحدة، بل جنان متعددة.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من آمن باللّه وبرسوله، وأقام الصّلاة، وصام رمضان كان حقًّا على اللّه، أن يدخله الجنّة جاهد في سبيل اللّه، أو جلس في أرضه الّتي ولد فيها)، فقالوا: يا رسول اللّه، أفلا نبشّر النّاس، قال: (إنّ في الجنّة مائة درجةٍ أعدّها اللّه للمجاهدين في سبيل اللّه، ما بين الدّرجتين كما بين السّماء والأرض، فإذا سألتم اللّه فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنّة، وأعلى الجنّة أراه فوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة)[(٢)] وثبت في الصحيح أيضًا عن أنس أنّ أمّ حارثة أتت النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، وقد هلك حارثة يوم بدرٍ، أصابه سهمٌ غربٌ، فقتله، فقالت: يا رسول اللّه، قد علمت موضع حارثة من قلبي، فإن كان في الجنّة، لم أبك عليه، وإلا سوف ترى ما أصنع، فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم: (هبلت أوجنّةٌ واحدةٌ هي؟ إنّما هي جنانٌ كثيرةٌ، وإنّه لفي الفردوس الأعلى)[(٣)].

وجاء في مساكنها: ما في سنن الترمذي أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الجنة وبنائها فقال: (الجنّة بناؤها لبنةٌ من فضّةٍ، ولبنةٌ من ذهبٍ، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللّؤلؤ والياقوت، وتربتها الزّعفران، من دخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم)[(٤)].

وأما غرف الجنة وخيامها، فذكر القرآن أن لأهل الجنة مساكن وبيوتًا وغرفًا مبنيةً بعضها فوق بعض.

قال تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٌ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٌ مَّبۡنِيَّةٌ﴾ [الزمر: ٢٠].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المزارعة، باب كراء الأرض بالذهب والفضة، ٣/ ١٠٨، رقم ٢٣٤٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، ٤/ ١٦، رقم ٢٧٩٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب فضل من شهد بدرًا، ٥/ ٧٧، رقم ٣٩٨٢، عن أنسٍ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها، ٤/ ٥٨٠، ٢٥٢٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣١١٦.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [الصف: ١٢].

وقال تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّ في الجنّة غرفةً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، أعدّها اللّه لمن أطعم الطّعام، وألان الكلام، وتابع الصّيام، وصلّى والنّاس نيامٌ)[(١)].

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

وفي الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ للمؤمن في الجنّة لخيمةً من لؤلؤةٍ واحدةٍ مجوّفةٍ طولها ستّون ميلًا، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضًا)[(٢)].

وهذه الخيام غير الغرف والقصور، بل هي خيام منصوبة في البساتين، وعلى شواطئ الأنهار.

وأما طعام أهل الجنة وشرابهم، فأشجار الجنة وثمارها، وقطوفها الدانية المذللة تذليلًا، واختيار أهل الجنة من ثمارها ما يريدون ويشتهون، وفي الجنة ما تشتهيه الأنفس من المآكل والمشارب.

قال تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الواقعة: ٢٠-٢١].

وقال تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقد أباح الله لهم أن يتناولوا من خيراتها، وألوان طعامها وشرابها ما يشتهون.

قال تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٧، ٥٣٩، رقم ٢٢٩٠٥.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢١٢٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة الرحمن، باب ٢، رقم ٤٨٧٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب صفة خيام الجنة، ٤/ ٢١٨٢، رقم ٢٨٣٨.

﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

وقد يتبادر إلى الذهن: أن الطعام والشراب في الجنة ينتج عنه ما ينتج عن طعام أهل الدنيا وشرابهم من البول والغائط والمخاط والبزاق ونحو ذلك، والأمر ليس كذلك، فالجنة دار خالصة من الأذى.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ أوّل زمرةٍ يدخلون الجنّة على صورة القمر ليلة البدر، ثمّ الّذين يلونهم على أشدّ كوكبٍ دريٍّ في السّماء إضاءةً، لا يبولون ولا يتغوّطون، ولا يتفلون ولا يمتخطون، أمشاطهم الذّهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوّة -الألنجوج، عود الطّيب- وأزواجهم الحور العين، على خلق رجلٍ واحدٍ، على صورة أبيهم آدم، ستّون ذراعًا في السّماء)[1].

وأهل الجنة خالدون فيها، ونعيمهم دائم.

ففي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ في الجنّة لسوقًا يأتونها كلّ جمعةٍ فتهبّ ريح الشّمال فتحثو في وجوههم وثيابهم فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا)[2].

قال النووي: «المراد بالسوق: مجمع لهم يجتمعون كما يجتمع الناس في الدنيا في السوق، ومعنى يأتونها كل جمعة: أي في مقدار كل جمعة أي أسبوع، وليس هناك حقيقة أسبوع؟ لفقد الشمس والليل والنهار. وقال القاضي: وخص ريح الجنة بالشمال؛ لأنها ريح المطر عند العرب، كانت تهب من جهة الشام، وبها يأتي سحاب المطر، وكانوا يرجون السحابة الشامية، وجاءت في الأحاديث تسمية هذه»[3].

قال صلى الله عليه وسلم: (ينادي منادٍ: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بد الخلق، باب خلق آدم، ٤/ ١٣٢، رقم ٣٣٢٧، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة، ٤/ ٢١٧٨، رقم ٢٨٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمه، ٤/ ٢١٧٨، رقم ٢٨٣٣.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ١٧/ ١٧٠.

﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣])[1].

وأما لباس أهل الجنة وحليهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾ [الكهف: ٣٠-٣١].

يقول السعدي: «أولئك الموصوفون بالإيمان والعمل الصالح، لهم الجنات العاليات التي قد كثرت أشجارها، فأجنت من فيها، وكثرت أنهارها، فصارت تجري من تحت تلك الأشجار الأنيقة، والمنازل الرفيعة، وحليتهم فيها الذهب، ولباسهم فيها الحرير الأخضر من السندس، وهو الغليظ من الديباج، والإستبرق، وهو ما رق منه، متكئين فيها على الأرائك، وهي السرر المزينة، المجملة بالثياب الفاخرة فإنها لا تسمى أريكة حتى تكون كذلك، وفي اتكائهم على الأرائك، ما يدل على كمال الراحة، وزوال النصب والتعب، وكون الخدم يسعون عليهم بما يشتهون.

وتمام ذلك الخلود الدائم والإقامة الأبدية، فهذه الدار الجليلة ﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ للعاملين ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ يرتفقون بها، ويتمتعون بما فيها، مما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، من الحبرة والسرور، والفرح الدائم، واللذات المتواترة، والنعم المتوافرة، وأي مرتفق أحسن من دار، أدنى أهلها، يسير في ملكه ونعيمه وقصوره وبساتينه ألفي سنة، ولا يرى فوق ما هو فيه من النعيم، قد أعطى جميع أمانيه ومطالبه، وزيد من المطالب، ما قصرت عنه الأماني، ومع ذلك، فنعيمهم على الدوام متزايد في أوصافه وحسنه، فنسأل الله الكريم، أن لا يحرمنا خير ما عنده من الإحسان، بشر ما عندنا من التقصير والعصيان، ودلت الآية الكريمة وما أشبهها، على أن الحلية، عامة للذكور والإناث، كما ورد في الأحاديث الصحيحة؛ لأنه أطلقها في قوله ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ وكذلك الحرير ونحوه»[2].

وثياب أهل الجنة وحليهم لا تبلى ولا تفنى، فعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(من يدخل الجنّة ينعم لا يبأس، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه)**[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: (ونودوا أن تلكم الجنة)، رقم ٢٨٣٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٤٧٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، رقم ٢٨٣٦.

وأما غلمان أهل الجنة، فقال تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة: ١٧-١٨].

قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩].

قال ابن عاشور: «وأحسن من يتّخذ للخدمة الولدان؛ لأنهم أخفّ حركةٍ وأسرع مشيًا، ولأنّ المخدوم لا يتحرّج إذا أمرهم أو نهاهم، ووصفوا بأنّهم مخلّدون للاحتراس ممّا قد يوهمه اشتقاق ولدانٌ من أنّهم يشبّون ويكتهلون، أي: لا تتغيّر صفاتهم، فهم ولدانٌ دومًا، وإلّا فإنّ خلود الذّوات في الجنّة معلومٌ فما كان ذكره إلّا لأنّه تخليدٌ خاصٌّ، وشبّهوا باللّؤلؤ المنثور تشبيهًا مقيّدًا فيه المشبّه بحالٍ خاصٍّ لأنّهم شبّهوا به في حسن المنظر مع التّفرّق»[(١)].

ويزوج الله المؤمنين في الجنة بزوجات جميلات غير زوجاتهم اللواتي في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤].

والحور: جمع حوراء، وهي التي يكون بياض عينها شديد البياض، وسواده شديد السواد. والعين: جمع عيناء، والعيناء: واسعة العين، وقد ورد ذكر الحور منكّرة في القرآن الكريم في أربعة مواضع:

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الدخان: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].

وقد وصف الله أزواج أهل الجنة، فقال سبحانه: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥].

فهن مطهرات الأخلاق، مطهرات الخلق، مطهرات اللسان، مطهرات الأبصار، فأخلاقهن أنهن عرب متحببات إلى أزواجهن بالخلق الحسن، وحسن التبعل، والأدب القولي والفعلي، ومطهر خلقهن من الحيض والنفاس والمني، والبول والغائط، والمخاط والبصاق، والرائحة الكريهة، ومطهرات الخلق أيضا، بكمال الجمال، فليس فيهن عيب، ولا دمامة خلق، بل هن خيرات حسان، مطهرات اللسان والطرف، قاصرات طرفهن على أزواجهن، وقاصرات ألسنتهن عن كل كلام قبيح[(٢)].

الفرق بين رزق الدنيا ورزق الآخرة:

هناك عدة فروق بينهما، منها:

- رزق الدنيا قليل ومنقطع وزائل، بينما رزق الآخرة كثير ودائم وخالد.

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ٣٩٧.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦.

- رزق الدنيا يحصل لصاحبه بتكلف، ومشقة، رزق الآخرة بلا تكلف ولا مشقة.
- رزق الدنيا مشوب بالهموم والغموم والمكاره، أما رزق الآخرة خالص من الأنكاد.
- رزق الدنيا يعتريه النقص وتشوبه الآفات، بينما رزق الآخرة في زيادة واستمرار.
- رزق الدنيا ليس مقياسًا للمنزلة عند الله بخلاف الرزق في الآخر.

موضوعات ذات صلة

الإنفاق، البخل، التوكل، الزكاة، السؤال، السير، العطاء، المن





عناصر الموضوع

مفهوم الرضا	٢١٤
الرضا في الاستعمال القرآني	٢١٥
الالفاظ ذات الصلة	٢١٦
رضا الله تعالى غاية وجزاء	٢١٨
الرضا المثبت والمنفي في حق الله	٢٢٢
رضا المخلوقين بين المحمود والمذموم	٢٣٧
الرضا في المعاملات	٢٤٧

مفهوم الرضا

أولًا: المعنى اللغوي:

تدل مادة (ر ض و) على خلاف السّخط، يقال: رضي يرضى رضًا، والرضوان هو الرضى الكثير[1].

فالرضا ضد السخط، وفي الحديث: (اللهمّ إنّي أعوذ برضاك من سخطك)[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال المناويّ: «الرّضا طيب نفسيّ للإنسان بما يصيبه أو يفوته مع عدم التّغيّر»[3].

وقيل: الرضا: سرور القلب بالقضاء، وعدم الجزع[4].

فالرضا إذًا يدور حول قبول النفس للأمر، وعدم التسخط منه، وهو بذلك لا يختلف عن معناه اللغوي.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٢٣، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٥٧، الكليات، الكفوي ص ٤٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب القنوت في الوتر، رقم ١٤٢٧، ٢/ ٦٤، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب دعاء الوتر، ٣٥٦٦، ٥/ ٥٦١، والنسائي في سننه، كتاب التطبيق، باب نصب القدمين في السجود، رقم ١١٠٠، ٢/ ٢١٠، وابن ماجه في سننه، كتاب الدعاء باب ما تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٨٤١، ٢/ ١٢٦٢.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث حماد بن سلمة».
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٢٨١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ١١١، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٧٨.



الرضا في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رضو) الدالة على (الرضا) في القرآن الكريم (٧٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٣	﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩]
الفعل المضارع	٢٣	﴿يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٩٦﴾ [التوبة: ٩٦]
اسم الفاعل	٤	﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٖ رَّاضِيَةٖ ٢١﴾ [الحاقة: ٢١]
اسم المفعول	٢	﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [مريم: ٥٥]
صيغة المبالغة	١	﴿وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦﴾ [مريم: ٦]
مصدر	٢٠	﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٢]

وجاء الرضا في القرآن الكريم بمعناه اللغوي، الذي هو ضد السخط[٢].

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٢٨﴾ [محمد: ٢٨] أي: وكرهوا ما يرضيه عنهم[٣].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٢٧٦.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٠٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٢٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٢١.

الألفاظ ذات الصلة

١ التسليم:

التسليم لغة:

الانقياد وبذل الرضا بالحكم[١].

التسليم اصطلاحًا:

الاستسلام والإذعان والانقياد لأمر الله تعالى، وترك الاعتراض فيما لا يلائم، وقيل: التسليم: استقبال القضاء بالرضا، وقيل: التسليم، هو الثبوت عند نزول البلاء من تغير في الظاهر والباطن[٢].

الصلة بين الرضا والتسليم:

التسليم انقيادٌ لأوامر الله تعالى وأحكامه، والإذعان لما يصدر من الحكمة الالهية، وما يصيبه من الحوادث والنوائب ظاهرًا وباطنًا، وقبول كل ذلك من غير إنكار بالقلب واللسان، وهو مرتبة فوق الرضا[٣].

٢ المحبة:

المحبة لغةً:

عبارة عن ميل الطّبع في الشّيء الملذ، فإن تأكّد الميل، وكان قويًّا؛ يسمى عشقًا، وأول مراتب الحبّ: الهوى، وهو ميل النّفس، وقد يطلق ويراد به: نفس المحبوب[٤].

قال الفيروز آبادي: «ولا يحدّ المحبّة بحدّ أوضح منها، والحدود لا تزيدها إلاّ خفاءً وجفاءً فحدّها وجودها، ولا توصف المحبّة بوصف أظهر من المحبّة»[٥].

المحبة اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي، الذي هو ميل الإنسان للشيء وغلبته على قلبه[٦].

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٢٩٠.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٥٧، مقاليد العلوم، السيوطي ص ٢٠٩، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٩٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٦.
(٤) الكليات، الكفوي ١/ ٣٩٨.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٢/ ٤١٦.
(٦) تاج العروس، الزّبيدي ٢/ ٢١٤.

الصلة بين الرضا والمحبة:

قيل: هما نظيران، وإنما يظهر الفرق بضديهما، فالمحبة ضدها البغض، والرضا ضده السخط، قيل: وهو يرجع إلى الإرادة، فإذا قيل: (رضي عنه)، فكأنه أراد تعظيمه وثوابه، وإذا قيل: (رضي عليه) فكأنه أراد ذلك، والسخط إرادة الانتقام[1].

٣ اليقين:

اليقين لغة:

هو العلم و زوال الشك. يقال منه: يقنت الأمر يقنًا، وأيقنت، واستيقنت، وتيقّنت، كلّه بمعنًى. وأنا على يقين منه. وإنّما صارت الياء واوًا في قولك: موقنٌ؛ للضمة قبلها. وإذا صغّرته رددته إلى الأصل وقلت: ميقنٌ. وربّما عبّروا عن الظنّ باليقين، وباليقين عن الظنّ[2].

اليقين اصطلاحًا:

من صفة العلم فوق المعرفة والدّراية وأخواتها، يقال: علم يقينٍ، ولا يقال: معرفة يقينٍ، وهو سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به، مع ثبات الحكم[3].

الصلة بين الرضا واليقين:

اليقين هو سكون القلب إلى خبر المخبر ووثوقه به. أما الرضا فهو سرور القلب بمرّ القضاء، وارتفاع الجزع في أيّ حكم كان، وربما كان الرضا ثمرة لليقين.

٤ السخط:

السخط لغة:

الكراهية للشّيء، وعدم الرّضا به[4].

السخط اصطلاحًا:

قيل: الغضب الشديد المقتضي للعقوبة[5].

الصلة بين الرضا والسخط:

إن العلاقة بين الرضا والسخط علاقة تضاد.

(١) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٧.
(٢) الصحاح، الجوهري ٢/ ٣٠٠.
(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٩٢، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٣٩٩.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٤٠٢.

رضا الله تعالى غاية وجزاء

لقد ذكر القرآن الكريم أن رضا الله تعالى هو أكبر الجزاء وأعظم النعيم في الجنة، وهو الغاية التي ليس وراءها غاية، وسوف نذكر ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: رضا الله غاية:

ذكر القرآن الكريم أن العبادات والصدقات والجهاد وغيرها من الأعمال يجب أن يبتغي بها العبد رضا الله تعالى وحده.

قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

إن رضوان الله تعالى هو الغاية الذي ليس فوقها غاية لكل إنسان، وقد ذكر القرآن الكريم أن الناس تجاه الدين مراتب، أقلها من يعجبك قوله في الحياة الدنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤].

أي: يضمر الكيد ويفسد على الناس ما فيه نفع الجميع، وهو خيرات الأرض، وأعلاها من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]؛ لأن النفس أغلى ما يبذل، فهذا القسم هو الذي تمحض فعله للخير حتى بلغ غاية ذلك، وهو تعريض نفسه التي هي أنفس الأشياء عليه للهلاك؛ لأجل تحصيل ما يرضي الله تعالى، وإنما رضا الله تعالى بفعل الناس للخير الذي أمرهم به، ويشري معناه: يبيع، كما أنَّ يشتري بمعنى: يبتاع، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٤١].

واستعمل (يشري) هنا في البذل مجازًا، والمعنى: ومن الناس من يبذل نفسه للهلاك؛ ابتغاء مرضاة الله، أي: هلاكًا في نصر الدين، وهذا أعلى درجات الإيمان؛ لأن النفس أغلى ما عند الإنسان، وهذا البيع لا يتحقق إلا إذا جاد المؤمن بنفسه وماله في سبيل الله إذا دعت الحاجة إلى ذلك، كجهاد أعداء الأمة عند الاعتداء عليها، أو الاستيلاء

على شيء من أرضها، فمن قدر على الجهاد بنفسه وجب عليه ذلك، ومن قدر عليه بماله وجب عليه ذلك، وإن قدر عليهما معًا وجب عليه، فإن قصّر في شيء من ذلك فقد آثر نفسه على مرضاة الله وخرج من زمرة المؤمنين الذين باعوا أنفسهم لله، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١].

وقد سمى الله تعالى ذلك تجارة، فقال جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١][1].

أما قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

فمن رأفته أنه جعل النعيم الدائم جزاء على العمل القليل المنقطع، ومن رأفته جوز لهم كلمة الكفر؛ إبقاء على النفس، ومن رأفته أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها، ومن رأفته ورحمته أن المصر على الكفر مائة سنة إذا تاب -ولو في لحظة- أسقط كل ذلك العقاب وأعطاه الثواب الدائم، ومن رأفته أن النفس له والمال، ثم إنه يشتري ملكه بملكه فضلًا منه ورحمة وإحسانًا[2].

وقد ذكرت الروايات سبب نزول هذه الآية: وأنها نزلت في صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه، وذلك أنه لما أسلم بمكة، وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله، وعرضوا عليه إن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل، فتخلص منهم، وأعطاهم ماله، فأنزل الله فيه هذه الآية، فتلقاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة إلى طرف الحرّة، فقالوا له: ربح البيع، فقال: وأنتم، فلا أخسر الله تجارتكم، وما ذاك؟ فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية[3].

وقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

والمعنى: أن هذه الأقسام الثلاثة من الطاعات وإن كانت في غاية الشرف والجلالة إلا أن الإنسان إنما ينتفع بها إذا أتى بها لوجه الله ولطلب مرضاته، فأما إذا أتى بها للرياء والسمعة انقلبت القضية فصارت

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٥١، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٣٩، لطائف الإشارات، القشيري ١/ ١٧١، أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ١٣٣، تفسير المراغي ٢/ ١١٢، ١١٤، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ٢٧٢، في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٢٠٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٣٥٠.

(٣) انظر: العجاب في بيان الأسباب، ابن حجر ١/ ٥٢٦.

من أعظم المفاسد[1].

وعطف ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

في مرضاة الله على الآية في قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ؛ لزيادة بيان ما بين المرتبتين من البون، وتأكيدًا للثناء على المنفقين بإخلاص، وتفننًا في التمثيل؛ فإنه قد مثله فيما سلف بحبة أنبتت سبع سنابل، ومثل الذي ينفق ماله ابتغاء مرضات الله كمثل جنة بربوة؛ لتحصل السرعة بتخيل مضاعفة الثواب وحسن الجزاء وبهجته وجماله، فمثله بما هو أعجب في حسن التخيل، فإن الأمثال تبهج السامع كلما كانت أكثر تركيبًا وضمنت الهيأة المشبه بها أحوالًا حسنة تكسبها حسنًا؛ ليسري ذلك التحسين إلى المشبه، وهذا من جملة مقاصد التشبيه[2].

وقد ذكرت الآيات أنه يجب على المؤمن أن يبتغي بعمله مرضات الله تعالى في كل أفعاله وأقواله؛ من صلاة وصيام وصدقة وجهاد في سبيل الله وإصلاح ذات البين، وغيرها من أفعال الخير، وفيها تحذير من الرياء والنفاق، فيجب على كل مؤمن أن يكون رضا الله غايته في كل عمل يعمله؛ فإن ابتغاء مرضاته سبحانه هو الإخلاص، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (إنما الأعمال بالنيات)[3][4].

ثانيًا: رضا الله جزاء:

ذكر القرآن الكريم الرضا جزاء في قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

بينت هذه الآيات أن جزاء المؤمنين على صدقهم وإيمانهم، وأعمالهم الصالحة،

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.

(٢) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ١٦٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٥٠، تفسير المراغي ٥/ ١٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدأ الوحي، رقم ١، ١/ ٦.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.

ومجاهدة أعدائه، وعدم ولايتهم، بأن رضي الله عنهم فأرضاهم، فرضوا عنه، وإنما حصل لهم هذا بعد الرضا به ربًّا، وبمحمد نبيًّا، وبالإسلام دينًا، فإن منزلة الرضا أشرف المنازل بعد النبوة، وأكبر الأجر وأعظم الجزاء الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين، فمن رضي عن اللّه فقد رضي اللّه عنه؛ لقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

فجعل أحد الرضاءين مقرونًا بالآخر، فمن بلغ هذه المنازل فقد عرف خساسة الدنيا، واطلع على جنة المأوى، وخطب مودة الملأ الأعلى، وحظي بتحيتهم المعنية بقوله تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣- ٢٤].

ورضوان أكرم الأكرمين يستلزم رضا من رضي هو عنه؛ لأنه يعطيه أضعاف ما يستحق، وفوق ما يؤمل ويرجو، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

ورضوانه تعالى فوق كل شيء، وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن، ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾، وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله؛ لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت[1].

وروي من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة؟ فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك، قالوا: يا رب، وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبدًا)**[2].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٤٤، الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٦٨، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥١١، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٢٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة، رقم ٦٥٤٩، ٨/ ١١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان على أهل الجنة فلا يسخط عليهم أبدًا، رقم

وقد ذكرت الآيات أن رضوان الله تعالى هو الغاية العظيمة التي ليس وراءها غاية، وهو الجزاء الكبير والفوز العظيم، وفيها تنبيه للمؤمنين؛ ليطلبوا رضوان الله، كما قال تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١].

وكما قال سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦][1].

الرضا المثبت والمنفي في حق الله

إن الله تعالى رضي عن أنبيائه وعن المؤمنين وعن الأعمال الصالحة، والشفاعة لمن يشاء من عباده الصالحين، ولم يرض لعباده الكفر والفسوق والعصيان، فيجب على العبد أن يوافق ربه في رضاه وسخطه، وسوف نذكر هذه الأشياء في النقاط الآتية:

أولًا: الرضا المثبت في حق الله تعالى:

١ . رضاه عن الرسل والانبياء.

إن النبوة درجة عظيمة يعطيها الله تعالى لمن رضي له هذه المرتبة، وارتضاه من بين عباده، ومنتهى درجة العبد أن يكون راضيًا مرضيًّا عند ربه، وهو مطلوب الأنبياء عليهم السلام، وقد ذكر القرآن زكريا عليه السلام ، وهو يسأل ربه ذكرًا صالحًا، ويكون وليًّا من بعده مرضيًّا عند الله وعند خلقه، وراضيًا بتقدير الله، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٥-٦].

وهذا أفضل ما يكون من الأولاد، ومن رحمة الله بعبده، أن يرزقه ولدًا صالحًا، جامعًا لمكارم الأخلاق ومحامد الشيم، فرحمه ربه واستجاب دعوته، وذكر الله تعالى إسماعيل وأنه ارتضاه للنبوة والرسالة،

٢٨٢٩، ٤/ ٢١٧٦.

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٢٤٤، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥١١، تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ٣٢٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٢٩٠.

قال سبحانه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤-٥٥].

وهو في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات، وذكر القرآن شوق موسى عليه السلام إلى رضى الله، فقال جل وعلا: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٣-٨٤].

وسليمان عليه السلام يستعين بربه؛ ليمكنه من شكر نعمته عليه وعلى والديه، ويستعين ربه كذلك؛ ليوفقه إلى عمل صالح يرضاه، وهو يشعر أن العمل الصالح توفيق ونعمة أخرى من الله، قال عز من قائل: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩][1].

٢ . رضاه بدين الاسلام.

بين القرآن الكريم إكمال الله تعالى للمؤمنين دينهم الذي ارتضى لهم بالقرآن، وإتمام نعمته عليهم بالإسلام، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

إن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن أعظم وأجل نعمة امتن بها عليهم هي دين الإسلام، وقد كتب الله له الكمال وسجل له البقاء، وأظهره على الدين كله، وأن الكفار قد يئسوا من زوال هذا الدين، وانقطع رجاؤهم من إبطاله ورجوعكم عنه؛ لما شاهدوا من فضل الله عليكم؛ إذ وفَّى بوعده، وأنه ينبغي لكم -وقد بدلكم بضعفكم قوة، ويخوفكم أمنًا، وبفقركم غنى- ألا تخشوا غيره، وقد عرفتم فضله وإعزازه لكم، وأتمَّ هذا الكمال فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه فلا ينقص أبدًا، وقد رضيه فلا يسخطه أبدًا، وأن هذا هو الدين المرضي عند الله تعالى.

ويؤكده قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٤٢٠، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٤٩٦ معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٣٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٥٠، لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٩٠، تفسير المراغي ١٩/ ١٢٩، في ظلال القرآن، سيد ٥/ ٢٦٣٧، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٠.

﴿الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذي رضيه الله وأحبه وبعث به أفضل رسله الكرام، وأنزل به أشرف كتبه[(١)].

ورضيت لكم الإسلام لأمري والانقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود ومعالم الدين الذي أكملته لكم، وإنما قال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، يوم نزلت هذه الآية -وإن كان الله تعالى لم يزل راضيًا بدين الإسلام فيما مضى قبل نزول هذه الآية-؛ لأنه لم يزل يصرف نبيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وعباده المؤمنين من حال إلى حال، وينقلهم من مرتبة إلى مرتبة أعلى منها حتى أكمل لهم شرائع الدين ومعالمه، وبلغ بهم أقصى درجاته ومراتبه، ثم أنزل عليهم هذه الآية: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

يعني: أتممت عليكم دينكم فهو اليوم في نهاية الكمال وأنتم الآن عليه فالزموه ولا تفارقوه، وذكر الله تعالى في آيات أخر أن دين الإسلام هو دين كل الأنبياء السابقين، ألا ترى أن أنبياء الله ورسله رغبوا فيه إليه وسألوه إياه، فقال إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال جل وعلا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ۝١٣٦ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [البقرة: ١٣٦-١٣٧].

وقال سبحانه: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا﴾ [آل عمران: ٢٠].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

فحكم الله بأن من أسلم فقد اهتدى، ومن آمن فقد اهتدى، فسوى بينهما، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في موسى: (لو كان حيًا ما وسعه إلا اتباعي)[(٢)]، ولأجل ذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ١٥٥، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦، في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٤٥.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم ١٧٤، ١/ ٣٤٧، والبغوي في شرح السنة رقم ١٢٦، ١/ ٢٧٠، كتاب العلم، باب حديث أهل الكتاب.
وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٦/ ٣٤.

﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥][1].

قال سيد قطب: «أما ارتضاء الله الإسلام دينًا للذين آمنوا، يقف أمام رعاية الله سبحانه وعنايته بهذه الأمة، حتى ليختار لها دينها ويرتضيه، وهو تعبير يشي بحب الله لهذه الأمة ورضاه عنها، حتى ليختار لها منهج حياتها، وإن ارتضاء الله الإسلام دينًا لهذه الأمة ليقتضي منها ابتداء أن تدرك قيمة هذا الاختيار، ثم تحرص على الاستقامة على هذا الدين بقدر ما في الطاقة من وسع واقتدار، وإلا فما أنكد وما أحمق من يهمل -بله أن يرفض- ما رضيه الله له، ليختار لنفسه غير ما اختاره الله!، وإنها -إذن- لجريمة نكدة لا تذهب بغير جزاء، ولا يترك صاحبها يمضي ناجيًا أبدًا، وقد رفض ما ارتضاه له الله، ولقد يترك الله الذين لم يتخذوا الإسلام دينًا لهم، يرتكبون ما يرتكبون ويمهلهم إلى حين، فأما الذين عرفوا هذا الدين ثم تركوه أو رفضوه، واتخذوا لأنفسهم مناهج في الحياة غير المنهج الذي ارتضاه لهم الله، فلن يتركهم الله أبدًا ولن يمهلهم أبدًا، حتى يذوقوا وبال أمرهم وهم مستحقون!»[2].

ولقد انتبه لهذا الفضل العظيم بعض أتباع الملل الأخرى كاليهود.

(قال يهودي لعمر رضي الله عنه: آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا!! قال: وأي آية؟ قال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

قال عمر: إني أعلم اليوم الذي نزلت فيه، والمكان الذي نزلت فيه: نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو واقف بعرفة يوم الجمعة)[3].

٣. رضاه عن المؤمنين.

بين القرآن الكريم رضا الله تعالى عن المؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ١٨-١٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٧-٨].

فهي عامة في جميع المؤمنين الذين هذه صفاتهم، وقد أثنى الله ورسوله على

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٥٢٣، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٠، بيان المعاني، عبدالقادر ملا ٦/ ٢٩٣.

(٢) في ظلال القرآن ٢/ ٨٤٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه، رقم ٤٥، ١/ ١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، رقم ٣٠١٧، ٤/ ٢٣١٢.

المهاجرين والأنصار في غير ما آية من كتابه، فقال سبحانه: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

يخبر تعالى عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة، ورضاه عن المؤمنين من المهاجرين والأنصار الذين تركوا الديار والأموال والعشائر، وخرجوا حبًّا لله ولرسوله، واختاروا الإسلام على ما كانوا فيه من شدة، حتى ذكر أن الرجل كان يعصب الحجر على بطنه؛ ليقيم به صلبه من الجوع، وكان الرجل يتخذ الحفيرة في الشتاء ما له دثار غيرها، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم، وسبب رضاه ما علمه عنهم من صدق الإيمان في قلوبهم، وطاعتهم لله ولرسوله، وأعمالهم الصالحة.

وكان سبب هذه البيعة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أرسل عثمان بن عفان رضي الله عنه برسالته إلى الملإ من قريش، فأبطأ عثمان عليه بعض الإبطاء، فظن أنه قد قتل، فدعا أصحابه إلى تجديد البيعة على حربهم على ما وصفت، فبايعوه على ذلك، وهذه البيعة التي تسمى بيعة الرضوان، بايعوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن لا يولوا في القتال ولا يهربوا.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فرضي عن السابقين من غير اشتراط إحسان، ولم يرض عن التابعين إلا أن يتبعوهم بإحسان، والرضا من الله صفة قديمة فلا يرضى إلا عن عبد علم أنه يوافقه على موجبات الرضى، ومن رضي الله عنه لم يسخط عليه أبدًا، و أيضًا فكل من أخبر الله أنه رضي عنه فإنه من أهل الجنة، وإن كان رضاه عنه بعد إيمانه وعمله الصالح، فإنه يذكر ذلك في معرض الثناء عليه والمدح له، فلو علم أنه يتعقب ذلك ما يسخط الرب لم يكن من أهل ذلك[(١)].

وقد جاء من حديث أم مبشر، أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم، يقول عند حفصة: (**لا يدخل النار -إن شاء الله- من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها**)[(٢)].

قال ابن كثير: «فقد أخبر الله العظيم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٢٢٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٥/ ٢٥، معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٥٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٣٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان رضي الله عنهم، رقم ٢٤٩٦، ٤/ ١٩٤٢.

أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان: فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم، أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة رضي الله عنه، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويبغضونهم ويسبونهم، عياذًا بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة، وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن؛ إذ يسبون من رضي الله عنهم؟ وأما أهل السنة فإنهم يترضون عمن رضي الله عنه، ويسبون من سبه الله ورسوله، ويوالون من يوالي الله، ويعادون من يعادي الله، وهم متبعون لا مبتدعون، ويقتدون ولا يبتدعون، ولهذا هم حزب الله المفلحون وعباده المؤمنون»[(١)].

٤ . رضاه عن الأعمال الصالحة.

ذكر القرآن الكريم رضا الله تعالى عن الأعمال الصالحة، قال تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل: ١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٥].

بين القرآن الكريم أن مطلب الأنبياء والصالحين الإعانة على العمل الصالح المرضي عند الله تعالى، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾؛ لأن العمل مهما كان حسنًا إذا لم يرضه الله لا يعد شيئًا، والمراد بكونه مرضيًّا له تعالى: أن يكون سالمًا من غوائل عدم القبول كالرياء والعجب وغيرهما، فحاصله: اجعل عملي على وفق رضاك، وقيل: المراد بالرضا هنا ثمرته على طريق الكناية، واعلم أن الشيء الذي يعتقد أن الإنسان فيه كونه صالحًا على قسمين:

أحدهما: الذي يكون صالحًا عنده ويكون صالحًا أيضًا عند الله تعالى.

والثاني: الذي يظنه صالحًا ولكنه لا يكون صالحًا عند الله تعالى.

فلما قسم الصالح في ظنه إلى هذين القسمين طلب من الله أن يوفقه؛ لأن يأتي بعمل صالح يكون صالحًا عند الله، ويكون مرضيًّا عند الله، ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾، أي: تقبله، وهي الفرائض الخمس وغيرها من الطاعات والتنوين؛ للتفخيم والتنكير،

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٢٠٣.

وقال بعضهم: العمل الصالح المقرون بالرضى: بذل النفس لله والخروج مما سوى الله الى مشاهدة الله، وفيه إشارة إلى أنه لا يمكن للعبد أن يعمل عملًا يرضى به ربه إلا بتوفيقه وإرشاده، ومن العمل الصالح، إرسال هذه النعم في وجوه الخير والإحسان[1].

وفي الآيات إشارة إلى أن العمل المرضي الذي يحبه الله تعالى هو غاية ومطلب الإنسان الصالح السوي، وفيها دعوة لكل مؤمن أن يبادر بالأعمال الصالحة المرضية عند الله تعالى، فرضى الله هو الغاية التي يتطلع إليها، وهو وحده الرجاء الذي يأمل فيه.

٥. الرضا عن المشفوع له.

بين القرآن الكريم أن الشفاعة لا تقع إلا بإذن الله لمن رضي عنه، وأن هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون إلا لمن كان الله تعالى راضيًا عنه بإيمانه وعمله الصالح.

قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال سبحانه: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ [النجم: ٢٦].

أخبر تعالى عن ملائكته أنهم لا يشفعون لأحد إلا أن يرتضيه الله عز وجل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: «﴿إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ أي: لمن قال: لا إله إلا الله»، وهذه الآية من أقوى الدلائل في إثبات الشفاعة لأهل الكبائر، وتقريره: هو أن من قال: لا إله إلا الله فقد ارتضاه تعالى في ذلك، ومتى صدق عليه أنه ارتضاه الله تعالى في ذلك فقد صدق عليه أنه ارتضاه الله؛ لأن المركب متى صدق فقد صدق لا محالة كل واحد من أجزائه، وإذا ثبت أن الله قد ارتضاه وجب اندراجه تحت هذه الآية، فثبت بالتقرير الذي ذكرناه أن هذه الآية من أقوى الدلائل لنا على ما قرره ابن عباس رضي الله عنهما[2].

وأجمع أهل السنة أن شفاعة الأنبياء والصالحين تقبل في العصاة من المؤمنين، خلافًا للمعتزلة الذين قالوا: إن الكبيرة تخلد صاحبها في النار، وأنكروا الشفاعة، وهم على ضربين؛ طائفة أنكرت الشفاعة إنكارًا كليًّا، وقالوا: لا تقبل شفاعة أحد في أحد، واستدلوا بظواهر الآيات، منها الآيات الدالة على عدم نفع الشفاعة، كقوله تعالى: ﴿فَمَا

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٩٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٢٠، المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٦، روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٧٦.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٤٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٣٥، المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٢٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٣٦.

﴿تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقوله جل وعلا: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

قالوا: والمعصية ظلم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وصاحب الكبيرة ليس بمرتضى، ومنها قوله جل جلاله: ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ [غافر: ٧].

وخص تلك الظواهر أصحابنا بالكفار؛ لثبوت الأحاديث الصحيحة في الشفاعة، وطائفة أنكرت الشفاعة في أهل الكبائر، وقالوا: وإنما تقبل في الصغائر[1].

والظاهر أن الذي دعا المعتزلة إلى إنكار الشفاعة منافاتها لخلود صاحب الكبيرة في العذاب الذي هو مذهب جمهورهم الذين فسروا قول واصل بن عطاء بالمنزلة بين المنزلتين، بمعنى: إعطاء العاصي حكم المسلم في الدنيا وحكم الكافر في الآخرة، ولا شك أن الشفاعة تنافي هذا الأصل، فما تمسكوا به من الآيات إنما هو لقصد التأبيد ومقابلة أدلة أهل السنة أمثالها[2].

وتفيد الآية الترغيب والتحريض على طلب مرضاة الله عز وجل والاحتراز عن معاصيه[3].

٦. الرضا عن أهل الجنة.

بين القرآن الكريم رضا الله تعالى عن أهل الجنة، وأن الفوز بالرضوان أعلى وأعظم وأجل وأكبر مما هم فيه من النعيم.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥].

ونظيره قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١].

وقوله جلّ في علاه: ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٣٠٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٤٨٧.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٠٠.

﴿رَّضِيَةً﴾ [الفجر: ٢٨].

بينت الآيات أخص صفات أهل الجنة، من الرحمة والرضوان، والخلود، والإقامة الدائمة في جنات عدن، إذ العدن: الإقامة الدائمة، ومنها المعدن؛ لدوام إقامته في مكانه، وقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

قال ابن عباس: «أكبر مما يوصف»، وقال الزجاج: «أكبر مما هم فيه من النعيم»، وقال الحسن بن أبي الحسن: «وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور ما هو ألذ عندهم وأقر لأعينهم من كل شيء أصابوه من لذة الجنة»، وأتى به نكرة؛ ليدل على مطلق، أي: وشيء من رضوانه أكبر من كل ما ذكر؛ لأنّ رضاه هو سبب كل فوز وسعادة، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته، والكرامة أكبر أصناف الثواب، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراءه من النعيم، وإنما تتهنأ له برضاه، كما إذا علم بسخطته تنغصت عليه ولم يجد لها لذة وإن عظمت، وإنما صار الرضوان أكبر من الثواب؛ لأنه لا يوجد شيء من الثواب إلا بالرضوان؛ إذ هو الموجب له[(١)].

وأما الرضوان فهو مصدر بمعنى: الرضا، مع ما في زيادة المبنى من المبالغة في المعنى فكأنه قال: ورضوان عظيم من الله لا يشوبه ولا يعقبه سخط: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وفي هذا من تفضيل الرضوان على نعيم الجنات وما فيها ما لا غاية وراءه، وعطف رضوان من الله على ما أعد للذين اتقوا عند الله؛ لأن رضوانه أعظم من ذلك النعيم المادي؛ لأن رضوان الله تقريب روحاني، وأظهر اسم الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، دون أن يقول: ورضوان منه، أي: من ربهم؛ لما في اسم الجلالة من الإيماء إلى عظمة ذلك الرضوان[(٢)].

وثبت (أن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من خلقك، فيقول: أنا أعطيكم أفضل من ذلك؟ قالوا: وأي شيء أفضل من ذلك؟ قال: أُحِلُّ عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا)[(٣)].

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥١١، الكشاف الزمخشري ٢/ ٢٨٩، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٥٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ١٦٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٥٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٨٤.

(٣) سبق تخريجه.

ثانيًا: الرضا المنفي:

١ . الرضا بالكفر.

بيّن تعالى أنه لا يرضى لعباده الكفر، قال سبحانه: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

فالكفر والشرك لا يرضاه الله سبحانه وتعالى، بل إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب لمحاربة الكفر والشرك والقضاء عليهما.

قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الأنفال: ٣٩].

وإذا كان الله لا يرضى بالكفر والشرك فإن الواجب على المؤمن أن لا يرضى بهما؛ لأن رضا المؤمن وغضبه تبع لرضا الله وغضبه، فيغضب لما يغضب الله ويرضى بما يرضاه الله عز وجل.

قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار)[١][٢].

وقد اختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾[الزمر: ٧].

هل هي عامة أم خاصة؟

فذهب فريق إلى أنها عامة لعباد الله جميعًا؛ فالكفر غير مرضي لله سبحانه على كل حال كما هو الظاهر، قال قتادة: «والله ما رضي الله لعبد ضلالة، ولا أمره بها، ولا دعا إليها، ولكن رضي لكم طاعته، وأمركم بها، ونهاكم عن معصيته»، فكفر الكافر غير مرضيّ لله تعالى وإن كان قدّره وشاءه، فليس من لازم القدر الرضا، فالله يقدر الكفر وهو يبغضه؛ من أجل أن يتميز الناس بعضهم من بعض، ويتميز الصادق من الكاذب، ويتبين المؤمن من الكافر، ويتبين المنافق من المؤمن الصحيح، فالله قدّر هذه الأمور المكروهة لحكمة منه سبحانه، ما قدرها عبثًا، ورتب الجزاء على أفعالهم التي يفعلونها باختيارهم، وقد أراد الله عز وجل خلق إبليس وهو لا يرضاه، فالإرادة غير

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة، ومن مات مشركًا دخل النار، رقم ٩٣، ١/ ٩٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٢٦٠، التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٧٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٨٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٢١.

الرضا، وهذا مذهب أهل السنة[(١)].

وذهب فريق منهم ابن عباس رضي الله عنهما، في قوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، أنهم عباده المخلصون الذين قال عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]؛ فألزمهم شهادة أن لا إله إلا الله وحببها إليهم، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، دعوة للمؤمنين -وكلهم عباد الله- أن يكونوا بالمكان الذي يرضاه الله لهم، ويقبله منهم، وأن ينأوا عما لا يرضاه الله لهم، فإنهم عباده![(٢)].

والصواب من ذلك هو مذهب الفريق الأول؛ لأن الإرادة في النصوص جاءت على معنيين: إرادة كونية قدرية: وهي المشيئة ولا ملازمة بينها وبين المحبة والرضا، بل يدخل فيها الكفر والإيمان والطاعات والعصيان والمرضيّ والمحبوب والمكروه وضده، وهذه الإرادة ليس لأحد خروج منها ولا محيص عنها، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وإرادة دينية شرعية: مختصة بمراضي الله ومحابّه، وعلى مقتضاها أمر عباده ونهاهم، كقوله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقوله جلّ في علاه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وغيرها من الآيات، وهذه الإرادة لا يحصل اتباعها إلا لمن سبقت له بذلك الإرادة الكونية، فتجتمع الإرادة الكونية والشرعية في حق المؤمن الطائع، وتنفرد الكونية في حق الفاجر العاصي، فالله سبحانه دعا عباده عامة إلى مرضاته، وهدى لإجابته من شاء منهم، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

فعمم سبحانه الدعوة وخص الهداية بمن شاء: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٣٠][(٣)].

فجملة: ﴿إِن تَكْفُرُوا﴾ مبينة لإنكار انصرافهم عن التوحيد، أي: إن كفرتم بعد هذا الزمن فاعلموا أن الله غني عنكم، ومعناه: غني عن إقراركم له بالوحدانية،

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٣٦.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) انظر: الدرة البهية، السعدي ص ٧٠، مفهوم الأسماء والصفات، سعد ندا ٤٧ - ٤٨/ ٨٢.

أي: غير مفتقر له، وهذا كناية عن كون طلب التوحيد منهم لنفعهم ودفع الضر عنهم لا لنفع الله، وتذكيرهم بهذا؛ ليقبلوا على النظر من أدلة التوحيد، والخبر مستعمل كناية في تنبيه المخاطب على الخطإ من فعله.

وقوله: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [الزمر: ٧]، اعتراض بين الشرطين؛ لقصد الاحتراس من أن يتوهم السامعون أن الله لا يكترث بكفرهم ولا يعبأ به، فيتوهمون أنه والشكر سواء عنده؛ ليتأكد بذلك معنى استعمال الخبر في تنبيه المخاطب على الخطإ، وبهذا تعين أن يكون المراد من قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾، العباد الذين وجّه الخطاب إليهم في قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾[الزمر: ٧]، وذلك جري على أصل استعمال اللغة لفظ العباد، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧][1].

٢. الرضا بالفسوق.

ذكر القرآن الكريم أن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

قال تعالى: ﴿يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٩٤ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٤-٩٦].

في الآية السابقة على هذه الآيات، رفع الله الحرج عن الضعفاء والمرضى، وعن الذين لا يجدون ما ينفقون، إذا هم لم يكونوا في موكب المجاهدين الذين يلقون العدوّ في ميدان القتال؛ إذ كانوا ومعهم أعذارهم التي تحول بينهم وبين القيام بهذا الأمر الذي ندب الله سبحانه وتعالى المؤمنين له، ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١][2].

ثم أخبر الله تعالى عن المنافقين الذين تخلفوا عن الجهاد بقوله سبحانه: إنهم سيحلفون معتذرين؛ لتعرضوا عنهم، ولا تؤنبوهم فأعرضوا عنهم إنهم رجس أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ومأواهم في آخرتهم جهنم جزاء، أي: لأجل الجزاء

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٣٧.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٣/ ٤٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٨، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/ ٨٦٩.

بما كانوا يكسبون من الآثام والخطايا، ثم أخبر عنهم بأنهم: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والفسق هو الخروج، ومنه سميت الفأرة: فويسقة؛ لخروجها من جحرها، ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وهذا شر مقال قاله الله في أحد من خلقه، حيث أمر عز وجل بالإعراض عنهم وعدم معاتبتهم؛ احتقارًا لهم، ثم أمر باجتنابهم، والابتعاد عنهم؛ لأنهم رجس، والرجس والنجس بمعنى واحد، ثم توعدهم أشد الوعيد في قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة: ٩٤].

ثم بيّن أن محاولتهم التخلص من التوبيخ والتأنيب، وإرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالأيمان الكاذبة لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الله سيفضح أمرهم ويهتك سترهم في هذه السورة التي سميت سورة الفاضحة[(١)].

وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

أي: فلا ينبغي لكم -أيها المؤمنون- أن ترضوا عن من لم يرض الله عنه، بل عليكم أن توافقوا ربكم في رضاه وغضبه، وتأمل كيف قال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

ولم يقل: «فإن الله لا يرضى عنهم»؛ ليدل ذلك على أن باب التوبة مفتوح، وأنهم مهما تابوا هم أو غيرهم، فإن الله يتوب عليهم، ويرضى عنهم، وأما ما داموا فاسقين، فإن الله لا يرضى عليهم؛ لوجود المانع من رضاه، وهو خروجهم عن ما رضيه الله لهم من الإيمان والطاعة، إلى ما يغضبه من الشرك، والنفاق، والمعاصي[(٢)].

وحاصل ما ذكره الله: أن المنافقين المتخلفين عن الجهاد من غير عذر، إذا اعتذروا للمؤمنين، وزعموا أن لهم أعذارًا في تخلفهم، فإن المنافقين يريدون بذلك أن تعرضوا عنهم، وترضوا وتقبلوا عذرهم، فأما قبول العذر منهم والرضا عنهم، فلا حبًّا ولا كرامة لهم، وأما الإعراض عنهم، فيعرض المؤمنون عنهم، إعراضهم عن الأمور الردية والرجس، وقوله: ﴿رِجْسٌ﴾ تعليل؛ لترك معاتبتهم، يعنى: أنّ المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم، إنما يعاتب الأديب ذو البشرة،

(١) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٣/٤٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٨، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٦/٨٦٩.

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٤٩.

والمؤمن يوبَّخ على زلة تفرط منه؛ ليطهره التوبيخ بالحمل على التوبة والاستغفار، وأما هؤلاء فأرجاس لا سبيل إلى تطهيرهم، ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾، يعني: وكفتهم النار عتابًا وتوبيخًا، فلا تتكلفوا عتابهم، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا، ووضع الفاسقين موضع ضميرهم؛ للتسجيل عليهم بالخروج عن الطاعة المستوجب لما حلّ بهم من السخط، وللإيذان بشمول الحكم لكل من كان مثلهم في ذلك.

والمراد به نهي المخاطبين عن الرضا عنهم والاغترار بمعاذيرهم الكاذبة على أبلغ وجهٍ وآكده، فإن الرضا عمن لا يرضى عنه الله تعالى ممّا لا يكاد يصدر عن المؤمن، وقيل: إنما قيل ذلك؛ لئلا يتوهم متوهمٌ أن رضا المؤمنين من دواعي رضا الله تعالى، قال أهل المعاني: هؤلاء طلبوا إعراض الصفح، فأعطوا إعراض المقت، وطلب الإعراض عنهم فيه تحذير للناس من أخلاق المنافقين الخبيثة والرذيلة، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانية، فوجوب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية أولى؛ خوفًا من سريانها إلى الإنسان، وحذرًا من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال(1).

٣. الرضا بالأعمال والأقوال السيئة.

يخبر الله تعالى عن صفة من صفات المنافقين، وهي تبييت ما لا يرضى من القول.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٧-١٠٨].

نهى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن المجادلة، عمن أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية، ثم أخبر سبحانه أنه: ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧]، أي: كثير الخيانة والإثم، وإذا انتفى الحب ثبت ضده وهو البغض، فإذا كان العدوان من وليّ الأمر على الظالم الآثم أمرًا تنكره الشريعة، فتفرض حماية على الظالم المعتدي، حتى لا يجاوز بعقابه الحدّ المرصود لجريمته، فإن الميل مع الظالم الآثم، والتماس المعاذير لجريمته، ابتغاء التخفيف عنه، لا يقلّ في نظر الشريعة عن

(1) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٢٤، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٧٢، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٩٤.

فعل الظالم نفسه؛ لأن في هذا عدوانًا على حق الله، وتعطيلًا لحدوده!

ثم أخبر جل وعلا أن من صفات هؤلاء الخونة: أنهم يستترون من الناس عند اجتراحهم الآثام إما حياء وإما خوفًا من ضررهم، ولا يستترون من الله ولا يستحيون منه بتركها؛ لضعف إيمانهم؛ إذ الإيمان يمنع من الإصرار وتكرار الذنب، ولا تقع الخيانة من صاحبه إلا عن غفلة أو جهالة عارضة لا تدوم، فمن يعلم أن الله يراه لابد أن يترك الذنب والخيانة؛ حياء منه تعالى وخوفًا من عقابه، وهو تعالى شاهدهم حين يدبرون ليلًا ما لا يرضى من القول؛ تبرئة لأنفسهم ورمي غيرهم بجريمتهم، ثم توعدهم على عظيم جرمهم فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾، جل وعلا عالم بهم وبأحوالهم، يسمع ما يدبرونه في الخفاء ويضمرونه في السر من رمي البريء وشهادة الزور والحلف الكاذب[1].

ثم حذر المؤمنين من مساعدة هؤلاء الخونة فقال: ها أنتم يا هؤلاء جادلتم عنهم وحاولتم تبرئتهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلًا، يوم يكون الخصم والحاكم هو الله المحيط علمه بأعمالهم وأحوالهم وأحوال الخلق كافة؟! أي: لا يمكن أن يجادل هنالك أحد عنهم، ولا أن يكون وكيلًا بالخصومة لهم، فعلى المؤمنين أن يراقبوا الله تعالى في مثل ذلك، ولا يحسبوا أن من أمكنه أن ينال الفرج بالحكم له من قضاة الدنيا بغير حق، يمكنه كذلك أن يظفر في الآخرة، يوم لا تملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله[2].

والسبب الذي نزلت فيه هذه الآية هو: أن رجلًا من الأنصار اسمه: طعمة بن أبيرق وكان منافقًا، سرق درعًا لعمه كانت عنده وديعة، فلما أن خاف أن يعرف فيه قذفها على يهودي، وأخبر بني عمه بذلك فجاء اليهودي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخبره بالدرع، وقال: والله ما سرقتها يا أبا القاسم ولكن طرحت علي! فلما رأوا ذلك بنو عم طعمة جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يبرئوا صاحبهم من الدرع، ويسألونه أن يبرئه منها، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبرئه من السرقة حتى نزل: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ [النساء: ١٠٧].

يريد: طعمة وبني عمه، ولما نزل القرآن في طعمة لحق بقريش وارتد، ثم عاد إلى مشربة الحجاج حليف لبني عبد الدار فنقبها فسقط عليه حجر، فنحل لحمه، فلما أصبح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ١٩١، تفسير المراغي ٥/ ١٤٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٠٠، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٣/ ٨٩٠.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٣٢٥.

أخرجوه، ونفوه من مكة فخرج فلقي ركبًا فعرض لهم، وقال: ابن سبيل منقطع به، فحملوه حتى إذا جن الليل عدا عليهم، فسرقهم، ثم انطلق، فخرجوا في طلبه فأدركوه فقذفوه بالحجارة حتى مات[(١)].

(١) انظر: الهداية الى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٢/١٤٥٨.

رضا المخلوقين بين المحمود والمذموم

إن الرضا من العباد مطلوب شرعًا سواء كان ذلك الرضا عن الله وقضائه وقدره، أو كان رضا بعضهم عن بعض، وينقسم رضا العباد إلى قسمين؛ قسم محمود وقسم مذموم، وسوف يتم تناول ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرضا المحمود:

١ . الرضا عن الله.

أخبر الله تعالى عن رضاه عن المؤمنين ورضاهم عنه.

قال عز وجل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوۡمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدۡقُهُمۡۚ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [المائدة: ١١٩].

وقال تعالى: ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨].

إن الرضا عن الله سبحانه وتعالى من أعلى مقامات اليقين بالله.

قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا

﴿الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فمن أحسن الرضا عن الله جازاه الله بالرضا عنه، فقابل الرضا بالرضا، وهذا غاية الجزاء ونهاية العطاء، وهو قوله عز وجل: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قيل: ذلك في الدنيا، فرضاه عنهم هو ما أظهره عليهم من أمارات رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه: هو رضاهم بجميع ما قسم لهم من جميع الأرزاق والأقدار، وكقوله سبحانه: ﴿ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٨].

وقال الرّاغب: «رضا العبد عن الله أن لا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتمرًا بأمره ومنتهيًا عن نهيه، وأرضاه: أعطاه ما يرضى به، وترضّاه: طلب رضاه»[(١)].

وقال بعض الصالحين: رضى العباد عن الله: رضاهم بما يرد من أحكامه، ورضاه عنهم أن يوفقهم للرضى عنه»، وقال أبو بكر بن طاهر: «الرضى عن الله: خروج الكراهية عن القلب حتى لا يكون إلا فرح وسرور»، وقال السري السقطي: «إذا كنت لا ترضى عن الله فكيف تطلب منه الرضا عنك؟»، وكتب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعريّ: «أمّا بعد، فإن الخير كلّه في الرضا، فإن استطعت أن ترضى وإلاّ فاصبر، والرضا حال يصحب العبد في الدنيا والآخرة.

قال بعض العلماء: الرضا عن الله باب الله الأعظم، وجنة الدنيا ولذة العارفين، والرضوان عن الله في الجنة وهم في الدنيا راضون عنه متلذذون بمجاري أقضيته، سليمة صدورهم من الغل، مطهرة قلوبهم عن الفساد، لا يتحاسدون ولا يتباغضون، وقيل: ذلك في الآخرة، فرضاهم عنه رضاهم بما من به عليهم من النعم، ورضاهم عنه هو ما روي أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: (هل رضيتم بما أعطيتكم؟ فيقولون: نعم ربنا وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين؟! فيقول: أنا أعطيكم أفضل من كل ما أعطيتكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا)[(٢)(٣)].

٢ ـ الرضا بقدر الله.

بين القرآن الكريم أن من صفات المؤمنين الرضا بقدر الله، وعدم الاعتراض عليه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٥٦.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٥٦، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٥٠٩، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ١٣٣، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٨٢، إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ١٠/ ٥٤٧.

﴿مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

أعلم الله في هذه الآية أنه لا اختيار على ما قضاه الله ورسوله، بل من حقهم أن يجعلوا رأيهم تبعًا لرأيه، واختيارهم تلوًا لاختياره، وسبب نزول هذه الآية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خطب زينب بنت جحش، فظنت أن الخطبة لنفسه، فلما بين أنه إنما يريدها لزيد بن حارثة رضي الله عنه كرهت وأبت، فنزلت الآية، فأذعنت زينب رضي الله عنها حينئذ وتزوجته، فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣][1].

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

أخبر الله تعالى عباده أنه سوف يبتليهم بنقص من الأموال والأنفس والثمرات، ثم أخبر بما لهم عند الله تعالى عند الصبر على هذه الشدائد في طاعة الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[البقرة: ١٥٧].

يعني: الثناء الجميل والبركات والرحمة، وهي النعمة التي لا يعلم مقاديرها إلا الله تعالى، كقوله في آية أخرى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، إقرار بالبعث والنشور، واعتراف بأن الله تعالى سيجازي الصابرين على قدر استحقاقهم، فلا يضيع عنده أجر المحسنين. وقد تضمنت الآية مدح الصابرين على شدائد الدنيا وعلى مصائبها على الوجه التي ذكر، والوعد بالثواب والثناء الجميل والنفع العظيم لهم في الدنيا والآخرة، فأما في الدنيا: فما يحصل له به من الثناء الجميل في نفوس المؤمنين؛ لائتماره لأمر الله تعالى، ولأن في الفكر في ذلك

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٢، الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٤٠، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٨٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢٣.

تسلية عن الهمّ ونفي الجزع الذي ربما أدى إلى ضرر في النفس وإلى إتلافها في حال ما يعقبه ذلك في الدنيا من محمود العاقبة، وأما في الآخرة: فهو الثواب الجزيل الذي لا يعلم مقداره إلا الله.

قال أبو بكر الجصاص: «وقد اشتملت هذه الآية على حكمين، فرض ونفل، فأما الفرض: فهو التسليم لأمر الله والرضا بقضاء الله والصبر على أداء فرائضه، لا يثنيه عنها مصائب الدنيا ولا شدائدها، وأما النفل: فإظهار القول بـ(إنا لله وإنا إليه راجعون)، فإن في إظهاره فوائد جزيلة؛ منها فعل ما ندب الله إليه، ووعده الثواب عليه، ومنها أن غيره يقتدي به إذا سمعه، ومنها غيظ الكفار وعلمهم بجدّه واجتهاده في دين الله تعالى، والثبات على طاعته ومجاهدة أعدائه. ويحكى عن دواد الطائي أنه قال: «الزاهد في الدنيا لا يحب البقاء فيها، وأفضل الأعمال الرضا عن الله، ولا ينبغي للمسلم أن يحزن للمصيبة؛ لأنه يعلم أن لكل مصيبة ثوابا»[(١)].

فقضاء الله كله خير وعدل وحكمة، يجب الرضا به كله، والمقضيّ -وهو المفعول المنفصل عنه- لا يجب الرضا به كله، فإنه إنما شرع الرضا بما يرضى الله به، والمقضي نوعان:

النوع الأول: شرعي ديني: فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

فأقسم: أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه، وحتى يسلموا لحكمه تسليمًا، وهذه حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتسليم: في مقام الإحسان.

والنوع الثاني: الرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه -من الصحة، والغنى، والعافية، واللذة- أمر لازم بمقتضى الطبيعة؛ لأنه ملائم للعبد، محبوب له، فليس في الرضا به عبودية، بل العبودية في مقابلته بالشكر، والاعتراف بالمنة، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها، وأن لا يعصي المنعم بها، وأن يرى التقصير في جميع ذلك، والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته -مما لا يلائمه، ولا يدخل تحت اختياره- مستحب،

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ١/ ١١٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٣/ ٨٨، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦.

وهو من مقامات أهل الإيمان، وفي وجوبه قولان، وهذا كالمرض والفقر، وأذى الخلق له، والحر والبرد، والآلام ونحو ذلك، والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره -مما يكرهه الله ويسخطه، وينهى عنه- كأنواع الظلم والفسوق والعصيان: حرام يعاقب عليه، وهو مخالفة لربه تعالى، فإن الله لا يرضى بذلك ولا يحبه، فكيف تتفق المحبة ورضا ما يسخطه الحبيب ويبغضه؟[1].

ودلت هذه الآية، أعني قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، على أن من لم يصبر، فله ضد ما لهم، فحصل له الذم من الله، والعقوبة والضلال والخسران، فما أعظم الفرق بين الفريقين! وما أقل تعب الصابرين، وأعظم عناء الجازعين! فقد اشتملت هاتان الآيتان على توطين النفوس على المصائب قبل وقوعها؛ لتخف وتسهل إذا وقعت، وبيان ما تقابل به إذا وقعت، وهو الصبر، وبيان ما يعين على الصبر، وما للصابر من الأجر، ويعلم حال غير الصابر، بضد حال الصابر، وأن هذا الابتلاء والامتحان، سنة الله التي قد خلت، ولن تجد لسنة الله تبديلًا، كما اشتملت على بيان أنواع المصائب[2].

٣. الرضا بحكم الله.

إن الرضا بحكم الله تعالى واجب شرعًا، قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٥].

أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة، أنه لا يؤمن أحد حتى يحكم رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرًا وباطنًا ويسلمه تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة، وهذه حقيقة الرضا بحكمه، فالتحكيم: في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج: في مقام الإيمان، والتسليم: في مقام الإحسان، وبين في آية أخرى أن قول المؤمنين محصور في هذا التسليم الكلي، والانقياد التام ظاهرًا وباطنًا لما حكم به صلى الله عليه وسلم، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

فيجب على العبد أن يكون راضيًا به بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة، ولا اعتراض[3].

(١) انظر: الرضا عن الله بقضائه، ابن أبي الدنيا ص ٦٥، مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ١٨٩.

(٢) انظر: الرضا عن الله بقضائه، ابن أبي الدنيا ص ٥٠.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/٥١٨، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٧٠، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٩، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ٢٤٥.

ثانيًا: الرضا المذموم:

١ . الرضا بالأقوال الباطلة.

ذم الله تعالى قومًا رضوا بالأقوال الباطلة، فقال عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢-١١٣].

أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أنه جعل له أعداء يخالفونه ويكذبونه ويعادونه، كما جعل ذلك لكل نبي تقدم قبله، فلا يهولنه ذلك، وأخبر سبحانه أن هؤلاء الأعداء هم شياطين من الإنس وشياطين من الجن، والشيطان كل عاتٍ متمرد من الجن والإنس، قالوا: وشياطين الإنس أشد تمردًا من شياطين الجن؛ لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس؛ ليفتنه، ومن صفات هؤلاء الشياطين أنهم يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم، وأنهم يزينون الأعمال القبيحة لبني آدم ويغرونهم بها على المعاصي، وأن هذا بمشيئة الله، وأن الله تعالى لو شاء لمنع الشياطين من إلقاء الوسوسة إلى الإنس والجن، ولكن الله يمتحن من يشاء من عباده بما يعلم أنه الأجزل له في الثواب إذا صبر على المحنة، ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[الأنعام: ١١٢].

يعني: فخلّهم يا محمد وما زين لهم إبليس وغرهم به من الكفر والمعاصي فإني من ورائهم، ثم أخبر سبحانه أن هؤلاء الشياطين إنما يخدعون ويغرون من هم على شاكلتهم من الكفار والضلال الذين لا يؤمنون بالله، وتميل نفوسهم إلى هذه الزخارف الباطلة ويرضون بها؛ لأنها توافق أهواءهم وشهوتهم، وأما المؤمنون بالله فلا يقبلون هذه الزخارف ولا يرضونها؛ لعلمهم ببطلانها ووخامة عاقبتها، وليرضوه لأنفسهم بعد ما مالت اليه أفئدتهم[١].

وفيه تحذير من الكفر وترغيب في الإيمان وتسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتنبيه له على ما أعد للكفرة من العقاب، وله من الثواب بسبب صبره على سفاهتهم وتلطفه بهم.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١٠٩، مراح لبيد، الجاوي ١/ ٣٤٢، تفسير المراغي ٨/ ٨.

٢. الرضا بالقعود عن الجهاد.

ذم الله تعالى قومًا رضوا بالتخلف عن الجهاد، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٦-٨٧].

وقد بين تعالى أن الأغنياء من هؤلاء المنافقين، إذا أنزل الله سورة فيها الأمر بالجهاد، استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن الجهاد والخروج معه لقتال أعداء الله من المشركين، ورضوا أن يكونوا في منازلهم كالنساء اللواتي ليس عليهن فرض الجهاد، فهن قعود في وبيوتهن، وقد كانت الرجولة تفترض فيهم أن يهبوا للقتال، لكنهم ارتضوا لأنفسهم ضعف النساء والأطفال. وقوله سبحانه: ﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧]، استئناف قصد منه التعجيب من دناءة نفوسهم وقلة رجولتهم بأنهم رضوا لأنفسهم بأن يكونوا تبعًا للنساء، وفي اختيار فعل (رضوا) إشعار بأن ما تلبسوا به من الحال من شأنه أن يتردد العاقل في قبوله، كما في قوله تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [التوبة: ٣٨].

وقوله جل جلاله: ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣].

والطبع تمثيل لحال قلوبهم في عدم قبول الهدى بالإناء أو الكتاب المختوم، والطبع مرادف الختم، وهو التغطية على الشيء والاستيثاق منه، فلا يدخله شيء، وأسند الطبع إلى المجهول إما للعلم بفاعله وهو الله، وإما للإشارة إلى أنهم خلقوا كذلك وجبلوا عليه، وفرع على الطبع انعدام علمهم بالأمور التي يختص بعلمها أهل الأفهام، وهو العلم المعبر عنه بالفقه، أي: إدراك الأشياء الخفية، أي: فآثروا نعمة الدعة على سمعة الشجاعة وعلى ثواب الجهاد؛ إذ لم يدركوا إلا المحسوسات؛ فلذلك لم يكونوا فاقهين، وذلك أصل جميع المضار في الدارين، وجيء في إسناد نفي الفقاهة عنهم بالمسند الفعلي؛ للدلالة على تقوي الخبر وتحقيق نسبته إلى المخبر عنهم وتمكنه منهم[(١)].

قال سيد قطب: «إن للذلّ ضريبة كما أن للكرامة ضريبة، وإن ضريبة الذلّ لأفدح في كثير من الأحايين، وإن بعض النفوس الضعيفة ليخيل إليها أن للكرامة ضريبة باهظة لا تطاق، فتختار الذل والمهانة؛ هربًا من هذه التكاليف الثقال، فتعيش عيشة تافهة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤١٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٨٩، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٢٥٦.

رخيصة، مفزعة قلقة، تخاف من ظلها، وتفرق من صداها، يحسبون كل صيحة عليهم، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، هؤلاء الأذلاء يؤدون ضريبة أفدح من تكاليف الكرامة، إنهم يؤدون ضريبة الذل كاملة، يؤدونها من نفوسهم، ويؤدونها من أقدارهم، ويؤدونها من سمعتهم، ويؤدونها من اطمئنانهم، وكثيرًا ما يؤدونها من دمائهم وأموالهم وهم لا يشعرون»[1].

٣. الرضا بالدنيا وزينتها.

ذم الله تعالى قومًا رضوا بالدنيا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨].

يخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا بلقاء الله يوم القيامة ولا يرجون في لقاء الله شيئًا، الذي هو أكبر ما طمع فيه الطامعون، وأعلى ما أمله المؤملون، بل أعرضوا عن ذلك، وربما كذبوا به ﴿وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بدلا عن الآخرة، ﴿وَاطْمَأَنُّوا بِهَا﴾، أي: ركنوا إليها، وجعلوها غاية مرامهم ونهاية قصدهم، فسعوا لها وأكبوا على لذاتها وشهواتها، بأي طريق حصلت حصلوها، ومن أي وجه لاحت ابتدروها، قد صرفوا إرادتهم ونياتهم وأفكارهم وأعمالهم إليها، فكأنهم خلقوا للبقاء فيها، وكأنها ليست دار ممرّ، يتزود منها المسافرون إلى الدار الباقية التي إليها يرحل الأولون والآخرون، وإلى نعيمها ولذاتها شمر الموفقون، ومن صفاتهم، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾، فلا ينتفعون بالآيات القرآنية، ولا بالآيات الكونية والنفسية، والإعراض عن الدليل مستلزم للإعراض والغفلة عن المدلول المقصود، ثم أخبر الله تعالى بما يستحقونه من الجزاء وهو نار جهنم، فبين سبحانه أن رضوانهم بالحياة الدنيا واطمئنانهم بها ناتج عن مرض الكفر بالله وبلقائه سبحانه، وأن ذلك كله مترتب على مرض الجهل الحاصل من حب الدنيا[2].

٤. الرضا عن المنافقين.

أخبر الله تعالى عن أخلاق المنافقين القبيحة وتخلفهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيمانهم الكاذبة وخوفهم

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٨٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٢١٠، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٤٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٩٩.

من المؤمنين ومحاولة استرضائهم، وأمر النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أن يعرضوا عنهم، فلا يأخذونهم باللّوم، ولا يضعونهم موضع الاتهام، فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].

وقد أخبر الله تعالى عن المنافقين الذين تخلفوا بقوله: إنهم سيحلفون معتذرين؛ لتعرضوا عنهم ولا تؤنبوهم، فأعرضوا عنهم إنهم رجس، والرجس: الخبث، والمراد: تشبيههم بالرجس في الدناءة ودنس النفوس، رجس معنوي، أي: خبثاء نجس بواطنهم واعتقاداتهم، ثم توعدهم أشد الوعيد، في قوله سبحانه: ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ثم أخبر عنهم بأنهم: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾، أي: الخارجين عن طاعة الله وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والفسق هو الخروج ومنه سميت الفأرة: فويسقة؛ لخروجها من جحرها، ويقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من أكمامها، وهذا أشد ما ذم الله به أحدًا من خلقه، حيث أمر عز وجل بالإعراض عنهم وعدم معاتبتهم؛ احتقارًا لهم، ثم أمر باجتنابهم، والابتعاد عنهم، ثم بيّن أن محاولتهم التخلص من التوبيخ والتأنيب، وإرضاء الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالأيمان الكاذبة لا تنفعهم في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأن الله سيفضح أمرهم، ويهتك سترهم في هذه السورة التي سميت الفاضحة.

قال أهل المعاني: هؤلاء طلبوا إعراض الصفح، فأعطوا إعراض المقت.

ثم ذكر العلة في وجوب الإعراض عنهم، فقال: إنهم رجس، والمعنى: أن خبث باطنهم رجس روحاني، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانية، فوجوب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية أولى؛ خوفًا من سريانها إلى الإنسان، وحذرًا من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال[1].

وفي الآيات السابقة: أن من أرضى الناس بسخط الله أسخطهم عليه وسخط عليه، ومن أسخط الناس في رضي الله أرضاهم عليه، ورضي عنه، فمن أقر منكرًا حياء أو خوفًا من الناس، فقد أسخط مولاه،

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٧٢، مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ١٢٤، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٤٨٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٩٤.

ومن أنكر منكرًا، ولم يراقب أحدًا، فقد أرضى مولاه، ومن راقب الناس لم يراقب الله، ومن راقب الله لم يراقب الناس، ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢][1].

٥. الرضا المشروط بالمنفعة.

أخبر الله تعالى عن حال المنافقين، وأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم لا للدين وما فيه صلاح أهله، بقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٨-٥٩].

أخبر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم عن سوء نية بعض المنافقين وخبث نفوسهم، وقبائحهم وفضائحهم، وجشعهم في الدنيا، وطعنهم في الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب أخذ الصدقات من الأغنياء، ويقولون: إنه يؤثر بها من يشاء من أقاربه وأهل مودته، وينسبونه إلى أنه لا يراعي العدل وأنه يحابي فيها، وسبب سخطهم أنهم يودون أن توزع الصدقات عليهم، فإذا رأوها توزع على غيرهم طعنوا في إعطائها بمطاعن يلقونها في أحاديثهم، ويظهرون أنهم يغارون على مستحقيها، ويشمئزون من صرفها في غير أهلها، وإنما يرومون بذلك أن تقصر عليهم، وقد عبر عن رضاهم بصيغة الماضي؛ للدلالة على أنه كان يكون لأجل العطاء في وقته وينقضي، فلا يعدونه نعمة يتمنون دوام الإسلام لدوامها، وعبر عن سخطهم بـ(إذا) الفجائية، وبالفعل المضارع؛ للدلالة على سرعته واستمراره، وهذا دأب المنافقين وخلقهم في كل زمان ومكان، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، أي: ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله من فضله بما أنعم عليهم من الغنائم وغيرها، وأعطاهم رسوله بقسمه للغنائم والصدقات كما أمره الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾، أي: هو حسبنا وكافينا في كل حال: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، أي: سيعطينا الله من فضله في المستقبل من الغنائم والكسب؛ لأن فضله دائم لا ينقطع، ويعطينا رسوله مما يرد عليه من الغنائم والصدقات زيادة مما أعطانا من قبل، لا يبخس أحدًا منا حقا يستحقه في شرع الله تعالى ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾، لا نرغب إلى غيره في شيء، وفي الآية إشارة للعبد أن لا يكون رضاه وغضبه، تابعًا لهوى نفسه الدنيوي وغرضه الفاسد، بل الذي ينبغي أن يكون هواه تبعًا لمرضاة ربه[2].

---

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٤٠٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٨٨، المنار، محمد رشيد رضا ١٠/ ٤٢١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٣١، تيسير الكريم

الرضا في المعاملات

إن الرضا في الشريعة الإسلامية مبدأ من المبادئ الأساسية في المعاملات، وسنذكر بعض المعاملات القائمة على التراضي، وهي ما يأتي:

أولًا: الرضا بالمهر:

إذا وجب المهر بين الزوجين وعلم فلا بأس أن يقع فيه التراضي بعد ذلك بين الرجال والنساء في تركه كله أو بعضه أو الزيادة عليه.

قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٢٤].

لما بين الله تعالى ما يحل من النساء وما يحرم، وأخبر أن المهر فريضة واجبة للنساء على الرجال، وأنه في مقابلة الاستمتاع، وأخبر سبحانه أن هذه الفريضة قائمة على التراضي بين الزوجين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ﴾، أي: لا حرج ولا تضييق عليكم منه تعالى إذا تراضيتم بعد الفريضة على الزيادة فيها أو النقص منها أو حطها كلها، فإن الغرض من الزوجية أن تكونوا في عيشة راضية ومودة ورحمة تصلح بها شئونكم، وترتقي بها أمتكم، والشرع يضع لكم قواعد العدل، ويهديكم مع ذلك إلى الإحسان والفضل، وهو كقوله تعالى: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

وقوله جل وعلا: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[النساء: ٢٤].

فيضع لعباده من الشرائع بحكمته ما يعلم أن فيه صلاح حالهم ما تمسكوا به، ومن ذلك أن أوجب على الرجل أن يفرض لمن يريد الاستمتاع بها أجرًا يكافئها به على قبول قيامه ورياسته عليها، ثم أذن له ولها في التراضي على ما يريان الخير فيه لهما والائتلاف والمودة بينهما[1].

وذهبت الشيعة إلى أن المراد بالآية:

الرحمن، السعدي ص ٣٤٠، البحر المديد، ابن عجيبة ٢/ ٣٩٤.

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٤٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٥، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٤٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٥٩، المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١١، روح المعاني، الألوسي ٣/ ٧.

(نكاح المتعة)، ونكاح المتعة: هو نكاح المرأة إلى أجل معين كيوم أو أسبوع أو شهر، ولا خلاف أنه كان مرخصًا فيه في بدء الإسلام، وأباحه النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه في بعض الغزوات؛ لبعدهم عن نسائهم، فرخص فيه مرة أو مرتين؛ خوفًا من الزنا، فهو من قبيل ارتكاب أخف الضررين، ثم نهى عنه نهيًا مؤبدًا؛ لأن المتمتع به غالبًا لا يكون مقصده الإحصان، وإنما يكون مقصده الاستمتاع فقط.

وقد نهى سيدنا عمر رضي الله عنه في خلافته عن نكاح المتعة، وأعلن بتحريمه على المنبر، وأقر الصحابة له على ذلك، ومنع نكاح المتعة يقتضي منع النكاح بنية الطلاق، ولكن بعض الفقهاء أجازوه إذا نواه الرجل ولم يشترطه في العقد، وإن كان كتمانه يعد خداعًا وغشًّا وعبثًا بهذه الرابطة العظيمة التي هي أعظم الروابط البشرية، وإيثارًا للتنقل في مراتع الشهوات، إلى ما يترتب على ذلك من العداوة والبغضاء، وذهاب الثقة بين الزوجين حتى بالصادقين الذين يريدون بالزواج الإحصان، والتعاون على تأسيس البيت الصالح والعيشة السعيدة، ولا شك أن الإسلام بقيمه السامية وأخلاقه الرفيعة لا يقبل بأي حال من الأحوال بهذا النوع من النكاح ولا يرتضيه، وليس من خلق المسلم هذا العمل القبيح، بل إن هذا العمل منكر[(١)].

قال البقاعي: «ولما ذكر في هذه الآيات أنواعًا من التكاليف هي في غاية الحكمة، والتعبير عنها في الذروة العليا من العظمة، وختمها بإسقاط الجناح عند الرضى، وكان الرضى أمرًا باطنًا لا يطلع عليه حقيقة إلا الله تعالى، حثّ على الورع في شأنه بنوط الحكم بغلبة الظن، فقال: مرغبًا في امتثال أوامره ونواهيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾، أي: الذي له الإحاطة التامة علمًا وقدرة ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾، أي: بمن يقدم متحرّيًا لرضى صاحبه أو غير متحرٍّ لذلك ﴿حَكِيمًا﴾، أي: يضع الأشياء في أمكن مواضعها من الجزاء على الذنوب وغيره»[(٢)].

ثانيًا: الرضا بالنفقة:

إن الله سبحانه وتعالى تعهد نساء النبي صلى الله عليه وسلم بالإرشاد والتأديب؛ لأنهن الأسوة والقدوة الحسنة، قال تعالى: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ

(١) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٣/ ١٠٦، تفسير السمرقندي ١/ ٢٩٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٤٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٣٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٥٩، نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٣٤، المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ١١.
(٢) نظم الدرر، البقاعي ٥/ ٢٣٤.

﴿بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٥١].

بينت الآيات أن الله سبحانه فوض الأمر إلى رسوله صلى الله عليه وسلم كي يصنع مع زوجاته ما شاء، من تقديم وتأخير، وعزل وإمساك، وضم من أرجأ، وإرجاء من ضم إليه، وما شاء في أمرهن فعل توسعة عليه، ونفيًا للحرج عنه، وكان القسم والتسوية واجبًا عليه، فلما نزلت هذه الآية سقط عنه وصار الاختيار إليه فيهن، فصار حق المبيت حقًّا له لا لهن بخلاف بقية المسلمين، ثم أبان الله تعالى سبب هذا التفويض للنبي صلى الله عليه وسلم في الإيواء والإرجاء وأنه لمصلحتهن، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعۡيُنُهُنَّ وَلَا يَحۡزَنَّ وَيَرۡضَيۡنَ بِمَآ ءَاتَيۡتَهُنَّ كُلُّهُنَّۚ﴾، أي: إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج في القسم، وأنه غير واجب عليك، فإن شئت قسمت، وإن شئت لم تقسم، وأنت مع ذلك تقسم لهن باختيارك لا جبرًا عنك، فرحن بذلك، واستبشرن به، وقدّرن جميلك، واعترفن بمنتك عليهن في قسمك لهن، وتسويتك بينهن، وإنصافك لهن، وعدلك فيهن، ورضين كلهن بما تفعل، دون إقلاق ولا بلبلة؛ لأن المرء إذا علم أنه لا حق له في شيء كان راضيًا بما أوتي منه وإن قلّ، وإن علم أن له حقًّا لم يقنعه ما أوتي منه، واشتدت غيرته عليه، وعظم حرصه فيه، فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر إليه في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، واستقرار أعينهن على ما يسمح به منه لهن، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه، ومع هذا التخيير للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أنه لم يأخذ لنفسه به تكرمًا منه على أزواجه، قال الزهري: «ما علمنا أن رسول الله أرجأ أحدًا من أزواجه بل آواهن كلهن»، فقد كان صلى الله عليه وسلم يجتهد في القسم بينهن في كل شيء، روى أحمد، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة قالت: كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول: **(اللهم هذا فعلي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك)**[1]، يعني: القلب، وزيادة الحب لبعض دون بعض[2].

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٢٥١١١، ٤٢/ ٤٦، والترمذي في سننه، أبواب النكاح، باب ما جاء في التسوية بين الضرائر، رقم ١١٤٠، ٣/ ٤٣٨، والنسائي في سننه، كتاب عشرة النساء، باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض، رقم ٣٩٤٣، ٧/ ٦٣، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء، رقم ١٩٧١، ١/ ٦٣٣.
وصححه ابن الملقن في البدر المنير ٨/ ٤٠.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٧٨، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٢٩٨، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦٥٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ١٧٦، لباب التأويل، الخازن ٣/ ٤٣٢، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٠، تفسير المراغي ٢٢/ ٢٥، التفسير المنير، الزحيلي ٢٢/ ٦٧.

وفي هذه الآيات حث على تحسين ما في القلوب، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبر الله له من ذلك، وفوضه إلى مشيئته، وبعث على تواطؤ قلوبهن، والتصافي بينهن، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيه توجيه لجميع المؤمنات أن يرضين بما قسم الله تعالى لهن من النفقة فلا يكلفن أزواجهن ما لا يطيقون، فقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]، خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ولأزواجه، ويندرج فيه جميع المؤمنين والمؤمنات وجمع بجمع الذكور؛ للتغليب[(١)].

ثالثًا: الرضا بالشهادة:

ذكر القرآن الكريم أن من شرط الشاهد أن يكون عدلًا مرضيًّا عنه.

قال تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

فقد أمرنا الله سبحانه بأن نحمّل الشهادة المحتاج إليها لأهل العدل والرضا، فقوله تعالى: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قالوا: أي ممن ترضون دينهم وعدالتهم حال كونهم من الشهداء، وهو عام في كل شاهد، وإنما وصف الرجل مع المرأتين بهذا الوصف؛ لضعف شهادة النساء وقلة ثقة الناس بها، ولذلك وكل الأمر فيه إلى رضا المستشهدين، ثم بين علة جعل المرأتين بمنزلة رجل واحد بقوله عز وجل: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أن تضل إحداهما أي: تخطئ؛ لعدم ضبطها وقلة عنايتها، فتذكّر كل منهما الأخرى بما كان، فتكون شهادتها متممة لشهادتها، أي: إن كلًّا منهما عرضة للخطأ والضلال، أي: الضياع وعدم الاهتداء إلى ما كان وقع بالضبط، فاحتيج إلى إقامة الثنتين مقام الرجل الواحد؛ لأنهما بتذكير كل منهما للأخرى تقومان مقام الرجل، ولهذا أعاد لفظ إحداهما مظهرًا، وليس المعنى: لئلا تنسى واحدة فتذكرها الثانية، كما فهم كثير من المفسرين[(٢)].

وجملة القول فيمن تقبل شهادته: أن تجتمع فيه عشر خصال: أن يكون حرًّا بالغًا مسلمًا عدلًا عالمًا بما يشهد به، ولا يجر بشهادته إلى نفسه منفعة، ولا يدفع عن

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٥٥٢، التفسير الوسيط، طنطاوي ١١/ ٢٣٣.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٩٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٩٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٧/ ٩٥، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٠٦، المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٠٣.

نفسه مضرّة، ولا يكون معروفًا بكثرة الغلط ولا يترك المروءة، ولا يكون عنده لين، ولا يشهد عليه عبده، فإذا اجتمعت فيه هذه الخصال كان مقبول القول جائز الشهادة، فشهادة الكافر مردودة؛ لأن الكذاب لا تقبل شهادته، فالذي يكذب على الله أولى بأن ترد شهادته، وجوز بعض أهل الرأي شهادة أهل الذمة بعضهم على بعض، ولا تقبل شهادة العبيد، وأجازها ابن شريح وابن سيرين وهو قول أنس، ولا قول للمجنون معتبر حتى تصح شهادته، ولا تجوز شهادة الصبيان، وسئل ابن عباس عن ذلك فقال: «لا تجوز؛ لأن الله تعالى قال: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

والعدالة شرط: وهو أن لا يكون الشاهد مقيمًا على الكبائر مصرًّا على الصغائر، والمروءة شرط: وهي ما تتصل بآداب النفس مما يعلم أن تاركه قليل الحياء، وهي حسن الهيئة والسيرة والعشرة والصناعة، فإن كان الرجل يظهر في نفسه شيئًا مما يستحيي أمثاله من إظهاره في الأغلب علم بذلك قلة مروءته وترد شهادته، وانتفاء التهمة شرط: فلا تقبل شهادة العدو على عدوه، وإن كان مقبول الشهادة على غيره؛ لأنه متهم في حق عدوه لا في حق غيره، ولا تقبل شهادة الرجل لولده ووالده وتقبل شهادته عليهما، ولا تقبل شهادة من يجر بشهادته إلى نفسه نفعًا، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تجوز شهادة خائن، ولا خائنة، ولا محدود في الإسلام، ولا ذي غمر على أخيه)[1].

قال الفزاري: «أراد بالخيانة الخيانة في الدين والمال والأمانة، فإن من ضيع شيئًا من أوامر الله أو ارتكب شيئًا مما نهى الله عنه لا يكون عدلًا، والغمر -بكسر الغين-: الحقد»[2].

وفي الآية دليل على تفويض القبول في الشهادة إلى الحاكم؛ لأن الرضا معنى يكون في النفس بما يظهر إليها من الأمارات عليه، ويقوم من الدلائل المبينة له، ولا يكون غير هذا؛ فإنا لو جعلناه لغيره لما وصل إليه إلا بالاجتهاد، واجتهاده أولى من اجتهاد غيره، وقصر الشهادة على الرضا خاصة؛ لأنها ولاية عظيمة؛ إذ هي تنفيذ قول الغير على الغير؛ فمن حكمه أن يكون له شمائل

(١) أخرجه أحمد في مسنده رقم ٦٦٩٨، ١١/ ٢٩٩، وابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب من لا تجوز شهادته، رقم ٢٣٦٦، ٢/ ٧٩٢.
وحسنه الألباني في إرواء الغليل ٨/ ٢٨٣.

(٢) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ٢٩٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٣٩٤، مفاتيح الغيب، الرازي، ٧/ ٩٥، لباب التأويل، الخازن ١/ ٢١٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٠٦، المنار، محمد رشيد رضا ٣/ ١٠٣.

ينفرد بها، وفضائل يتحلى بها حتى يكون له مزية على غيره توجب له تلك المزية رتبة الاختصاص بقبول قوله على غيره، ويقضى له بحسن الظن، ويحكم بشغل ذمة المطلوب بالحق بشهادته عليه، ويغلب قول الطالب على قوله بتصديقه له في دعواه[(١)].

رابعًا: الرضا بالتجارة:

نهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أن يأكلوا أموال بعضهم بعضًا بالباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩].

أي: لا تأكلوا أموالكم بينكم بأنواع المكاسب التي هي غير شرعية، كأنواع الربا والقمار، والغصب والسرقة والخيانة وشهادة الزور، وأخذ المال باليمين الكاذبة، وجحد الحق ونحو ذلك.

وإنما خص الأكل بالذكر ونهى عنه؛ تنبيهًا على غيره من جميع التصرفات الواقعة على وجه الباطل؛ لأن معظم المقصود من المال الأكل، وقيل: يدخل فيه أكل ماله بالباطل، وأكل ماله بالباطل: هو إنفاقه في المعاصي، ويدخل في أكل المال الباطل جميع العقود الفاسدة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء: ٢٩].

هذا الاستثناء منقطع؛ لأن التجارة عن تراض ليست من جنس أكل المال بالباطل، فكان الاستثناء هاهنا بمعنى: لكن يحل أكله بالتجارة عن تراض، يعني: بطيبة نفس كل واحد منكم، وقيل: هو أن يخير كل واحد من المتبايعين صاحبه بعد البيع فيلزم، وإلّا فلهما الخيار ما لم يتفرقا؛ لما روي عن ابن عمران أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إذا تبايع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا وكانا جميعًا أو يخير أحدهما الآخر، فإن خيّر أحدهما الآخر فتبايعا على ذلك فقد وجب البيع، وإن تفرقا بعد أن تبايعا ولم يترك واحد منهما البيع فقد وجب البيع)**[(٢)].

وانما خص التجارة بالذكر؛ لكونها أغلب أسباب المكاسب وقوعًا، وأوفقها

---

(١) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ١/ ٣٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب إذا خير أحدهما صاحبه بعد البيع فقد وجب البيع، رقم ٢١١٢، ٣/ ٦٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الطلاق، باب ثبوت خيار المجلس للمتبايعين، رقم ١٥٣١، ٣/ ١١٦٣.

لذوى المروءات[1].

خامسًا: الرضا بفسخ العقود:

ذكر القرآن الكريم الفسخ بالرضا في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

بينت الآية أن مدة الرضاع حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، والتقدير: والوالدة مأمورة بإرضاعه حولين كاملين إذا أريد إتمام الرضاعة؛ فإذا أرادت الإتمام كانت مأمورة بذلك، وكان على الأب رزقها وكسوتها، وإن أراد الأب الإتمام كان له ذلك؛ فإنه لم يبح الفصال إلا بتراضيهما جميعًا.

وفيه دليل على أنه يجوز الفطام قبل ذلك إذا كان لمصلحة، وقد بين ذلك بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وذلك يدل على أنه لا يفصل إلا برضى الأبوين، فلو أراد أحدهما الإتمام والآخر الفصال قبل الستين كان الأمر لمن أراد الإتمام؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣][2].

قال الإمام الماوردي: «وفي زمان هذا الفصال عن تراض قولان:

أحدهما: أنه قبل الحولين إذا تراضى الوالدان بفطام المولود فيه جاز، وإن رضي أحدهما وأبى الآخر لم يجز، وهذا قول مجاهد، وقتادة، والزهري، والسدي.

والقول الثاني: أنه قبل الحولين وبعده، وهذا قول ابن عباس»[3].

وعلى هذه الآية اعتبر الفقهاء الرضا في فسخ العقود اللازمة الصحيحة من طرفي العقد؛ لأن العقد انعقد بتراضيهما، فلا ينفرد بالفسخ؛ لعدم ولايته، وإذا فسخ لا ينفسخ إلا بتراضيهما على الفسخ، فيلزمهما بتراضيهما.

فقد أجاز العلماء إلغاء التصرفات والعقود غير اللازمة من جانب المتعاقدين،

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٣٨، الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠٢، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤١، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٥١، لباب التأويل، الخازن ١/ ٣٦٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٦٨.

(٢) انظر: الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٣/ ٣٧١.

(٣) النكت والعيون ١/ ٣٠١.

أما في العقود اللازمة من جانب واحد فإنه يصح الإلغاء من الجانب الآخر غير الملتزم به كالوصية.

وأما في العقود والتصرفات الملزمة فلا يرد عليها الإلغاء بعد نفاذها إلا برضا العاقدين، كما في الإقالة، أو بوجود سبب مانع من استمرار العقد كظهور الرضاع بين الزوج والزوجة، وقد يكون هنا الإلغاء بمعنى الفسخ[١].

قال بدر الدين الزركشي: «سائر العقود تقبل الفسخ بالتراضي، وحكى الرافعي في أول الخلع قولين في أن النكاح هل يقبل الفسخ بالتراضي؟ أحدهما: نعم كالبيع، والثاني: لا؛ لأن وضع النكاح على الدوام والتأبيد، وإنما يفسخ؛ لضرورة عظيمة تدعو إليه، وجعلها أصل الخلاف في أن الخلع طلاق أو فسخ، وهذا في العقود اللازمة، أما الجائزة فلا يشترط تراضيهما، بل لكل منها الفسخ، وكذلك في الجائزة من أحد الطرفين كالمرتهن يفسخ الرهن، والعبد يفسخ الكتابة، والعامل في الجعالة ونحوه»[٢].

موضوعات ذات صلة:

السعادة، الغضب، القدر، المحبة

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية ٦/ ١٨٥.
(٢) المنثور في القواعد الفقهية ٣/ ٤٧.







عناصر الموضوع

مفهوم الرفعة	٢٥٦
الرفعة في الاستعمال القرآني	٢٥٧
الألفاظ ذات الصلة	٢٥٨
الرفعة في حق الله تعالى	٢٦٠
أنواع الرفعة	٢٦٢
أسباب تحصيل الرفعة	٢٨٦
أسباب الحرمان من الرفعة في الآخرة	٢٨٩

المجلد السادس عشر

مفهوم الرفعة

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ر ف ع) تدل على خلاف الوضع، تقول: رفعت الشيء رفعًا إذا جعلته عاليًا.

كما يأتي الرفع بمعنى: تقريب الشيء، قال الله تعالى: ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾﴾ [الواقعة: ٣٤] أي: مقربة لهم، ومن ذلك قوله: رفعته للسلطان، أي: قربته منه.

ويأتي الرفع كذلك بمعنى: إذاعة الشيء وإظهاره[(١)].

والرفع قد يكون حسيًّا ؛ كرفع البناء ورفع القواعد، ومنه في القرآن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة: ١٢٧]. وقوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ [البقرة: ٦٣].

وقد يكون معنويًّا؛ كارتفاع الدرجة والمنزلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢]. وقوله جل وعلا: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ويقال: رَفُعَ رِفْعَةً، أي: ارتفع قدره[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الرفعة: الإعلاء والتشريف ورفع القدر والمنزلة[(٣)].

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٤، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٧٩، القاموس المحيط لإبراهيم مصطفى ص ٧٢٢، تاج العروس، الزبيدي ٢١/ ١١١، الكليات، الكفوي ص ٤٧٧.

(٢) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٢١.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٠، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٧٩.

الرفعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (رفع) في القرآن الكريم (٢٩) مرة، وما جاء منها بمعنى الرفعة (١٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]
الفعل المضارع	٤	﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]
اسم الفاعل	١	﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾ [الواقعة: ٣]
اسم المفعول	١	﴿مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ۝١٤﴾ [عبس: ١٤]
صيغة مبالغة	١	﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: ١٥]

وجاءت الرفعة في القرآن بمعناها اللغوي، وهو: نقيض الذلة، وخلاف الضعة.

وهي تقال تارة في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها عن مقرها، وتارة في البناء إذا طوّلته، وتارة في الذكر إذا نوّهته، وتارة في المنزلة إذا شرّفتها[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن، عبدالله جلغوم، ص٥٩٠-٥٩١.

(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٦٠-٣٦١.

الألفاظ ذات الصلة

١ العلو:

العلو لغة:

السموّ والارتفاع والشرف، ومنه قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣][١].

العلو اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي، الدال على الارتفاع، ويستعمل في الأمكنة والأجسام أكثر، وفي المحمود والمذموم[٢].

الصلة بين الرفعة والعلو:

الرفعة والعلو في اللغة بمعنى واحد، وهو الفوقية[٣].

٢ السمو:

السمو لغة:

هو الارتفاع والعلو فيقال للشريف والملك سمو فلان، والسماء معروفة[٤].

السمو اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي الدال على العلو والشرف والرفعة والعظمة[٥].

الصلة بين الرفعة والسمو:

الرفعة تقال في الأعيان والمعاني، أما السمو لا يكون إلا في المعاني، والرفع في الأعيان كرفع البناء، والرفع في المعاني كرفع درجة العلم.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٢/ ٢٤٥، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١١٣، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٢٥.
(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٤٦.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٥٨.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٩٨، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٩٧.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٤٠٥، غريب الحديث، ابن قتيبة ١/ ٤٧٣، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٧، المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٩٠.

٣ المنزلة:

المنزلة لغة:

هي المكانة والمرتبة والدرجة، يقال: له منزلة عند الأمير، وهو رفيع المنزل والمنازل[(١)].

المنزلة اصطلاحًا:

لا يخرج المعنى الاصطلاحي للمنزلة عن المعنى اللغوي له الدال على المكانة.

الصلة بين الرفعة والمنزلة:

الرفعة تقال في الأعيان والمعاني، والمنزلة: تقال في الأمور المعنوية[(٢)].

٤ الضعة:

الضِّعة لغة:

خلاف الرفعة في القدر، والأصل وضعة، والوضيع: الدنيء من الناس[(٣)].

الضعة اصطلاحًا:

هي الذل والهوان والدناءة والخسة، والوضيع: ضد الشريف، وهو المحطوط القدر الدنيء، وهو لا يختلف عن المعنى اللغوي[(٤)].

الصلة بين الرفعة والضعة:

يظهر من خلال بيان الفرق بين الرفعة والضعة أن بينهما علاقة تضادّ.

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٩/ ٤٦، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٦٥٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٠/ ٤٨٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩١٥.
(٢) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٠/ ٤٨٢.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٤٨، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٣٩٧.
(٤) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ١٠٤٠.

الرفعة في حق الله تعالى

إن الله تعالى هو رفيع الدرجات وهو كناية عن رفعة شأنه وسلطانه عز شأنه، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع درجات الخلق في العلم والأخلاق الفاضلة والرزق وغيرها، وإن من لم يرفعه الله فهو موضوع، فهو الخافض الرافع سبحانه، وفي هذا البحث بيان معنى الرفيع.

يقول تعالى مخبرًا عن عظمته وكبريائه، وعلوه على جميع المخلوقات التي أعلاها وأعظمها عرشه العظيم العالي على جميع مخلوقاته كالسقف لها.

قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾ [غافر: ١٥].

وقال سبحانه: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٣-٤].

والرفعة في حق الله تعالى تأتي صفة ذات وصفة فعل، فالأول: اسم الله رفيع الدرجات، والثاني: اسم الله الرافع[(١)].

١ . اسم الله رفيع الدرجات.

وصف الله تعالى نفسه بأنه رفيع الدرجات ذو العرش، وهي رفعة الذات على جميع المخلوقات، وفوق كل شيء، وليس فوقه شيء، فذكر العرش عند هذه الصفة من أدلة فوقيته تعالى، ودليل على أنه في السماء على العرش، لأن ﴿ذُو﴾ نعت، ولا يكون إلا نعت استوائه عليه، وكذا قال في سورة البروج: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [البروج: ١٥].

فهو سبحانه وتعالى الكبير المتعال، ذو العرش والسلطان، المتفرد بهذا المقام العالي، والسلطان العظيم، لا يشاركه أحد، ولا ينازعه سلطان، ورفعة القدر وهي رفعة صفاته وعظمتها، وأنه أرفع الموجودات وأعلاها في جميع صفات الجلال والإكرام، الذي لا أرفع قدرًا منه، وهو المستحق لدرجات المدح والثناء، فلا ريب أنه سبحانه أشرف الموجودات وأجلها رتبة من جهة استغنائه في وجوده وفي جميع صفات وجوده عن كل ما سواه، وافتقار كل ما سواه إليه في الوجود وفي توابع الوجود، فهو سبحانه الرفيع في جميع صفات الكمال والجلال، فله الكمال المطلق في كل صفة وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم الذي هو أول لكل ما سواه، وليس له أول، وآخر لكل ما سواه، وليس له آخر، وهو العالم بجميع الذوات والصفات والكليات والجزئيات، كما قال تعالى:

(١) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٧٠، فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥٦.

﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وهو أعلى القادرين وأرفعهم، لأنه في وجوده وجميع كمالات وجوده غني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فإنه محتاج في وجوده وفي جميع كمالات وجوده إليه، وهو الواحد الذي يمتنع أن يحصل له ضد وند وشريك ونظير[1].

والدرجات مستعارة للمجد والعظمة، وجمعها إيذان بكثرة العظمات باعتبار صفات مجد الله التي لا تحصر، والمعنى: أنه حقيق بإخلاص الدعاء إليه، وإجراء وصف ذي المعارج على اسم الجلالة لاستحضار عظمة جلاله، ولإدماج الإشعار بكثرة مراتب القرب من رضاه وثوابه، فإن المعارج من خصائص منازل العظماء.

قال تعالى: ﴿لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

ولكل درجة المعارج قوم عملوا لنوالها، قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وليكون من هذا الوصف تخلص إلى ذكر يوم الجزاء الذي يكون فيه العذاب الحق للكافرين[2].

٢. اسم الله الرافع.

وإن فسرناه بالرافع، كان معناه أن كل درجة وفضيلة ورحمة ومنقبة حصلت لشيء سواه، فإنما حصلت بإيجاده وتكوينه وفضله ورحمته.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

أي: رافع درجات الخلق في العلم والأخلاق الفاضلة، كما قال سبحانه: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وكذا في الرزق والأجل، قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وجعل للملائكة مقامات معينة.

قال جل وعلا: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤].

وللأجسام البسيطة العلوية والسفلية درجات معينة كما يشهد به علم الهيئة، أو يراد رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة، وجعل لكل أحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٤٧، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٠، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٠٦.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٠٦، ٢٩/ ١٥٦.

السعادة وموجبات الشقاوة، وفي الآخرة آثار لظهور تلك السعادة والشقاء[1].

ويجوز أن يكون رفيع من أمثلة المبالغة، أي كثير رفع الدرجات لمن يشاء، وهو معنى قوله تعالى: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾ [يوسف: ٧٦].

وإضافته إلى الدرجات من الإضافة إلى المفعول، فيكون راجعًا إلى صفات أفعال الله تعالى[2].

وفي هذه الآيات تثبيت للمؤمنين على عبادة الله تعالى وترغيب لهم بالتعرض إلى الدرجات العالية التي أعدها الله تعالى لعباده المؤمنين.

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٢٠٠، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٤٧، تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ١٠، الكشاف، الزمخشري ٤/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٥/ ٢٩٩.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ١٠٦.

أنواع الرفعة

تأتي الرفعة في القرآن الكريم على أنواع، الأول: الرفعة في الدنيا، والثاني: الرفعة في الآخرة، فالأول رفعة الأنبياء والرسل والعلماء والمؤمنين والأعمال الصالحة والشعائر والملك والحكم والقرآن والبيت الحرام والتفاوت في الدرجات بين الناس، والثاني: الرفعة في الآخرة، وهو درجات الجنة ونعيمها، وسيكون بيان ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الرفعة في الدنيا:

١ . رفعة الأنبياء والرسل.

ذكر الله تعالى أن الرسل والأنبياء هم أرفع درجة في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال تعالى: ﴿۞ تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ٨٣﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء: ٥٥].

وقال تعالى عن إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: ٥٧].

بينت الآيات فضيلة الرسل والأنبياء

عليهم السلام وارتفاع درجاتهم وعلو منزلتهم، وتمجيد سمعتهم، وتعليم المسلمين أن هذه الفئة الطيبة مع عظيم شأنها قد فضل الله بعضها على بعض، وأسباب التفضيل لا يعلمها إلا الله تعالى، غير أنها ترجع إلى ما جرى على أيديهم من الخيرات المصلحة للبشر ومن نصر الحق، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أيدوا به من الشرائع العظيمة، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: **(لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس)**[1].

فما بالك بمن هدى الله بهم أممًا في أزمان متعاقبة، ومن أجل ذلك كان محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الرسل، ويتضمن الكلام ثناء عليهم وتسلية للرسول عليه السلام فيما لقي من قومه، وللتفاضل بينهم قال عليه الصلاة والسلام: **(فضلت على الأنبياء بست: أوتيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، وختم بي النبيون، وأرسلت إلى الناس كافة)**[2][3].

وأجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين، ثم بعده إبراهيم، ثم موسى على المشهور، وعلى أن الرسل أفضل من بقية الأنبياء، وأن أولي العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧].

وقوله تعالى: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ [الشورى: ١٣][4].

وفي قوله سبحانه: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

أشار بالبعيد لعلو مرتبتهم في الكمال وسمو درجتهم، وهو إشارة إلى جميع الرسل، فتكون الألف واللام للاستغراق، وقيل: هو إشارة إلى الأنبياء المذكورين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فضل من أسلم على يديه رجل، رقم ٣٠٠٩، ٤/ ٦٠، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، رقم ٢٤٠٦، ٤/ ١٨٧٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، رقم ٥٢٣، ١/ ٣٧١.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٦٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٣٤، تفسير السمرقندي ١/ ١٦٦، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥١٧.

(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٥٢١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٨٨.

في هذه السورة، وقيل: إلى الأنبياء الذين بلغ علمهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم بين تفضيلهم، فقال تعالى: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، مثل موسى عليه السلام، ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، يعني إدريس عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ [مريم: ٥٧].

وجعل بعضهم خليلًا، وبعضهم ملكًا، وسخّر لبعضهم الريح والشياطين، وأحيا ببعضهم الموتى، وأبرأ الأكمه، والأبرص[1].

ذكر الفقهاء في هذه الآية الكريمة، أعني قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] إشكالًا قويًّا معروفًا، ووجهه: أنه ثبت في حديث أبي هريرة المتفق عليه أنه صلى الله عليه وسلم قال: **(لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أفاق قبلي أم كان ممن استثنى الله)**[2].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٢٢، التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٣٦٣، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٣٤، تفسير السمرقندي ١/ ١٦٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، رقم ٢٤١١، ٣/ ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٧٣، ٤/ ١٨٤٤.

وثبت أيضًا في حديث أبي سعيد المتفق عليه: **(لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة)**[3] الحديث.

وفي رواية: **(لا تفضلوا بين أنبياء الله)**[4].

وفي رواية: **(لا تخيروني من بين الأنبياء)**[5].

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل. وفي هذا نظر.

والثاني: أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع.

والثالث: أن هذا نهي عن التفضيل في مثل هذا الحال التي تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر.

والرابع: لا تفضلوا بمجرد الآراء

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الخصومات، باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، رقم ٢٤١٢، ٣/ ١٢١، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٧٤، ٤/ ١٨٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وإن يونس لمن المرسلين)، رقم ٣٤١٤، ٤/ ١٥٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٧٣، ٤/ ١٨٤٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: (ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه)، رقم ٤٦٣٨، ٦/ ٥٩.

والعصبية.

والخامس: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل، وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به.

وقيل: إن المنع من التفضيل إنما هو من جهة النبوة التي هي خصلة واحدة لا تفاضل فيها، وإنما التفضيل في زيادة الأحوال والخصوص والكرامات والألطاف والمعجزات المتباينات، وأما النبوة في نفسها فلا تتفاضل، وإنما تتفاضل بأمور أخر زائدة عليها.

قال الشنقيطي: «وهذا قول حسن، فإنه جمع بين الآي والأحاديث من غير نسخ، والقول بتفضيل بعضهم على بعض، إنما هو بما منح من الفضائل وأعطى من الوسائل، وقد أشار ابن عباس إلى هذا فقال: «إن الله فضل محمدا صلى الله عليه وسلم على الأنبياء وعلى أهل السماء، فقالوا: بم يا ابن عباس فضله على أهل السماء؟ فقال: إن الله تعالى قال: ﴿ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [الفتح: ١-٢].

قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال الله عز وجل لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ: ٢٨] فأرسله إلى الجن والإنس»[(١)].

وقال أبو هريرة: «خير بني آدم نوح وإبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم، وهم أولو العزم من الرسل»[(٢)].

وهذا نص من ابن عباس وأبي هريرة في التعيين، ومعلوم أن من أرسل أفضل ممن لم يرسل؛ فإن من أرسل فضل على غيره بالرسالة، واستووا في النبوة إلى ما يلقاه الرسل من تكذيب أممهم وقتلهم إياهم، وهذا مما لا خفاء به»[(٣)].

قال ابن عطية: «ونص الله في هذه الآية على تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وذلك في الجملة دون تعيين مفضول، وهكذا هي الأحاديث عن النبي عليه السلام، فإنه قال:

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب دلائل النبوة، باب ما أعطي النبي صلى الله عليه وسلم من الفضل، رقم ٤٧، ١/ ١٩٤، والطبراني في المعجم الكبير، رقم ١١٦١٠، ١١/ ٢٣٩.

(٢) أخرجه البزار في مسنده، رقم ٩٧٣٧١، ٧/ ١٤١، والخلال في السنة، رقم ٣٢٤، ١/ ٢٦٤، وابن الأعرابي في معجمه، رقم ٨٨، ١/ ٦٤.
قال المناوي: إسناده صحيح.
انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير ١/ ٥٢٤.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٣٣٨، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٦٢، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٦٧١، أضواء البيان، الشنقيطي ١/ ١٥٦.

(أنا سيد ولد آدم ولا فخر)[(١)]، ولم يعين.

ومنع التفضيل على طريق الخصوص، كقوله صلى الله عليه وسلم: (لا تفضلوني على موسى)[(٢)]، وقوله صلى الله عليه وسلم: (لا ينبغي لأحد أن يقول أنا خير من يونس بن متى)[(٣)]، وفي هذا نهي شديد عن تعيين المفضول»[(٤)].

وقد ذكر القرآن الكريم بعض الأنبياء وخصهم بالرفعة وهم:

- إدريس عليه السلام.

لقد أثنى القرآن الكريم على إدريس عليه السلام وبيّن علو مكانه.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: ٥٦-٥٧].

إدريس عليه السلام، هو من ذرية آدم الأولين، وهو جدّ أعلى لنوح[(٥)]، ولهذا اختصّ بالذكر؛ لأنه ليس من الأنبياء الذين جاءوا من ذرية إبراهيم، ووصفه الله تعالى بأمور، أنه كان صديقًا، وأنه كان نبيًّا، وثالثها: قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: ٥٧].

وفيه قولان:

أحدهما: أنه من رفعة المنزلة، كقوله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤﴾ [الشرح: ٤].

فإن الله تعالى شرفه بالنبوة وأنزل عليه ثلاثين صحيفة.

الثاني: أن المراد به الرفعة في المكان إلى موضع عال.

ثم اختلفوا فقال بعضهم: إن الله رفعه إلى السماء، وإلى الجنة، وهو حي لم يمت.

وقال آخرون: بل رفع إلى السماء وقبض روحه.

وقيل: إن الله جلّ ذكره جعله في السماء الرابعة قاضيًا، كالملك في وسط ملكه، وجعل خزائن السموات بيده.

وقيل: رفع إلى السماء السادسة، واعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٠٩٨٧، ١٧/ ١٠، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة بني إسرائيل، رقم ٣١٤٨، ٥/ ٣٠٨، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الشفاعة، رقم ٤٣٠٨، ٢/ ١٤٤٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٤٦٨، ١/ ٣٠٩.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وهل أتاك حديث موسى)، رقم ٣٣٩٥، ٤/ ١٥٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في ذكر يونس عليه السلام، رقم ٢٣٧٦، ٤/ ١٨٤٦.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٣٣٨.

(٥) وقد جزم البخاري في صحيحه ٤/ ١٣٥، في كتاب أحاديث الأنبياء بأن إدريس جد نوح أو جد أبيه، فقال: وهو جد أبي نوح، ويقال جد نوح عليهما السلام.

السماء؛ لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة، ولذلك قال في حق الملائكة: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩](١).

وفي حديث الإسراء عن أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة عن النبي صلى الله عليه وسلم: (أنه رأى إدريس في السماء الرابعة ليلة المعراج)(٢).

- إبراهيم عليه السلام.

ذكر تعالى أنه خص إبراهيم عليه السلام بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة.

قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٣٧٧، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٣٠٠، تفسير الراغب الأصفهاني ٤/ ٢٢١، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢٣٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٢١، مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٥٥٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ١١٧، محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٠٤.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٧، ٤/ ١٠٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم ١٦٤، ١/ ١٥٠.

فذكر الله تعالى أنه رفعه بالتوحيد الذي هداه إليه وحاج به قومه، قال بعضهم: هي احتجاجه عليهم بقوله سبحانه: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

وحجته في ذلك أن الذي يعبد الله لا يشرك به شيئًا أحق بالأمن من الذي يعبد الله ويشرك به، وقيل: أراد به الحجج الذي حاج به نمروذ، على ما سبق في سورة البقرة، وعبر بالإيتاء، وذلك يدل على أن إيتاء الله تعالى إبراهيم عليه السلام تلك الحجة من أشرف النعم، ومن أجل مراتب العطايا والمواهب، وبهذا استحق إبراهيم أن يلقى من ربّه هذا التكريم، وأن ينعته هذا النعت العظيم بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، فهو أمة وحده، ومجتمعه أشبه بفرد واحد إزاء هذه الأمة العظيمة، أو هو الأمة، وقومه لا شيء، إذ كان هو الإنسان الوحيد فيها، الذي يحمل عقل الإنسان وينتفع به، ومن فضل الله على إبراهيم عليه السلام: النبوة والعلم والفهم والملك والإمامة، وجعله عزيزًا في الدنيا، وذلك لأنه تعالى جعل أشرف الناس وهم الأنبياء والرسل من نسله، ومن ذريته وأبقى هذه الكرامة في نسله إلى يوم القيامة، لأن من أعظم أنواع السرور علم المرء بأنه يكون من عقبه الأنبياء

والملوك، والمقصود من هذه الآيات تعديد أنواع نعم الله على إبراهيم عليه السلام جزاء على قيامه بالذب عن دلائل التوحيد[1].

وقد ذكر بعضهم الإجماع على أن خير البرية بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو إبراهيم الخليل عليه السلام[2]، فعن أنس بن مالك، قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا خير البرية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاك إبراهيم عليه السلام)[3].

* يوسف عليه السلام.

خص الله تعالى نبيه يوسف عليه السلام بالرفعة والاتصال إلى الدرجات العالية الرفيعة، بالنبوة والحكم والعلم والفهم والفضيلة والعقل.

قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٢١].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢].

وقال جل وعلا: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

وقال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ۝٧٦﴾ [يوسف: ٧٦].

وقال جلا في علاه: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ١٠١].

لقد منّ الله تعالى على نبيه يوسف عليه السلام بكل درجات الرفعة فآتاه الملك والسلطان والعلم والنبوة وتعليم الأحاديث، وهذه الآية تدل على أن العلم أشرف المقامات وأعلى الدرجات، لأنه تعالى لما هدى يوسف إلى هذه الحيلة والفكرة مدحه لأجل ذلك، فقال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾، وأيضا وصف إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ﴾ [الأنعام: ٨٣]، عند إيراده ذكر دلائل التوحيد والبراءة عن إلهية الشمس والقمر والكواكب ووصف هاهنا يوسف أيضًا بقوله سبحانه:

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٣/ ٥١، الجامع لأحكام القرآن القرطبي ٧/ ٣٠، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس ٤/ ٢٢٨.

(٢) انظر: التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٥٢٤.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٦٩، ٤/ ١٨٣٩.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ لما هداه إلى هذه الحيلة، وكم بين المرتبتين من التفاوت[1].

❁ رفع عيسى عليه السلام.

أخبر الله تعالى نبيه عيسى عليه السلام أنه منجيه من كيد الكافرين المتآمرين على قتله، وأنه سوف يصونه من القتل ويرفعه إليه.

قال سبحانه وتعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٥-١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤-٥٥].

عيسى عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل، وليس بينه وبين النبي محمد صلى الله عليه وسلم نبي آخر، وهو من آل عمران، ومن نسل داود، ولذلك اضطهده اليهود، وآذوه، وحاولوا قتله، دعا الإسرائيليين إلى شريعة موسى عليه السلام وبشر برسالة محمد صلى الله عليه وسلم للعالمين من بعده، وهو أحد أولي العزم من الرسل، الذين أبلوا بلاء حسنًا، وصبروا على ما كذبوا، وأوذوا حتى أتاهم نصر الله المبين، وإن الذي يجب اعتقاده بنص القرآن: أن المسيح عليه السلام لم يقتل ولم يصلب، وأن الله رفعه إليه بروحه وجسده، ولما علم الله أن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥].

فيه أربعة أقاويل:

أحدها: معناه: إني قابضك برفعك إلى السماء من غير وفاة بموت.

والثاني: متوفيك وفاة نوم للرفع إلى السماء.

والثالث: متوفيك وفاة بموت.

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٥/ ٢٤٢، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٦٢٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣١٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٨٩.

والرابع: أنه من المقدم والمؤخر بمعنى رافعك ومتوفيك بعده.

وفي قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾، قولان:

أحدهما: رافعك إلى السماء.

والثاني: معناه رافعك إلى كرامتي[(١)].

قال ابن عطية: «وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي، وأنه ينزل في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفيض العدل ويظهر هذه الملة ملة محمد صلى الله عليه وسلم[(٢)]، ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعًا وعشرين سنة، وقيل أربعين سنة، ثم يميته الله تعالى»[(٣)].

وفي هذه الآية دليل على علو الله تعالى واستوائه على عرشه حقيقة، كما دلت على ذلك النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي تلقاها أهل السنة بالقبول والإيمان والتسليم، وسينزل عيسى ابن مريم، في آخر هذه الأمة حكمًا عدلًا، يقتل الخنزير، ويكسر الصليب، ويتبع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، ويعلم الكاذبون غرورهم وخداعهم، وأنهم مغرورون مخدوعون[(٤)].

* رفعة محمد صلى الله عليه وسلم.

أجمعت الأمة على أن محمدًا صلى الله عليه وسلم أفضل الأنبياء.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

قال الزجاج: «جاء في التفسير أنه أراد محمدًا صلى الله عليه وسلم، لأنه أرسله إلى الناس كافة، وليس شيء من الآيات التي أعطاها الله الأنبياء عليهم السلام إلا والذي أعطى محمدًا صلى الله عليه وسلم أكثر، لأنه قد كلمته الشجرة، وأطعم من كفّ من التمر خلقًا كثيرًا، وأمرّ يده على شاة أم معبد

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٧٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧، الجواهر الحسان، الثعالبي ٢/ ٣٢٧، محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٢٤، النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٤٤، مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٣٧، التحرير والتنوير ٦/ ٢٢.

(٢) وهو ما أخرجه أبا هريرة رضي الله عنه، يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده، ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد».

أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب البيوع، باب قتل الخنزير، رقم ٢٢٢٢، ٣/ ٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب نزول عيسى ابن مريم حاكما بشريعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، رقم ١٥٥، ١/ ١٣٦.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ٤٤٤.

(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣٢٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٢، ٩٦٧.

فدرّت لبنًا كثيرًا بعد الجفاف، ومنها انشقاق القمر، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: ٣٢] يعني محمدًا صلى الله عليه وسلم»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤] رفعة ذكر وجلال قدر وشرف وتعظيم ومحبة، رفعة ذكر في الدنيا، ورفعة ذكر في الآخرة، ورفعة في السماء، ورفعة في الأرض، ورفعة النبوة، رفعة لم ينلها أحد من قبل ولا من بعد في هذا الوجود.

ورفع الذكر مجاز في إلهام الناس لأن يذكروه بخير، وذلك بإيجاد أسباب تلك السمعة حتى يتحدث بها الناس، واستعير الرفع لحسن الذكر؛ لأن الرفع جعل الشيء عاليًا لا تناله جميع الأيدي ولا تدوسه الأرجل، فقد فطر الله رسوله صلى الله عليه وسلم على مكارم يعز وجود نوعها ولم يبلغ أحد شأو ما بلغه منها حتى لقب في قومه بالأمين، ومن عظيم رفع ذكره أن اسمه مقترن باسم الله تعالى في كلمة الإسلام وهي كلمة الشهادة، والأذان، والإقامة والتشهد، ويوم الجمعة على المنابر، ويوم الفطر، ويوم الأضحى، وأيام التشريق، ويوم عرفة، وعند الجمار، وعلى الصفا والمروة، وفي خطبة النكاح، وفي مشارق الأرض ومغاربها، ولو أن رجلًا عبد الله جل ثناؤه، وصدق بالجنة والنار وكل شيء، ولم يشهد أن محمدًا رسول الله، لم ينتفع بشيء وكان كافرًا، ومن عظيم رفع ذكره، أن الله تعالى ذكره في كتب الأنبياء قبله، حتى عرف للأمم الماضية قبل مجيئه، وأمرهم بالبشارة به، ولا دين إلا ودين محمد صلى الله عليه وسلم يظهر عليه[٢].

وفيه يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه يمدح النبي صلى الله عليه وسلم[٣]:

أغـرّ عليـــه للنبـوّة خاتمٌ
من اللّه مشهودٌ يلوح ويشهد
وضمّ الإله اسم النّبيّ مع اسمه
إذا قال في الخمس المؤذّن أشهد
وشـقّ له من اسمه ليجلّه
فـذو العرش محمودٌ وهـذا محمّـد

٢. رفعة العلماء.

إن العلم هو أجل نعم الله على عباده، وهو الذي ترجح به موازين الناس، وترتفع به منازل بعضهم على بعض، وإنه ليكفي العلم قدرًا وجلالًا، أن يرفع الله قدر أهله، وينزلهم منازل رضوانه، بقدر ما حصّلوا من

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ٣٣٤.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٥٩٤، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ٢٣٣، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٩٧، المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٤٩٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ١٠٦، تفسير المراغي ٣٠/ ١٨٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤١١، أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٥٧٨.

(٣) انظر: ديوان حسان ص ٤٢.

علم، وما حققوا من إيمان، فيقول سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦].

وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنعام: ٨٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾﴾ [النمل: ١٥].

بل يكفي بأن عطف الله سبحانه وتعالى العلماء على الملائكة، فقال سبحانه: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

فهذه كلها درجات العلم والحجة، وإن العلماء هم أرفع درجة بعد الأنبياء، فهم ورثة الأنبياء، وإن العلم يرفع الله به صاحبه فوق العباد درجات، لأن العلم أشرف المقامات، وأعلى الدرجات، خصوصًا العالم العامل المعلم، فإنه يجعله الله إمامًا للناس، ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره، وبحسب حاله ترمق أفعاله، وتقتفى آثاره، ويستضاء بنوره، ورفعة الدرجات تدل على الفضل إذ المراد به كثرة الثواب، وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة.

وقيل: في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

أي: بالقرآن، وكان كلما نزل شيء من القرآن ازداد به النبي صلى الله عليه وسلم علمًا.

وقيل: ما أمر الله رسوله بزيادة الطلب في شيء إلا في العلم، وقد طلب موسى عليه السلام الزيادة فقال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦][1].

وفي قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ تعميم ثم تخصيص، وتفصيل ذلك: أن الجزاء برفع الدرجات هنا مناسبة للعمل؛ لأن المأمور به تفسيح المجالس كيلا يتنافسوا في القرب من المكان الرفيع حوله صلى الله عليه وسلم فيتضايقوا، وذلك لا يليق بآداب المجلس التي من أولويَّاتها تفادي إزعاج المجالسين وترنيق صفوهم، واجتناب ما يكدّر صفاءهم وينغص بالهم، ولما كان المتمثّل لذلك

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٣٣، تفسير المراغي ١٣/ ٢٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٦٣.

الأمر يخفض نفسه عمّا يتنافس فيه من الرفعة امتثالًا وتواضعًا جوزي على تواضعه برفع الدرجات، ثم لما علم سبحانه أن أهل العلم بحيث يستوجبون عند أنفسهم وعند الناس ارتفاع مجالسهم خصهم بالذكر عند الجزاء ليسهل عليهم ترك ما لهم من الرفعة في المجلس تواضعًا لله عز وجل، وفي هذا التخصيص إلماع إلى فضل العلم.

وقيل: إنه تعالى خص أهل العلم ليسهل عليهم ترك ما عرفوا بالحرص عليه من رفعة المجالس وحبهم للتصدير، وهذا من مغيبات القرآن لما ظهر من هؤلاء في سائر الأعصار من التنافس في ذلك[(1)].

وفي الآيات دليل على شرف العلم وتقدم حملته وأهله، وأن نعمة العلم من أجل النعم، وأجزل القسم، وأن من أوتيه فقد أوتى فضلًا على كثير من عباد الله، وما سماهم رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورثة الأنبياء)، إلا لمداناتهم لهم في الشرف والمنزلة، لأنهم القوام بما بعثوا من أجله، وفيها تحريض للعلماء على أن يحمدوا الله على ما آتاهم من فضله، وأن يتواضعوا ويعتقدوا أن من عباد الله من يفضلهم فيه، وفيها التحريض على طلب العلم[(2)].

(1) انظر: حاشيه الشهاب على تفسير البيضاوي ٨/ ١٧٠، تفسير المراغي ٢٨/ ١٧، روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٢٢٣.

(2) انظر: الكشاف، الزمخشري ٣/ ٣٥٣، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٥٩٥، تفسير المراغي ١٩/ ١٢٧.

وقد وردت أحاديث كثيرة تبين فضل العلم ومنها:

وعن قيس بن كثير قال: (قدم رجل من المدينة على أبي الدرداء، وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟ قال: حديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما جئت لحاجة غيره، قال: لا، قال: أما قدمت في تجارة؟ قال: لا، قال: ما جئت إلا في طلب هذا الحديث، قال: نعم، قال: فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة تضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض، حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورّثوا العلم، من أخذه فقد أخذ بحظ وافر)[(3)].

(3) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، رقم ٣٦٤١، ٣/ ٣١٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم ٢٢٣، ١/ ٨١. وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٧٩.

وعن أبي أمامة الباهلي، قال: ذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم)(1).

٣. رفعة المؤمنين.

ذكر الله تعالى علو درجات المؤمنين وارتفاع شأنهم ورفعة قدرهم ومكانهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [الأنفال: ٢-٤].

وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه: ٧٥].

وقال جل وعلا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة: ١١].

وقد أشار إلى هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١].

وقوله جل وعلا: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأنعام: ١٣٢] ونحو ذلك من الآيات.

يخبر الله تعالى أن أهل الإيمان هم الذين لهم الرفعة في الدنيا والآخرة، وذلك بطاعتهم لله ورسوله واتباع أوامره، ومن سواهم فإنهم موضوعون بحسب بعدهم عن الإيمان، وكم من إنسان في الدنيا رفيع الجاه، معظَّمٌ عند الناس يكون يوم القيامة من أحقر عباد الله، وكلما ازداد الإيمان كلما ارتفعت درجة المؤمن، فكانت له الدرجات العلا بالنصر وحسن الذكر في الدنيا، والإيواء الى غرف الجنان في الآخرة، وتنكير درجات للإشارة إلى أنواعها من درجات الدنيا ودرجات الآخرة، والدرجات مستعارة للكرامة؛ فإن الرفع في الآية رفعًا مجازي، وهو التفضيل والكرامة، وجيء للاستعارة بترشيحها بكون الرفع درجات، وهو أفضل ما اشتغل بعلمه إنسان، كما في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي العمل أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (إيمان

---

(1) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة، رقم ٢٦٨٥، ٥/ ٥٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ١/ ١٩.

بالله ورسوله)[(١)] [(٢)].

وفي الآيات إشارة إلى أن الرفعة يؤتيها الله تعالى للمؤمن الذي يبتغي بعمله وجه الله تعالى، وقبول عمل المؤمن، أما ما عداهم من أهل النفاق والكفر، فليس لأعمالهم قبول عند الله، وفيها دعوة للمؤمن أن يسارع الى تكميل الدرجات، والوصول إلى أحسن الحالات، ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾، أي والله بأعمالكم ذو خبرة لا يخفى عليه المطيع منكم من العاصي، وهو مجازيكم جميعًا بأعمالكم، فالمحسن بإحسانه، والمسيء بالذي هو أهله أو يعفو[(٣)].

٤. رفع الأعمال الصالحة.

يخبر الله تعالى أنه إليه يصعد الكلم الطيب، قال سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠].

والكلم الطيب، هو التوحيد الصادر عن عقيدة طيبة، وقيل: هو التحميد والتمجيد، وذكر الله والدعاء، ونحوه من القرب، وأن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وهو العمل بطاعته، وأداء فرائضه والانتهاء إلى ما أمر به، والأعمال الخبيثة لا يقبلها الله تعالى[(٤)].

قوله: ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، على معنى: يرفعه الله، أو يرفع صاحبه، ويجوز أن يكون المعنى: والعمل الصالح يرفع الكلم الطيب، والصعود هو الحركة إلى فوق، وهو العروج أيضًا، ولا يتصور ذلك في الكلام لأنه عرض، لكن ضرب صعوده مثلًا لقبوله، لأن موضع الثواب فوق، وموضع العذاب أسفل، يقال ارتفع الأمر إلى القاضي أي علمه، فهو بمعنى العلم، وخص الكلام والطيب بالذكر لبيان الثواب عليه، وقوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ أي: إلى الله يصعد، وقيل: يصعد إلى سمائه والمحل الذي لا يجري فيه لأحد غيره حكم، وقيل: أي يحمل الكتاب الذي كتب فيه طاعات العبد إلى السماء[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من قال إن الإيمان هو العمل، رقم ٢٦، ١/ ١٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم ٨٣، ١/ ٨٨.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٤٦، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٩، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٤٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٨، اللباب في علوم الكتاب ١٨/ ٥٤٥، روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٤٠٣، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٠ - ٤٢.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ١١٩، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٠، ٤٢.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٤٤، المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٣١.

(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٦٥، تفسير السمرقندي ٣/ ١٠٢، الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ١٠١، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٦٤، تفسير القرآن، السمعاني ٤/ ٣٤٩، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٣٢٩،

قال ابن بطّال: «والكلمة الّتي ترفع بها الدّرجات ويكتب بها الرّضوان هي الّتي يدفع بها صاحبها عن المسلم مظلمة، أو يفرّج بها عنه كربة، أو ينصر بها مظلومًا»[1].

٥. رفعة الشعائر.

إن الله تعالى أمر برفع الشعائر وتعظيمها، فقال تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾﴾ [النور: ٣٦].

بيوت الله هي المساجد، وقد أمر الله برفعها وتعظيمها، وصيانتها عن الأقذار، والأوساخ، والصبيان، والمخاط، والخنا من الأقوال وغيرها.

وقوله سبحانه: ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]، فيه أقوال: قال مجاهد: تبنى، وقال الحسن: تعظم، يعني: أنه لا يذكر فيها الخنا من القول، وعن بعضهم: تطهر.

قال الرازي «والقول الثاني: أولى؛ لأن قوله: في بيوت أذن الله أن ترفع ظاهره أنها كانت بيوتًا قبل الرفع فأذن الله أن ترفع».

وقال الجصاص عند تفسير قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦].

حيث قال: «يجوز أن يكون المراد الأمرين جميعًا من رفعها بالبناء ومن تعظيمها جميعًا لأنها مبنية لذكر الله والصلاة، وهذا يدل على أنه يجب تنزيهها من القعود فيها لأمور الدنيا، مثل: البيع والشراء وعمل الصناعات، ولغو الحديث الذي لا فائدة فيه والسفه وما جرى مجرى ذلك»[2].

٦. رفعة الملك والحكم.

إن رفعة الملك والحكم والسلطان من أعظم الدرجات التي يرفع الله تعالى إليها من يشاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقال سبحانه: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ

التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٧٢.

(١) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١١/ ٣١١.

(٢) انظر: أحكام القرآن، الجصاص ٥/ ١٨٨، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٥٣٤، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٤٥، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٣٩٦.

﴿مَا ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَءَاتَيۡنَٰهُم مُّلۡكًا عَظِيمٗا ۝٥٤﴾ [النساء: ٥٤].

وقال جل وعلا: ﴿۞ رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ [يوسف: ١٠١].

ذكرت الآيات أن درجة الخلافة من أعظم الدرجات التي يرفع الله تعالى إليها من يشاء من عباده، وأن الملك بيد الله تعالى يؤتيه من يشاء. وقوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، بين تعالى أنه جمع لداود عليه السلام الملك والحكمة والنبوة، وهي أعظم فضيلة، إذ لم تخص بمجموعها إلا بعض الأنبياء، وجعل لبعضهم النبوة دون الملك، وإن لم يخل أحد منهم من نصرته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٥١].

وقال لموسى عليه الصلاة والسلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجۡعَلُ لَكُمَا سُلۡطَٰنٗا﴾ [القصص: ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿فَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ ءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [النساء: ٥٤].

وذكر الملك ثم الحكمة ثم النبوة بعد من باب الترقي، والملك صاحب رسالة دنيوية، يعالج بها شئون الناس في الحياة، ويقيمهم على صراط مستقيم، فهو بهذا الوصف مكمل لرسالة الرسول، ومطبّق للشرع الإلهي الذي جاء به الرسول، وهو أن الفصل في الخصومات بين الناس أمر خطير، يحتاج إلى علم واسع، وبصيرة نافذة، ونفس تجردت من كل هوى، وإلا كان الخطأ والزلل، الذي من شأنه إن غلب أفسد حياة الناس، وأغرى بعضهم ببعض، وإيتاء الملك درجة عظيمة يمن الله تعالى بها على من يشاء.

وقد دل القرآن الكريم على ذلك، إذ عبر عنه بما يفيد ذلك من خلال التعبير بلفظ الإيتاء، فلا يستعمل إلا في الشيء العظيم، قال تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗا﴾ [سبأ: ١٠] (١).

وذكر الغزالي أن الملك والسلطان يأتي في المرتبة الثالثة بعد أن ذكر أن الأنبياء هم أعلى رتبة ويليهم العلماء حيث قال: «ثم يليهم السلاطين بالعدل؛ لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم، ولأجل

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ١٢٩، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥١٣، البحر المحيط، أبو حيان ٢/ ٥٩٣، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ٩/ ٩٢٤، التحرير والتنوير ٣/ ٣٢.

اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء، فإنه أكمل الله به صلاح دينهم ودنياهم، ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء»[1].

٧. رفعة القرآن الكريم.

رفعة القرآن من جهة أنه قرآن مكتوب معتنىً به:

ذكر الله تعالى أن القرآن مكرم عنده مرفوع في اللوح المحفوظ، مطهر، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٤].

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة: ٧٧-٨٠].

وقال جل ذكره: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ۝٢٢﴾ [البروج: ٢١-٢٢].

وقال جل في علاه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤﴾ [عبس: ١١-١٤].

يخبر سبحانه وتعالى عن منزلة القرآن وعلوه ورفعته وشرفه، وإنه عليٌّ في ذاته، وأنه مودع في أم الكتاب عند الله، مكتوب في اللوح المحفوظ في السماء السابعة، ومكتوب أيضًا في صحف عند الملائكة، وحسبه بهذا علوًّا وشرفًا، وكونه عاليًا على جميع الكتب بسبب كونه معجزًا باقيًا على وجه الدهر[2].

والقرآن الكريم رفيع من حيث كونه كلام رفيع الدرجات جل جلاله، وهل هناك أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم؟ وهو في لوح محفوظ، وهو رفيع في الأخلاق الرفيعة التي يدعوا إليها، ورفيع في القضاء العادل الذي يأمر به[3].

رفعة القرآن لمن يعمل به:

يخبر الله تعالى أن اتباع آياته والعمل بما جاء فيها سببًا للهداية والتزكية والرفعة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أي: أن من شأن من أوتي آيات الله تعالى أن ترتقي نفسه، وترتفع في مراقي الكمال درجته، لما فيها من الهداية والإرشاد والذكرى، وإنما يكون ذلك لمن أخذ هذه الآيات وتلقاها بالقبول، وعمل بما جاء فيها، وأخلص في عمله.

والرفع يشمل معاني كثيرة، منها الرفع في المنزلة عنده، والرفع في شرف الدنيا ومكارمها، والرفع في الذكر الجميل والثناء الرفيع، والرفعة مستعارة لكمال النفس

(١) إحياء علوم الدين ٤/ ٩٨.

(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٥/ ٢١١، مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٥٥.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٧٦.

وذكائها، لأن الصفات الحميدة تخيل صاحبها مرتفعًا على من دونه، أي لو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلًا وذكاءً وتميزًا بالفضل، فمعنى لرفعناه ليسرنا له العمل الذي يشرف به[1].

﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي: سكن إلى الحياة الدنيا في الأرض، ومال إليها، وآثر لذتها وشهواتها على الآخرة، فحططناه ووضعنا منزلته، وجاء الاستدراك هنا تنبيهًا على السبب الذي لأجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي الهدى فآثره واتبعه، والكلام تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى، بحال من كان مرتفعًا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل، فبذكر الأرض علم أن الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي: تلبس بالنقائص والمفاسد[2]، ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، ورفض طاعة الله وخالف أمره، واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة، على ما يدعو إليه الحق والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها، وموافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العزّ إلى تراب الذّل، وتلقيه في وهدة الهوان، ومن لم يصدّق علمًا فعن قريب يقاسيه وجودًا، والأرض في هذه الآية عبارة عن الدنيا، وذلك أن الدنيا هي الأرض، لأن ما فيها من العقار والرباع والضياع كلها أرض وسائر متاعها يستخرج منها[3].

ثم ضرب الله له مثلًا فقال: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف: ١٧٦].

ولو شئنا لرفعناه ولكنا لم نشأ، فمثله كمثل الكلب، فصفته التي هي مثل في الخسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها، وهي حال دوام اللهث به واتصاله، سواء حمل عليه أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه، ومحل الجملة الشرطية النصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلًا دائم الذلة لاهثًا في الحالتين، وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من اليهود بعد ما قرءوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة[4].

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٦٩، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٢٧.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٢٣، تفسير المراغي ٩/ ١٠٨، التحرير والتنوير ٩/ ١٧٦.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٦١، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٢٧، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.

(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٧٨، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٤٧٨.

عند قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: ٢]: «من فوائد الآية: بيان علوّ القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾، فالإشارة بالبعد تفيد علوّ مرتبته؛ وإذا كان القرآن عالي المكانة والمنزلة، فلا بد أن يعود ذلك على المتمسك به بالعلوّ والرفعة؛ لأن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]، وكذلك ما وصف به القرآن من الكرم، والمدح، والعظمة فهو وصف أيضًا لمن تمسك به»[١].

وخلاصة ذلك: إن من شأن من يؤتى الآيات أن تسمو نفسه وتصعد في سلم الكمال؛ لما فيها من الهداية إلى سبيل الخير الحاضة على عمل النافع وما فيه فائدة روحية له، على شريطة أن يتلقاها بعزيمة ونية صادقة كما جاء في الحديث: (**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**)[٢]، أما من تلقاها بغير قصد أو بنية كسب المال والجاه وفي نفسه ما يصرفه عنها فلن يستفيد منها شيئًا وسرعان ما ينسلخ منها[٣].

وقد ورد في هذا المعنى من حديث عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث، لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي، فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: (**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما، ويضع به آخرين**)[٤].

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها**)[٥].

وعند النظر في عدد آيات القرآن نجد أن الرفعة عظيمة جدًّا، فإن عدد آيات القرآن ست وثلاثون ومائتان وستة آلاف، على اختلاف في ذلك، فسبحان من أعطى هذه

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ١/ ٢٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدأ الوحي، باب كيف كان بدأ الوحي، رقم ١، ١/ ٦.
(٣) انظر: تفسير المراغي ٩/ ١٠٨، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن، ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه، أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم ٨١٧، ١/ ٥٥٩.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب استحباب الترتيل في القراءة، رقم ١٤٦٤، ٢/ ٧٣، والترمذي في سننه، أبواب فضائل القرآن، رقم ٢٩١٤، ٥/ ١٧٧، والنسائي في السنن الكبرى، كتابة القرآن، باب الترتيل، رقم ٨٠٠٢، ٧/ ٢٧٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٥/ ٢٠٥.

الدرجات[1].

٨. رفعة البيت الحرام.

ذكر الله تعالى أن أول من بنى المسجد الحرم ورفع أساسه هو إبراهيم الخليل عليه السلام، وولده إسماعيل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧][2].

وقيل: إن إبراهيم عليه السلام كان يبني وإسماعيل يرفع إليه الأحجار ويناوله، والرفع يقال في الأجسام، وفي الشرف، وعبر عنه بالمضارع وخولف الأسلوب الذي يقتضيه الظاهر في حكاية الماضي أن يكون بالفعل الماضي بأن يقول وإذ رفع إلى كونه بالمضارع (يرفع) لاستحضار الحالة وحكايتها كأنها مشاهدة؛ لأن المضارع دال على زمن الحال فاستعماله هنا استعارة تبعية، شبه الماضي بالحال لشهرته ولتكرر الحديث عنه بينهم، فإنهم لحبهم إبراهيم عليه السلام وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه، وأعظمها بناء الكعبة، فشبه الماضي لذلك بالحال، ولأن ما مضى من الآيات في ذكر إبراهيم، من قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤] إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، مما يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتى كأنه حاضر بينهم، وكأن أحواله حاضرة مشاهدة، وكلمة (إذ) قرينة على هذا التنزيل؛ لأن غالب الاستعمال أن يكون للزمن الماضي، وهذا معنى قول النحاة أن إذ تخلص المضارع إلى الماضي[3].

وذكر القرآن الكريم الحالة التي كان عليها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، في حالة رفعهما القواعد من البيت الأساس، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما، حتى يحصل فيه النفع العميم، ودعوا لأنفسهما، وذريتهما بالإسلام الذي حقيقته خضوع القلب، وانقياده لربه المتضمن لانقياد الجوارح[4].

وقيل: ليس المراد برفعهما قواعد البناء فقط، بل رفع مكانة البيت وإظهار شرفه ودعاء الناس إلى حجّه، ودعاء الله بحفظه، وصح نسبة ذلك إليهما وإن كان الله تعالى في الحقيقة شرفه من حيث أنهما من

(١) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الغنيمان ١/ ٤٠٣.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ١٩٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٢٧.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٧١٧.

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦.

الأسباب المتأخرة لتشريفه[1].

والأكثرون من أهل الأخبار على أن هذا البيت كان موجودًا قبل إبراهيم عليه السلام، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فإن هذا صريح في أن تلك القواعد كانت موجودة متهدمة إلا أن إبراهيم عليه السلام رفعها وعمرها[2].

ومن خلال ما سبق يتبين أن أول من دله الله تعالى على مكان البيت إبراهيم عليه السلام، وهو أول من بناه مع ولده إسماعيل، وأول من حجه، ويجب على العبد أن يخلص بعمله ويقصد به وجه الله تعالى، وأن يكون أشد حرصًا على طلب القبول من الله تعالى لهذا العمل، ويلح بالدعاء كما فعل إبراهيم الخليل وولده إسماعيل عليهما السلام.

٩. التفاوت في الدرجات بين الناس.

ذكر القرآن الكريم التفاوت في الدرجات بين الناس في الدنيا في آيات عدة منها:

قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف: ٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله جل جلاله: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: ٢١].

ذكرت الآيات أن الله تعالى هو الذي يقسم فضله بين أهل الفضل، على حسب علمه بمواقع الاختيار، ومن يصلح له ممن لا يصلح، وهو الذي رفع بعضهم فوق بعض درجات، وقسم بينهم معايشهم ودرجات التفضيل، فهو القاسم ذلك وحده لا غيره، وهو الذي جعل لكل واحد من عباده درجة معينة في الأرزاق والأخلاق، والمحاسن والمساوي، والمناظر والأشكال والألوان، وجعل لكل واحد من السعداء والأشقياء في الدنيا درجة معينة من موجبات السعادة وموجبات الشقاوة، ومنهم من يعيش بالحلال، ومنهم من يعيش بالحرام، وجعل الله تعالى هذا التفاوت بين العباد لحكمة؛ لأنه لو سوى بينهم في كل هذه الأحوال لم يخدم أحد أحدًا، ولم يصر أحد منهم مسخرًا لغيره، وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم وفساد نظام الدنيا، وهذا التفاوت ليس لأجل العجز والجهل والبخل فإنه تعالى متعال عن هذه الصفات، وإنما هو لأجل الابتلاء

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٥٩.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٤/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٣٣.

والامتحان، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

أي: أن الله تعالى إذا خص بعض عبيده بنوع فضله ورحمته في الدين، فهذه الرحمة خير من الأموال التي يجمعها؛ لأن الدنيا على شرف الانقضاء والانقراض، وفضل الله ورحمته تبقى أبد الآباد[(١)].

وفي هذا التفاوت الذي بين الناس، وفي درجات التفاضل المقسومة بينهم، يتحرك الناس، فيلحق المتأخر بالمتقدم، ويسعى المتقدم ليلحق بمن تقدم عليه وفضله، أو ينزل عن مكانه الذي هو فيه ليأخذه غيره، وهكذا يتحرك الناس في الحياة صعودًا وهبوطًا، ويتبادلون المواقف، ويتنازعون منازل الفضل، وبهذا تظل ريح الحياة في حركة دائمة مجدّدة، يتنفس فيها الناس أنفاس الأمل، والقوة، والحياة[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، فيه عبرة وعظة، لعدم الاغترار بالقوة والرفعة، ولجعل ذلك وسيلة لشكر تلك النعمة، والسعي في زيادة الفضل لمن قصر عنها، والرفق بالضعيف وإنصاف المظلوم، ولذلك عقبه بقوله تعالى: ﴿لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

أي: ليخبركم فيما أنعم به عليكم من درجات النعم حتى يظهر للناس كيف يضع أهل النعمة أنفسهم في مواضعها اللائقة بها وهي المعبر عنها بالدرجات، والدرجات مستعارة لتفاوت النعم، وهي استعارة مبنية على تشبيه المعقول بالمحسوس لتقريبه، والإيتاء مستعار لتكوين الرفعة في أربابها تشبيهًا للتكوين بإعطاء المعطي شيئًا لغيره.

والبلو: الاختبار، والمراد به ظهور موازين العقول في الانتفاع، والنفع بمواهب الله فيها وما يسره لها من الملائمات والمساعدات، فالله يعلم مراتب الناس، ولكن سمى ذلك بلوى؛ لأنها لا تظهر للعيان إلا بعد العمل، أي ليعلمه الله علم الواقعات بعد أن كان يعلمه علم المقدرات، فهذا موقع لام التعليل[(٣)].

---

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٨/ ٣٣٣، الوجيز، الواحدي ص ٩٧٣، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٥٩، الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٤٨، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٦٣٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٥٨، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٩.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٨٨، الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ٢١٣، المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٣٧١، مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٩٢، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٨٤، لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٧٩، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٤، التفسير القرآني للقرآن ٤/ ٣٥٩، تفسير المراغي ٢٥/ ٨٥.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٢١١.

ثانيًا: الرفعة في الآخرة.

لا منزلة ولا درجة أرفع من الجنة، وقد ذكر القرآن الكريم أن التفاضل في درجات الآخرة أكبر من التفاضل في درجات الدنيا، فالدرجات أكبر، والتفاضل أعظم؛ لأن الآخرة ثواب وأعواض وتفضل وكلها متفاوتة، فأهل النار في دركات سفلى متفاوتة، وأهل الجنة في درجات عليا متفاضلة، وأن المجاهدين والمهاجرين أعظم درجة عند الله.

قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)﴾ [الإسراء: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠)﴾ [التوبة: ٢٠].

وقال جل وعلا: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣)﴾ [آل عمران: ١٦٣].

ومنها قوله في ربط درجات العمل بدرجات الجزاء: ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٩٦)﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

وقوله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢)﴾ [الأنعام: ١٣٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ (٧٥)﴾ [طه: ٧٥][(١)].

فهذه الآيات تبين أن درجات الآخرة أعظم من درجات الدنيا ومن تفضيلها، فإنّ نسبة التفاضل في درجات الآخرة إلى التفاضل في درجات الدنيا كنسبة الآخرة إلى الدنيا، فإن كان الإنسان تشتدّ رغبته في طلب فضيلة الدنيا فبأن تقوى رغبته في طلب الآخرة أحرى؛ لأنها دار المقامة، فلا نسبة لنعيم الدنيا ولذاتها إلى الآخرة بوجه من الوجوه، فكم بين من هو في الغرف العاليات واللذات المتنوعات والسرور والخيرات والأفراح ممن هو يتقلب في الجحيم ويعذب بالعذاب الأليم، وقد حل عليه سخط الرب الرحيم، وكل من الدارين بين أهلها من التفاوت ما لا يمكن أحدًا عده، والجنات نفسها متنوعة، فهناك جنات الفردوس، وجنات عدن، وجنات نعيم، وهناك دار الخلد، ودار السلام، وجنة المأوى، وهناك عليون الذي هو أعلى وأفضل الجنات، وأعلى ما فيها التمتع برؤية

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٢/ ٤٣٨، الكشاف، الزمخشري ٢/ ٦٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ٩/ ٤١٦، تفسير المراغي ١٥/ ٢٩، المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٨٠، التفسير المنير، الزحيلي ١٥/ ٤٥.

الحق تبارك وتعالى، وهو نعيم يعلو كثيرًا عن أي نعيم في الطعام والشراب في الدنيا، ودرجات الجزاء في الآخرة على حسب الأعمال والنوايا، وحسب درجات الارتقاء بالعلم والعمل في الدنيا، وأن هذه الدرجات لا يعلمها إلا من أحاط بكل شيء علمًا[(١)].

وفي الآيات تعظيم شأن يوم القيامة، والترغيب والترهيب، ليخاف الناس في الدنيا من أسباب الخفض في الآخرة فيطيعوا الله ويرغبوا في أسباب الرفع فيطيعوه أيضًا، وأن عطاء الدنيا غير منوط بصلاح الأعمال ألا ترى إلى ما فيه من تفاضل بين أهل العمل المتحد، وقد يفضل المسلم فيه الكافر، ويفضل الكافر المسلم، ويفضل بعض المسلمين بعضًا، وبعض الكفرة بعضًا، وكفاك بذلك هاديًا إلى أن مناط عطاء الدنيا أسباب ليست من وادي العمل الصالح ولا مما يساق إلى النفوس الخيرة[(٢)].

قال الضحاك في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٤]: أهل الجنة بعضهم فوق بعض، فيرى الذي هو فوق فضله على الذي هو أسفل منه، ولا يرى الذي هو أسفل منه أنه فضل عليه أحد،

ولهذا جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن أهل عليين ليراهم من أسفل منهم، كما ترون الكوكب الغابر في أفق من آفاق السماء) قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا ينالها غيرهم، فقال: (بلى والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين)[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الدرجات العلى، كما تراءون الكوكب الغابر في أفق السماء، وإن أبا بكر وعمر منهم، وأنعما)[(٤)].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥٥، المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ١٨٠، تفسير الشعراوي ١/ ٢٠٧.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ٦٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٥١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٥٦، ٤/ ١١٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء، رقم ٢٨٣١، ٤/ ٢١٧٧.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، رقم ٦٥٥٥، ٨/ ١١٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف، كما يرى الكوكب في السماء، رقم ٢٨٣٠، ٤/ ٢١٧٧.

أسباب تحصيل الرفعة

لقد خص الله تعالى بالرفعة في الحياة الدنيا والآخرة من يشاء من عباده، وجعل أرفع درجة في الحياة الدنيا النبوة، واصطفى من عباده من يشاء لهذه الدرجة الرفيعة، وخصهم بالأخلاق الرفيعة التي تؤهلهم لحمل هذه الرسالة التي سوف يحملونها للعالم، وجعل الله تعالى للرفعة أسباب أخرى، ترفع صاحبها في الدنيا ولآخرة، ومن هذه الأسباب، الإيمان والعلم والجهاد في سبيل الله تعالى واتباع الحق والعمل به، وسوف أذكر هذه الأسباب في النقاط الآتية:

١ . النبوة والرسالة.

ذكر الله تعالى أن النبوة والرسالة هي أرفع الدرجات التي يصطفي إليها من يشاء من عباده، ويخصهم بهذه المرتبة العالية، وليس لأحد سبب اختيار هذه الدرجة، أو اعتراض عليها، ولكنه سبحانه وحده الذي له اختيار ذلك، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

أي: هو أعلم حيث يضع رسالته ومن يصلح لها من خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١].

يعنون: لولا نزل هذا القرآن على رجل عظيم كبير مبجل في أعينهم ﴿مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ﴾، أي: مكة والطائف، وذلك لأنهم -قبحهم الله- كانوا يزدرون بالرسول، صلوات الله وسلامه عليه، بغيًا وحسدًا، وعنادًا واستكبارًا، كما قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٣٦﴾ [الأنبياء: ٣٦].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ۝٤١﴾ [الفرقان: ٤١].

وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنۡهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝١٠﴾ [الأنعام: ١٠][(١)].

٢ . الإيمان.

قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

من أسباب الرفعة التي ذكرها القرآن الكريم هو الإيمان، والإيمان أصل الأسباب كلها؛ لأن الإيمان أصل الدين، وبه تقبل الأعمال، وتزكو الخصال، فالإيمان بمنزلة السماء، محفوظة مرفوعة، ومن ترك الإيمان، بمنزلة الساقط من السماء، عرضة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥٩٥، معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٣٢٢، النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٢٢٣، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٣٢.

للآفات والبليات، فإما أن تخطفه الطير فتقطعه أعضاء، كذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطفته الشياطين من كل جانب، ومزقوه، وأذهبوا عليه دينه ودنياه.

قال تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ٣١﴾ [الحج: ٣١].

أمرهم أن يكونوا ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ أي: مقبلين عليه وعلى عبادته، معرضين عما سواه، ﴿غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ﴾، فمثله ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: سقط منها ﴿فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ﴾، بسرعة ﴿أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾، أي: بعيد، كذلك المشرك، وإن خير الدنيا والآخرة من ثمرات الإيمان الصحيح، وبه يحيا العبد حياة طيبة في الدارين، وبه ينجو من المكاره والشرور، وبه تخف الشدائد، وهو السبب الوحيد للقيام بكل شرائع الدين من صلاة وزكاة وصيام وحج وصدقة وأمر بمعروف ونهي عن منكر وجهاد في سبيل الله، فكلما قوي إيمان العبد علمًا ومعرفةً وإرادةً وعزيمةً، زاد قربًا من الله وطاعته، وقام بكل ما يقدر عليه بحسب حاله ومرتبته، فنال الدرجة العالية والمنزلة الرفيعة، وإذا ضعف الإيمان تكاسل عن الطاعات وقلة درجاته ورفعته بحسب ضعف إيمانه، وهذا كله من ثمرات الإيمان ومن تمامه وكماله؛ وبالجملة فخير الدنيا والآخرة كله فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والنقص إنما يكون بفقد الإيمان ونقصه؛ والله المستعان[(١)].

٣. العلم.

من أسباب الرفعة التي ذكرها القرآن الكريم العلم، وهو خير ما سعى له الإنسان فالعلم أصل كل شيء ومنبع كل خير منه؛ لأنه لا يمكن أن يجاهد المجاهد ولا أن يصلي المصلي ولا أن يزكي المزكي ولا أن يصوم الصائم ولا أن يحج الحاج ولا أن يعتمر المعتمر ولا أن يأكل الآكل ولا أن يشرب الشارب ولا أن ينام النائم ولا أن يستيقظ المستيقظ إلا بالعلم، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)**[(٢)(٣)].

قال تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ [المجادلة: ١١].

ولم يعين عز وجل الدرجات؛ لأن

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٨٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، رقم ٧١، ١/ ٢٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الكسوف، باب النهي عن المسألة، رقم ١٠٣٧، ٢/ ٧١٨.

(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٣٨٩، مراح لبيد، الجاوي ٢/ ٥٠٣.

هذه الدرجات بحسب ما مع الإنسان من الإيمان والعلم كلما قوي الإيمان وكلما كثر العلم وانتفع الإنسان به ونفع غيره كان أكثر درجات، فإن الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: ١١][(١)].

٤ . الجهاد.

بين القرآن الكريم درجة المجاهدين، قال تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء: ٩٥].

من أسباب الرفعة التي ذكرها القرآن الكريم الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال، فلا رفعة ولا عزة ولا مكانة للأمة إلا بالجهاد بالنفس والمال، وإن الجهاد في سبيل الله هو ذروة سنام الدين، الذي به يحفظ الدين الإسلامي ويتسع، وينصر الحق ويخذل الباطل، فأمة بلا جهاد لا تساوي شيء، ولا مكانة لها بين الأمم، وعيش المذلة والمهانة والدون، ومن يقبل بالمذلة والمهانة في الحياة الدنيا فليس له في الآخرة إلا الدركات السفل جزاء وفقا، فدين الإسلام دين العزة والكرامة والشموخ والإباء لا يرضى بالضيم والمذلة أبدًا.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

ولما كان المجاهد في سبيل الله قد رغب عن الدنيا وأقبل على الله كانت درجته في الآخرة أعلى الدرجات، والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم الذين ترتفع بهم كرامة الأمة ويحمونها، ولذلك كان الجزاء من جنس العمل، وهو ارتفاع درجتهم وقدرهم في الدنيا من الغنيمة والظفر والذكر الجميل ودفع شر الأعداء عن الأمة والبلاد، وكذلك عند الله تعالى لهم أجر عظيم، ثم بين هذا الأجر العظيم بما فضلهم به من الدرجات، في غرف الجنات العاليات، ومغفرة الذنوب والزلات، وأحوال الرحمة والبركات، إحسانًا منه وتكريمًا؛ ولهذا قال سبحانه: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾ [النساء: ٩٦][(٢)].

---

(١) انظر: شرح رياض الصالحين، ابن عثيمين ٥/ ٤٢٠.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٨٠، المنار،

وفي الآيات الحض على الجهاد والترغيب فيه وتنشيط المجاهدين ليرغبوا، وتبكيت القاعدين ليأنفوا.

٥ . اتباع الحق وإيثاره.

ذكر القرآن الكريم أن اتباع الحق وإيثاره سبب من أسباب الرفعة، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العالم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق وإيثاره، وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، نعوذ بالله من علم لا ينفع[1].

اسباب الحرمان من الرفعة في الآخرة

كما أن للرفعة أسباب ينال بها الشخص المنزلة الرفيعة والمكانة العالية كذلك هناك أسباب للحرمان من الرفعة في الآخرة وهي:

١ . الكفر.

لما كان أعز الأشياء الموجبة للرفعة في درجات الآخرة هو الإيمان، فإن أذل الأشياء الموجبة للمذلة المانعة من الرفعة هو الكفر، وهو سبب الحرمان من دخول الجنة ونيل الرفعة فيها.

وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحرمان ووصف الكافرين أنهم هم الذين كانوا سبب هذا الحرمان، هو أنهم اتخذوا في دينهم أعمالًا لا تزكي الأنفس، فتكون أهلًا لدار الكرامة، بل هي إما لهو: وهو ما يشغل الإنسان عن الجد والأعمال المفيدة بالتلذذ بما تهوى النفس، وإما لعب: وهو ما لا تقصد منه فائدة صحيحة كأعمال الأطفال، وغرتهم بذلك الحياة الدنيا فكان كل همهم التمتع بشهواتها ولذاتها -حرامًا كانت أو حلالًا- لأنها مطلوبة عندهم لذاتها.

وأما أهل الجنة فهم الذين سعوا لها سعيها بأعمال الإيمان التي تزكي الأنفس وترقيها فلم يغتروا بالحياة الدنيا، بل كانت الدنيا عندهم مزرعة الآخرة لا مقصودة لذاتها؛ لذلك كانوا يقصدون بالتمتع بنعم

محمد رشيد رضا ٩/ ٤٩٥، تفسير المراغي ٥/ ١٢٩.

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٢٩٢.

الله فيها الاستعانة بها على ما يرضيه من إقامة الحق وعمل الخير والاستعداد للحياة الأبدية.

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ۝٥١﴾ [الأعراف: ٥٠-٥١].

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من تحريم الجنة ونعيمها على من كفر بالله تعالى وخلوده في نار جهنم، وأنه لا يرجى له خلاص، جاء موضحًا في مواضع أخر كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ﴾ [الحج: ٣١].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أن من أشرك بالله غيره أي ومات ولم يتب من ذلك فقد وقع في هلاك، لا خلاص منه بوجه، ولا نجاة معه بحال؛ لأنه شبهه بالذي خرّ، أي: سقط من السماء إلى الأرض، فتمزقت أوصاله، وصارت الطير تتخطفها وتهوي بها الريح فتلقيها في مكان سحيق، أي: محل بعيد لشدة هبوبها بأوصاله المتمزقة، ومن كانت هذه صفته فإنه لا يرجى له خلاص ولا يطمع له في نجاة، فهو هالك لا محالة، لأن من خر من السماء إلى الأرض لا يصل الأرض عادة إلا متمزق الأوصال، فإذا خطفت الطير أوصاله وتفرق في حواصلها، أو ألقته الريح في مكان بعيد فهذا هلاك محقق لا محيد عنه[(١)].

٢. اتباع الدنيا.

إن من أذل الأشياء الموجبة للمذلة المانعة من الرفعة هو حب الدنيا، وهو سبب الحرمان من دخول الجنة ونيل الرفعة فيها، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحرمان وذم من غرتهم الحياة الدنيا، فكان كل همهم التمتع بشهواتها ولذاتها؛ لأنها مطلوبة عندهم لذاتها، ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

يعني: وخدعهم عاجل ما هم فيه من خصب العيش ولذته، وشغلهم ما هم فيه من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٨٩، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٣٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢٦، المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ٣٩١، أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٢٥٦.

ذلك عن الإيمان بالله ورسله وعن الأخذ بنصيبهم من الآخرة حتى أتتهم المنية على ذلك، والغرة غفلة في اليقظة وهو طمع الإنسان في طول العمر وحسن العيش وكثرة المال والجاه ونيل الشهوات، فإذا حصل ذلك صار محجوبًا عن الدين وطلب الخلاص؛ لأنه غريق في الدنيا بلذاته وما هو فيه من ذلك.

ولما وصفهم الله تعالى بهذه الصفات الذميمة قال سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

يعني: فاليوم نتركهم في العذاب المهين جياعًا عطاشًا كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا[(١)].

والجانب المذموم في حب الدنيا هو التعلق بها الذي يبعد صاحبه عن دين الله وطاعته وتشغله عنها، ويترك ما أوجب الله عليه ويؤثر الحياة الدنيا، ومن ذلك حب الدنيا وعدم المبالاة بما حرم الله، فلا فرق بين حلال وحرام، وطيب وخبيث.

وقد نبه سبحانه عباده المؤمنين من حال الحياة الدنيا وصفتها التي تمتاز بها فأعلم بذلك ليجتنبوها ويحذروا غرورها، وليعملوا إلى الرفعة الحقيقية وهي الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنعام: ٣٢].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾ [محمد: ٣٦].

وقال جل وعلا: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠][(٢)].

٣. اتباع الهوى.

إن من أذل الأشياء الموجبة للمذلة المانعة من الرفعة هو اتباع الهوى، وهو سبب الحرمان من دخول الجنة ونيل الرفعة فيها، وقد ذكر القرآن الكريم هذا الحرمان وذم اتباع الهوى فإن الهوى يهوي بصاحبه إلى أسفل الدركات، وبالهوى تندفع النفوس إلى الشهوات الضارة المهلكات، وموافقة الهوى تنزل صاحبها من سماء العزّ إلى تراب الذّل، وتلقيه في وهدة الهوان، ومن لم يصدّق علمًا فعن قريب يقاسيه وجودًا كما يقال، والهوى مصدر هواه إذا أحبه، ثم سمي بالهوى المشتهى محمودًا

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٢٣٧، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٢٠٥، البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٤٩.

(٢) انظر: ملاك التأويل، الثقفي ١/ ١٥٦.

كان أو مذمومًا، ثم غلب على غير المحمود.

وتدلّ المادّة الّتي اشتقّ منها على الخلوّ والسّقوط، ومن ذلك: الهواء بين السّماء والأرض سمّي بذلك لخلوّه، وكلّ خال هواء.

قال تعالى: ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [إبراهيم: ٤٣]، أي: خالية لا تعي شيئًا، ويقال: هوى الشّيء يهوي أي سقط، والهاوية جهنّم؛ لأنّ الكافر يسقط فيها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

والسبب الذي لأجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره ممن أوتي الهدى فآثره واتبعه، هو اتباع الهوى(١).

موضوعات ذات صلة:

الذل، العزة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٦١، تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣٠٦، التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٤٢٧.





عناصر الموضوع

مفهوم الركوع	٢٩٤
الركوع في الاستعمال القرآني	٢٩٥
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٦
الحث على الركوع	٢٩٨
بين الركوع والسجود	٣٠٧
ثمرات الالتزام بالركوع	٣١٣

مفهوم الركوع

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ر ك ع) تدل على الانحناء[1]، والركوع في اللغة له معانٍ متعددة، منها:

الركوع: الانحناء، ومنه ركوع الصلاة. يقال: ركع الشيخ، أي: انحنى من الكبر[2].

وتارة يستعمل في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارة في التّواضع والتّذلّل، إمّا في العبادة، وإمّا في غيرها[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وعليه يمكن القول بأن الركوع في الاصطلاح: هو الانحناء لذي قدر ومكانة في نفس فاعله؛ تعظيمًا وإجلالًا؛ للدلالة على الخضوع والاستسلام والطاعة تعبدًا[4].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٣٤.
(٢) الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٢٢.
(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٣٦٤.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف ص١٨١.



الركوع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ركع) في القرآن بصيغ متعددة، بلغت(١٣) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	١	﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات: ٤٨]
فعل الأمر	٤	﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٣]
اسم الفاعل	٥	﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: ٢٤]
الجمع	٣	﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: ٢٦]

وجاء الركوع في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[2]:

الأول: الصلاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] أي: صلّوا مع المصلّين.

الثاني: السجود: ومنه قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤] يعني: ساجدًا.

الثالث: الركوع بعينه: ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم ص٥٩٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٤٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ السجود:

السجود لغة:

سجد في اللغة: خضع، وأصله التطامن والتذلل، وسجد: طأطأ رأسه وانحنى[١].

السجود اصطلاحًا:

هو إلصاق الرأس والأطراف بالأرض على هيئة مخصوصة في الصلاة وغيرها، يقول فيها العبد ألفاظًا مخصوصة؛ تعظيمًا وإجلالًا للمعبود، وخضوعًا وانكسارًا من العبد على سبيل التعبد.

الصلة بين الركوع والسجود:

إن كلًا من الركوع والسجود يدل على الانحناء[٢]، غير أن السجود يكون بانحناءٍ أشد، ويجوز أن يفعل خارج الصلاة تعبدًا لله.

٢ القنوت:

القنوت لغة:

يأتي بمعنى الطاعة، وطول القيام، والصلاة، والسكوت[٣].

القنوت اصطلاحًا:

هو طول القيام في الصلاة طاعة لله، على هيئة مخصوصة، في وقت مخصوص، تعظيمًا لله وإجلالًا.

وقيل: الدعاء في الصلاة في محل مخصوص من القيام[٤].

الصلة بين الركوع والقنوت:

كلاهما من أفعال الصلاة، لكن تختلف فيهما الهيئة والأقوال، فالقنوت يكون بقراءة القرآن والدعاء، والحمد والثناء، بينما الركوع لا يجوز فيه قراءة القرآن.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٣٦٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤.
(٣) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس، الأنباري ١/ ٦٨، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٤٧.
(٤) انظر: فتح الباري، ابن حجر ٢/ ٤٩٠.

٣ الخشوع:

الخشوع لغة:

تدل مادة (خ ش ع) على التطامن. يقال: خشع، إذا تطامن وطأطأ رأسه، يخشع خشوعًا. وهو قريب المعنى من الخضوع، إلا أن الخضوع في البدن والإقرار بالاستخذاء، والخشوع في الصوت والبصر[١].

الخشوع اصطلاحًا:

إقبال المرء بقلبه على الله في دعائه وصلاته؛ خوفًا وانقيادًا، مع خضوع الجوارح والأعضاء[٢].

الصلة بين الركوع والخشوع:

الركوع عمل يقوم به المرء ظاهرًا على هيئة مخصوصة، بانحناء القامة والأعضاء، بينما الخشوع يكون محله القلب، ويظهر أثره بهيئة مغايرة على أعضاء الإنسان بسكونها، وعلى الصوت فيخفت، وعلى البصر فيخضع.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٨٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨٣، الفروق اللغوية، العسكري ص٢٤٨، التعريفات، الجرجاني ص٩٨.

الحث على الركوع

لقد وردت لفظة «الركوع» ومشتقاتها في الأسلوب القرآني بأوامر ربانية في ثلاثة أساليب صريحة، تحث على الركوع، وورد أسلوب واحد بلفظ السجود مؤولًا بالركوع، وسنرى ذلك في النقاط الآتية:

أولًا: الأسلوب الصريح:

وقد استخدم في ذلك عدة أساليب:

١ . أسلوب فعل الأمر.

نحو قوله: ﴿وَارْكَعُوا﴾، ﴿وَارْكَعِي﴾.

وقد جاء ذلك في أربع آيات، منها:

قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾[البقرة: ٤٣].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾، هذا أمر من الله تعالى لمن ذكر من أحبار بني إسرائيل ومنافقيها -أي: منافقي المدينة- بالإنابة والتوبة إليه، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والدخول مع المسلمين في الإسلام، والخضوع له بالطاعة، ونهيٌ منه سبحانه وتعالى لهم عن كتمان ما قد علموا من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، بعد تظاهر حججه عليهم»[(١)].

قال ابن عطية رحمه الله: «﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾، قال قوم: جعل الركوع -لما كان من أركان الصلاة- عبارة عن الصلاة كلّها، وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع»[(٢)].

وقال أيضًا: «﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾، أي: صلّوا مع المصلين، محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وذكر بلفظ الركوع؛ لأن الركوع ركن من أركان الصلاة، ولأن صلاة اليهود لم يكن فيها ركوع، وكأنه قال: صلوا صلاةً ذات ركوع، قيل: وإعادته بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾ لهذا، أي: صلّوا مع الذين في صلواتهم ركوع، فالأول: مطلق في حق الكل، وهذا في حق أقوام مخصوصين»[(٣)].

وقال الواحدي رحمه الله: «قال المفسرون: قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ﴾، معناه: وصلوا مع المصلين محمد وأصحابه، فعبّر بالركوع عن جميع الصلاة؛ إذ كان ركنًا من أركانها كما عبّر باليد عن عمل الجسد في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج: ١٠].

وقيل: إنما عبّر بالركوع عن الصلاة؛ لأنه أول ما يشاهد، مما يدل على أن الإنسان يؤدي الصلاة، وإنما قال: ﴿وَارْكَعُوا﴾ بعد قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾، وكان الركوع داخلًا في الصلاة؛ لأنه أراد الحث على إقامة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٦١١.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٩٩.

(٣) المصدر السابق، وانظر: أحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٤٥.

الصلاة جماعة.

وقيل: لأنه لم يكن في دين اليهود ولا في صلاتهم ركوع، فذكر ما اختص بشريعة الإسلام، والآية خطاب لليهود»[1].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، أي: صلوا مع المصلين، ففيه الأمر بالجماعة للصلاة ووجوبها، وفيه أن الركوع ركن من أركان الصلاة؛ لأنه عبّر عن الصلاة بالركوع، والتعبير عن العبادة بجزئها يدل على فرضيته لها».

وقال أيضًا: «﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فإنكم إذا فعلتم ذلك مع الإيمان برسل الله وآياته، فقد جمعتم بين الأعمال الظاهرة والباطنة، وبين الإخلاص للمعبود والإحسان إلى عبيده، وبين العبادات القلبية والبدنية والمالية»[2].

وقال الله عزّ ثناؤه: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

أمر صريح من الله لمريم عليها الصلاة والسلام بالخضوع له بالطاعة، وهذا ما أشار إليه الإمام الطبري رحمه الله بقوله: «فتأويل الآية إذن: يا مريم أخلصي عبادة ربك لوجهه خالصًا، واخشعي لطاعته وعبادته، مع من خشع له من خلقه، شكرًا له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتطهير من الأدناس، والتفضيل على نساء عالم دهرك، وقد بيّنا معنى الركوع والسجود بالأدلة المؤكدة على صحته، وأنهما عين الخشوع لله، والخضوع له بالطاعة والعبودية»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ٧٧].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «في تفسير قول الله تعالى ذكره: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا﴾: يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله اركعوا لله في صلاتكم، ﴿وَاسْجُدُوا﴾ له فيها ﴿وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، يقول: وذلّوا لربكم، واخضعوا له بالطاعة لتفلحوا بذلك»[4].

وقال الله جل شأنه: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

وعن مجاهد بن جبر رحمه الله: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، قال: «إذا قيل لهم صلّوا لا يصلّون»[5].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: وإذا قيل لهؤلاء المجرمين المكذبين بوعيد الله أهل التكذيب به:

(١) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٤٤٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٠٠.
(٤) المصدر السابق ١٦/ ٦٣٨-٦٣٩.
(٥) تفسير مجاهد بن جبر ص٦٩٣.

اركعوا، لا يركعون».

واختلف أهل التأويل في الحين الذي يقال لهم فيه:

فقال بعضهم: «يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨] يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود، من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا».

وقال آخرون: «بل قيل ذلك لهم في الدنيا».

وعن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ «أي: عليكم بحسن الركوع، فإن الصلاة من الله بمكان؛ لأن المقصود بالآية عنده هو الركوع نفسه».

وقال قتادة في آخرين: «هذه حال كفار قريش في الدنيا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكر الركوع عبارة عن جميع الصلاة، وهذا قول الجمهور».

وقال قتادة عن ابن مسعود رضي الله عنه: «أنه رأى رجلًا يصلي ولا يركع، وآخر يجر إزاره، فضحك، فقيل له: ما يضحكك؟ قال: أضحكني رجلان؛ أما أحدهما فلا يقبل الله صلاته، وأما الآخر فلا ينظر الله إليه»[(١)].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المشركين: ﴿ارْكَعُوا﴾، أي: صلّوا: ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾، أي: لا يصلّون».

قال مقاتل: «نزلت في ثقيف، امتنعوا من الصلاة فنزل ذلك فيهم، قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (أسلموا)، وأمرهم بالصلاة فقالوا: لا ننحني فإنها مسبةٌ علينا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود)[(٢)].

قال ابن العربي رحمه الله: «هذه الآية حجة على وجوب الركوع وإنزاله ركنًا في الصلاة، وقد انعقد الإجماع عليه، وظنّ قوم أن هذا إنما يكون في القيامة، وليست بدار تكليف فيتوجه فيها أمر يكون عليه ويلٌ وعقابٌ، وإنما يدعون إلى السجود كشفًا لحال الناس في الدنيا، فمن كان يسجد يمكّن من السجود، ومن كان يسجد رئاءً لغيره صار ظهره طبقًا واحدًا».

وقيل: أي: إذا قيل لهم اخضعوا للحق

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢-٦١٤، الدر المنثور، السيوطي ٦/ ٣٠٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم ١٧٩١٣، ٢٩/ ٤٣٨، وأبو داود في سننه، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جاء في خبر الطائف، رقم ٣٠٢٦.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، رقم ٤٧١١.

لا يخضعون، فهو عام في الصلاة وغيرها، وإنما ذكر الصلاة، لأنها أصل الشرائع بعد التوحيد. وقيل: الأمر بالإيمان؛ لأنها لا تصح من غير إيمان[1].

قال الواحدي رحمه الله: «إذا أمروا بالصلوات الخمس لا يصلّون مع محمد صلى الله عليه وسلم»[2].

قال ابن كثير رحمه الله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]، أي: إذا أمر هؤلاء الجهلة من الكفار أن يكونوا من المصلين مع الجماعة، امتنعوا من ذلك واستكبروا عنه»[3].

قال البغوي رحمه الله: «﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا﴾، يعني: صلّوا، ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾: لا يصلّون»[4].

قال ابن عطية رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ «هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس، فأرادوا السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض، وصارت فقراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره».

وقال بعض المتأولين: «عني بالركوع التواضع» كما قال الشاعر[5]:

بجمعٍ تضلّ البلق في حجراته
ترى الأكم فيه سجّدًا للحوافر

ويتابع ابن عطية قائلًا: «إنّ ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة، إنما كان لأن كثيرًا من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراها هيئةً منكرةً؛ لما كان في أخلاقهم من العجرفة»[6].

٢. أسلوب الوصف الدال على المدح.

وقد جاء في ثمانية مواضع، منها:

قال الله عز وجل: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وقال الله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقال عز وجل: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

وقال سبحانه: ﴿وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦٢٧.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٢٣/ ١٠٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٨.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٩٩٣.
(٥) الشاعر هو: زيد الخيل، إذ يستشهد بالبيت على أن السجود يأتي بمعنى الخضوع والتواضع، موافقًا للغة، وانظر: كتاب الصّاحبيّ، لابن فارس ٢٦١، حيث ورد بلفظ: بجمع تضلّ...، وأورد رواية ثانية: بجيش تضل...
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥١٠.

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقال وتعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

٣. أسلوب الوصف الدال على الذمّ.

وقد ورد في موضع واحد.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]..

٤. الأمر بالركوع بلفظ السجود.

وقد ورد بلفظة ﴿سُجَّدًا﴾، في ثلاثة مواضع هي:

قال الله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ٦١].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «القول في: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، فإن ابن عباس كان يتأوّل قوله تعالى: ﴿سُجَّدًا﴾ بمعنى: الرّكّع»[(١)].

وروي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ «ركعًا من باب صغير»[(٢)].

وعن ابن عباس من طريق آخر في قوله تعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال: «أمروا أن يدخلوا ركعًا».

قال أبو جعفر: «وأصل السجود الانحناء لمن سجد له معظّمًا بذلك، فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له وخشوعًا فهو له ساجد»[(٣)].

وقال الإمام الواحدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ركعًا، وهو شدة الانحناء، والمعنى: منحنين متواضعين»[(٤)].

وجاء بلفظ ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، بموضع واحد.

قال تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «معنى ذلك: ويرى تقلّبك في صلاتك حين تقوم، ثم حين تركع، وتسجد، وقال ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ «قيامك وركوعك وسجودك»[(٥)].

ونقل مثل هذا التفسير عن عكرمة أيضًا، وقد رجّح الإمام الطبري هذا القول بعد ذكره للأقوال الواردة في تفسير هذه الآية.

ويمكن أن نضيف أسلوبًا غير صريح يحث على الركوع: وهو الأمر بإقامة

(١) جامع البيان ١/ ٧١٤-٧١٥.
(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٦٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤-٧١٥.
(٤) البسيط ٢/ ٥٥٨.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٦٦٦-٦٧٠.

الصلاة، فإن ذلك يتضمن الأمر بالركوع؛ حيث إن الركوع جزء من الصلاة، وما أكثر الآيات الواردة في ذلك، ولا حاجة للإطالة في ذكرها.

ثانيًا: الثناء على الراكعين:

يعتبر الركوع من أهم الصفات التي يتميز بها العبد المسلم بخضوعه لربه جل جلاله، منحنيًا بهامته لخالقه ورازقه بكل عبودية وتعظيم وإخلاص لله تعالى.

ولقد أثنى الله عز وجل على الراكعين في أكثر من آية وردت بآيات الذكر الحكيم، وبعدة أساليب، أهمها:

١ . المدح المباشر للراكعين.

وقد ظهر ذلك بمدحه لمحمد صلى الله عليه وسلم وأتباعه؛ بأنهم يركعون لله سبحانه، ولهذا أمر اليهود بأن يخضعوا لله سبحانه، وأن يتبعوا رسوله محمدًا عليه الصلاة والسلام ويكونوا مع أتباعه، خاضعين لله ورسوله: ﴿وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣][1].

ويأمر الله لمريم عليها السلام بأن تكون راكعة مع الراكعين لله تعالى ، مخلصة له بالعبادة اصطفاؤها وتفضيلها على العالمين: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣][2].

ويجعل الركوع صفة من الصفات الممدوحة للمؤمنين المتبعين لشرع الله ورسوله، وجعل سبحانه وتعالى المكافأة على ذلك بأن الراكع وليه الله ورسوله، بل أوجب موالاتهم وحبهم بأداة الحصر (إنما): ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥][3].

ويمدح عباد الله المؤدين للصلوات المفروضة، والمكثرين من النوافل بعدة صفات، كان الركوع الصفة الخامسة، بقوله: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢][4].

مدح الله عز وجل للمكثرين من الركوع والسجود المتجهين إلى الكعبة المشرفة في صلاتهم وركوعهم، سواء أكانوا حولها أم بعيدين عنها.

بل أمر سبحانه خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بتطهير وتهيئة بيته المحرم لهؤلاء: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا

---

(١) المصدر السابق ١/ ٦٦٦.
(٢) المصدر السابق ٥/ ٤٠٠.
(٣) المصدر السابق ١/ ١٠٤.
(٤) البسيط، الواحدي ١١/ ٧١.

﴿بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥][1].

مدح أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بأنهم من المكثرين في الصلاة، والركوع والسجود من أجل أركان الصلاة: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩][2].

دلالة على محبة الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم حال رؤيته له متقلبًا في صلاته وركوعه وسجوده بقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

٢. الركوع سبب من أسباب قبول التوبة والفلاح.

فقد جعل الله سبحانه الركوع سببًا للتوبة عن بني إسرائيل، وشكرًا لله عز وجل على أن سهّل لهم فتح بيت المقدس، فقال: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨][3].

وقال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِي ٱلسَّبْتِ﴾ [النساء: ١٥٤][4].

وقال: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ﴾ [الأعراف: ١٦١][5].

وكلها أتت كما قال ابن عباس ومن وافقه بمعنى «ركعًا منحنين خاضعين لله سائلينه أن يحطّ عنهم سيئاتهم، ولكن بني إسرائيل خالفوا أمر الله جلّ ثناؤه، فلم يدخلوا راكعين، إنما دخلوا متزحفين على أستاههم -وفي رواية على أوراكهم-، مخالفين لأمر الله فاستحقوا الرجز من رب السماء»[6].

ونرى ذلك واضحًا في قبول التوبة والفلاح بقصة داوود عليه الصلاة والسلام الواردة في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤و٢٥].

أي: ألقى بنفسه نحو الأرض متطامنًا متواضعًا لله عز وجل، سائلًا ربه بأن يغفر له ذنبه، تائبًا مما وقع فيه من الخطأ. قال الحسن بن الفضيل: «سألني عبد الله بن طاهر عن قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، هل يقال للراكع خرّ؟ قلت: لا، ومعناه، أي: ساجدًا بعد ما كان راكعًا»[7].

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥١٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٦٨٩، الوسيط، الواحدي ٢٠/ ٣٢٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٤) المصدر السابق ١/ ٧١٢.
(٥) المصدر السابق ٤/ ٢٣٥، ٧١٢.
(٦) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٨.
(٧) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٨٠٠.

٣. ذم الذين لا يركعون لله تعالى.

فقد ذمّ الله الذين لا يركعون له في الدنيا، وهدّدهم بأن يفضحهم على رؤوس الخلائق يوم القيامة في أرض المحشر، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

وإذا استخدمنا مفهوم المخالفة لهذا النص اقتضى مدح من كان يركع لله في الدنيا فهو ناجٍ برحمة الله تعالى يوم القيامة من عذاب جهنم، مستحق للفوز برضوانه وجنته.

قال مقاتل رحمه الله في تفسير هذه الآية «قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (أسلموا)، وأمرهم بالصلاة، فقالوا: لا ننحني؛ فإنها مسبةٌ علينا فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (لا خير في دين ليس فيه ركوع ولا سجود)»(١).

ورجح الإمام ابن عطية: «بأن ذكر الركوع هنا وتخصيصه من بين سائر أحوال العبادة، إنما كان لأن كثيرًا من العرب كان يأنف من الركوع والسجود، ويراهما هيئة منكرة، لما كان في أخلاقهم من العجرفة!»(٢).

ثالثًا: بيان حسن الجزاء للراكعين في الآخرة:

يقوم المؤمن بطاعته لربه، وخضوعه لأوامره، واجتناب نواهيه، مخلصًا لله عز وجل في جميع أقواله وأعماله، مبتغيًا بذلك جزيل التوفيق في الحياة الدنيا، ورضى الله تعالى والفوز بجنته في الآخرة.

وقد رتب الله سبحانه على من اتصف بصفات الطاعة (بالركوع والسجود له) جزاء عظيمًا في الآخرة، نستخلصها من آية سورة الفتح، كما يأتي:

أولًا: وعد الله لهم بمغفرته ورضوانه، وإدخالهم النعيم المقيم في جنته.

قال الله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]. تراهم ركعًا أحيانًا لله في صلاتهم، سجدًا أحيانًا ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، يقول: يلتمسون بركوعهم وسجودهم وشدتهم على الكفار، ورحمة بعضهم بعضًا ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾، وذلك برحمته إياهم، بأن يتفضل عليهم فيدخلهم جنته، وأن يرضى عنهم ربهم، وقوله: ﴿مَّغْفِرَةً﴾، يعني: عفوًا عامًّا عما مضى من ذنوبهم وسيء أعمالهم بحسنها.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦٢٧.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥١٠.

وقوله: ﴿وَأَجۡرًا عَظِيمًا﴾ يعني: وثوابًا جزيلًا، وذلك الجنة»[1].

وزاد ابن كثير رحمه الله: «﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا﴾ [الفتح: ٢٩]. وعدهم الله مغفرة لذنوبهم، وثوابًا جزيلًا ورزقًا كريمًا. ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدّل، وكل من اقتفى أثر الصحابة رضي الله عنهم فهو في حكمهم»[2].

ثانيًا: علامة يجعلها الله في وجوه المؤمنين يوم القيامة، يعرفون بها؛ لما كان من سجودهم له في الدنيا، ثم اختلف أهل التأويل في «السيما» الذي عناه الله في هذا الموضع:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «صلاتهم تبدو في وجوههم يوم القيامة». وقال الحسن رضي الله عنه وعن خالد الحنفي وعطية: «مواضع السجود من وجوههم يوم القيامة تكون أشد بياضًا»، وهو كقوله سبحانه: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

وهناك أقوال أخرى وردت في بيان معنى هذه السيما، ذكرها ابن كثير ورجّحها جميعها، ولكنه قدّم هذه العلامة وأنها ستكون لهم في الآخرة، وذكر عدة أحاديث في ذلك منها، قال: «سمعت شبيبًا يقول: عن مقاتل بن حيان، قال: ﴿سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

قال: النور يوم القيامة»[3].

ثالثًا: ونرى في المقابل أن الله عز وجل توعد من لم يركع ويخضع له في الدنيا بالعذاب الشديد يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ ٤٨ وَيۡلٌ يَوۡمَئِذٍ لِّلۡمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «واختلف أهل التأويل في الحين الذي يقال لهم فيه، فقال بعضهم: يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون، عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرۡكَعُواْ لَا يَرۡكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود، من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا»[4].

وقال آخرون: «بل قيل ذلك لهم في الدنيا»[5].

(١) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢١ - ٣٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٣٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢-٦١٤.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ٦٢٧.

بين الركوع والسجود

إذا أمعنا النظر في لفظتي الركوع والسجود سواء من الناحية اللغوية، أو من الناحية الاصطلاحية، نجد بينهما توافقًا في جوانب، وتباينًا في جوانب أخرى، وسنفصل ذلك فيما يلي:

أولًا: جوانب التوافق:

من الناحية اللغوية:

يتفقان في أن كلًا منهما يدل على الخضوع والانحناء والذّل والخوف لشيء قوي قاهر، سواء كان للمخلوقات، أو كان خضوعًا لله سبحانه وتعالى بالطاعة له، والانقياد لشرعه.

وعلى هذا يمكن تفسير عبادة غير الله تعالى: بأن الناس اعتقدوا فيما يعبدونه من دون الله تعالى القوة والبطش، فذلوا لآلهتهم وعبدوها وقدّموا لها القرابين، وكانوا يدخلون أماكنها وهم يركعون، أو يسجدون، أو راكعين ساجدين.

أما المسلم فلا يركع إلا لله عز وجل، فهو خالقه والمنعم عليه؛ طمعًا في مرضاته وفوزه بجنته، وخوفًا من غضبه وعذابه، فيكون الركوع والسجود في الصلاة شكرًا لله عز وجل، وطلبًا لعبادته، وتعظيمًا لقدره، وتقربًا إليه، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا وَٱعْبُدُوا﴾ [الحج: ٧٧].

وغير ذلك مما ورد في شأن الركوع أو السجود.

من الناحية الشرعية:

نجد أن الركوع أو السجود أو كليهما كانا عند جميع الأمم وفي شرائعهم المنزلة، كما أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

وقوله سبحانه آمرًا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وأمره سبحانه لإبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام في موضع آخر: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

بل ذمّ الله سبحانه وتعالى من لم يركع له في الدنيا، وأن له العذاب الشديد يوم القيامة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ۝٤٨ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

ثانيًا: جوانب التباين:

من الناحية اللغوية:

الركوع هو: انحناء وخفض للرأس والظهر بدون أن يصل الراكع إلى الأرض، أمّا السجود فإنه لابدّ للساجد من وضع جبهته وأنفه على الأرض، وعليه فالسجود أكثر خضوعًا وتذللًا من الركوع؛ لذا ورد في الحديث: **(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء)**[1].

من الناحية الشرعية:

فالركوع انحناء للظهر واستقامته مع الرأس ومسك اليدين للركبتين، ويكون فيه تعظيمٌ للربّ بقول الراكع: (سبحان ربي العظيم) ثلاثًا.

أما السجود فهو وضع الجبهة مع الأنف واليدين والركبتين وباطن أصابع القدمين على الأرض، ويكون فيه التسبيح لله تعالى العلي القهار بقول الساجد: (سبحان ربي الأعلى) ثلاثًا، ويكون فيه الدعاء بما يشاء العبد، ويكون فيه أقرب إلى الله تعالى، وعلى هذا جاء نص الحديث التالي: **(فأما الركوع فعظّموا فيه الرب، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمنٌ أن يستجاب لكم)**.

لذلك إذا استقرأنا الآيات التي ذكر فيها الركوع والسجود، نرى تقديم الركوع فيها على السجود دائمًا، ماعدا آية آل عمران رقم ٤٣، ففيها تقديم السجود على الركوع، وسنرى تعليل ذلك، ونجد أيضًا أن ترتيب الركوع في الصلاة يكون قبل السجود، ولا يتوصل إلى السجود إلا بالركوع، فالركوع بداية الخضوع، والسجود كمال الخضوع ونهايته، وكلاهما لا يكون إلا لله ربّ العالمين.

ثالثًا: الركوع بمعنى السجود:

بالرجوع إلى نصوص الآيات التي وردت بالركوع، نرى أن لفظة الركوع تصرف إلى حقيقتها الشرعية واللغوية مالم يكن هنالك صارف إلى معنى آخر، وأنه ركن من أركان الصلاة، فعبّر الله تعالى بالركوع عن الصلاة التي فيها الصلة به والخضوع له، لكننا نجد أن الركوع ورد بمعنى السجود في:

أولًا: قول الله تعالى حكاية عن نبيه داوود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

فقد فسّرها الإمام الطبري رحمه الله: «فخرّ ساجدًا لله، ورجع إلى رضى ربه، وتاب من خطيئته»[2].

وقال الحسين بن الفضل: «المعنى

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم ٤٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٦٤.

(خرّ من ركوعه)، أي: سجد بعد أن كان راكعًا»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم سجد في (ص) وقال: (سجدها داوود عليه السلام توبةً، ونسجدها شكرًا)[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في رواية سعيد بن جبير: «﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، ساجدًا».

وقال الواحدي رحمه الله: «ويجوز أن يعبّر بالركوع عن السجود، لأن الركوع في اللفظ معناه الانحناء، ولا خلاف بين المفسرين أنه خرّ ساجدًا»[3].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا﴾، أي: ساجدًا، عبّر بالركوع عن السجود، لأن كل واحد منهما فيه انحناء، قال الحسين بن الفضل: سألني عبد الله بن طاهر عن قوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، هل يقال للراكع خرّ؟ قلت: لا، ومعناه: فخرّ، أي: ساجدًا، بعد ما كان راكعًا»[4].

ثانيًا: وقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].

يقول الإمام الطبري رحمه الله: «واختلف أهل التأويل في الحين الذي يقال لهم فيه، فقال بعضهم: يقال لهم ذلك في الآخرة حين يدعون إلى السجود فلا يستطيعون. روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، يقول: يدعون يوم القيامة إلى السجود فلا يستطيعون السجود. من أجل أنهم لم يكونوا يسجدون لله في الدنيا»[5].

قال ابن عطية رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾، قيل: هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس، فأرادوا السجود فانصرفت أصلابهم إلى الأرض وصارت فقراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره»[6].

رابعًا: السجود بمعنى الركوع:

ذكرنا سابقًا أنه ورد لفظ السجود بمعنى الركوع في ثلاثة مواضع:

قال الله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [البقرة: ٥٨].

وقال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [النساء: ١٥٤].

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٣٤١.
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى، ٢/ ٥، رقم ١٠٣١.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود، الأم ٥/ ١٥٤.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ١٩/ ١٩٠.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٨٠٠.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢-٦١٤.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥١٠.

وقال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١].

وكلها وردت في أمر الله تعالى لبني إسرائيل بأن يدخلوا من باب حطة إلى بيت المقدس راكعين، خاشعين، شاكرين لله على أنه فتح عليهم مدينة بيت المقدس.

قال الإمام القرطبي رحمه الله: «وأما قوله: ﴿سُجَّدًا﴾، فإن ابن عباس كان يتأوّله بمعنى الركوع».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال: «ركّعًا من باب صغير»[(١)].

وعن ابن عباس من طريق آخر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال: «أمروا أن يدخلوا ركّعًا».

قال أبو جعفر: «وأصل السجود الانحناء لمن سجد له معظّمًا بذلك، فكل منحنٍ لشيء تعظيمًا له وخشوعًا فهو له ساجد»[(٢)].

وقال الإمام الواحدي رحمه الله: «وقوله: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ركّعًا، وهو شدة الانحناء، والمعنى: منحنين متواضعين.

قال مجاهد رحمه الله: هو باب حطة من بيت المقدس، طوطئ لهم الباب ليخفضوا رؤوسهم، فلم يخفضوا ولم يركعوا، ودخلوا متزحفين على أستاههم»[(٣)].

وقال ابن كثير رحمه الله: «وحكي عن بعضهم أن المراد هنا بالسجود الخضوع؛ لتعذّر حمله على حقيقته»[(٤)].

وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى: «﴿سُجَّدًا﴾، أي: ركّعًا، خضّعًا، منحنين.

وقال وهب: فإذا دخلتموه فاسجدوا شكرًا لله»[(٥)].

وورد أيضًا في بعض التفاسير أن السجود أتى بمعنى الركوع في قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٩].

قال الإمام الطبري رحمه الله: «ويرى تقلّبك مع الساجدين في صلاتهم معك، حين تقوم معهم وتركع وتسجد؛ لأن ذلك هو الظاهر من معناه»[(٦)].

وقال الإمام الشنقيطي رحمه الله: «﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي: المصلين، إذا صليت بالناس»[(٧)].

خامسًا: الركوع والسجود منفردين ومجتمعين:

بالتتبّع لآيات الركوع والسجود نجد أن آيات الركوع الواردة في القرآن الكريم أقل من آيات السجود عمومًا، وأن آيات الركوع

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ٢٦٢، وقال: صحيح على شرط الشيخين.
(٢) جامع البيان، الطبري ١/ ٧١٤-٧١٥.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ٢/ ٥٥٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٤.
(٥) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٦.
(٦) جامع البيان، الطبري ١/ ٦٦٦ - ٦٦٩.
(٧) أضواء البيان ٦/ ٣٨٨.

جاءت منفردة بالركوع في آيات، ومجتمعة مع السجود في آيات أخر.

١. مجيء الركوع منفردًا.

أتت آيات الركوع منفردة لم يذكر معها السجود بثلاثة مواضع، هي:

- لجماعة المصلين كما في قوله تعالى: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].
- وقوله: ﴿وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].
- ولمن طلب منهم الصلاة بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨].
- خاص لمريم عليها الصلاة والسلام في قول الله عز وجل: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].
- خاص بداوود عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

٢. مجيء الركوع والسجود مجتمعين.

غالب الآيات التي ورد فيها الركوع، قرن بالسجود؛ كقوله تعالى: ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، [الحج: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ﴾ [التوبة: ١١٢].

وقوله: ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ [الحج: ٧٧].

وقوله: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩].

مما يدلّ على تلازم الركوع مع السجود؛ حيث جاءت مرتبة للركوع قبلًا ثم السجود، ولأن الإنسان لا يمكن أن يصل إلى السجود قبل المرور بالركوع، وهذا هو الترتيب في أداء الصلاة، الركوع أولًا ثم يعقبه الرفع منه ثم السجود، وكلاهما يدلان على محض الخضوع والخشوع لله تعالى.

وجاء الركوع والسجود في آية واحدة مجتمعين؛ ولكن بتقديم السجود على الركوع، في قوله تعالى: ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي﴾ [آل عمران: ٤٣].

فلم قدّم السجود هنا على الركوع؟

وللمفسرين في بيان سبب تقديم السجود على الركوع في هذه الآية أربعة أقوال، نبسطها لبيان الحكمة في ذلك:

القول الأول: الواو هنا للجمع لا للترتيب، وليس فيه دليل على المبدوء به. فقدم السجود لفظًا، وهو مؤخر معنىً[(١)].

القول الثاني: أن السجود كان مقدمًا في شريعة زكريا عليه الصلاة والسلام وغيره من أنبيائهم.

قال المنتجب الهمذاني: «أي قيل لمريم: افعلي كليهما، وقد ثبت في الصدور واستقر في النفوس تقديم الركوع على السجود،

(١) انظر: التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٢٤٧-٢٥٠.

والقوم -أي: العرب- إذا أمنوا اللبس تلعّبوا بألفاظهم، مع أن العطف عارٍ عن الترتيب»[1].

القول الثالث: أن الأمر ورد عامًا فيه حضٌّ على أفعال الخير، فكأنه قال: استعملي السجود في حال، واستعملي الركوع في حال، ولم يذهب إلى أنهما يجتمعان، ثم يقدّم السجود على الركوع، بل أراد العموم بالأمر على اختلاف الحالين.

قال ابن عطية رحمه الله: «وإنما المعنى: افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع -أي: في الصلاة- وهذه الآية أكثر إشكالًا من قولنا: قام زيد وعمرو؛ لأن قيام زيد وعمروٍ ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك؟»[2].

القول الرابع: أن مريم أمرت بفعلين ومعلمين من معالم الصلاة، هما طول القيام والسجود أولًا ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي﴾، وخصّا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة؛ إذ العبد يقرب في وقت سجوده من الله تعالى ، وهذان يختصان بصلاتها منفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام فليس يقال له: أطل قيامك!.

ثم أمرت بعد بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وقصد هنا معلمًا من معالم الصلاة؛ لئلا يتكرر اللفظ، ولم يرد بالآية السجود الذي هو منتظم في ركعة واحدة، والله أعلم[3].

ونقل ابن كثير رحمه الله قول الأوزاعي «أن مريم ركدت في محرابها راكعة ساجدة وقائمة حتى نزل الماء الأصفر على قدميها رضي الله عنها وأرضاها»[4].

وللفائدة: نذكر مقارنة أجراها الإمام ابن القيم، توضح لنا نقطة مهمة تعتبر سببًا من أسباب تقديم الركوع على السجود؟ أو تقديم السجود على الركوع؟ وذلك في الآيتين التاليتين:

الأولى: قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

ففيها ترتيب من الخاص إلى العام بين أربعة أشياء: أخصّها الركوع ثم السجود أعم منه، ثم العبادة أعم من السجود، ثم فعل الخير العام، المتضمن لما سبقه.

الثانية: قوله تعالى: ﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣].

ففيها ترتيب من العام إلى الخاص،

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٣٨٩.
(٢) التفسير البسيط، الواحدي ٥/ ٢٤٧.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٥٤.

فتقدّم السجود بسبب تقدّم القنوت الذي هو أعم منه، ولأن في السجود الدعاء القريب من القنوت ثم الركوع[1].

ثمرات الالتزام بالركوع

أولًا: ثمرات دنيوية على مستوى الفرد:

الغاية من خلق الإنسان بل الثقلين هي: توحيد الله عقيدة وعبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فعلى الإنسان المؤمن أن تكون عبادته وحياته ومماته كلها لله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

فخضوع الفرد في هذه الحياة الدنيوية لا ينبغي أن يكون إلا للخالق عز وجل وحده لا شريك له، فإننا نستطيع استخلاص الثمرات التي يحصل عليها الفرد المسلم في الركوع لمولاه دون سواه، وأهمها:

١ . ثمرات إيمانية.

امتثال أمر الله بالركوع والخضوع تذللًا للمولى سبحانه وتعالى، وتعظيمًا له حسب التسبيح المأثور.

تحقيق معنى العبودية الخالصة لخالقه عزّ شأنه.

منح العزة الإيمانية التي تعطي المسلم الحياة الكريمة، بحيث لا يركع إلا لخالقه سبحانه.

(١) بدائع الفوائد، ابن القيم ص٨٠.

استقلال شخصية العبد عن التبعية للآخرين ممن أشركوا وعبدوا غير الله تعالى.

حسن الركوع والخشوع من أسباب قبول الصلاة والتلذذ بالعبادة، وعن قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ﴾ [المرسلات: ٤٨]: عليكم بحسن الركوع، فإن الصلاة من الله بمكان. وقال قتادة عن ابن مسعود: «أنه رأى رجلًا يصلي ولا يركع، وآخر يجرّ إزاره، فضحك، قال: ما يضحكك؟ قال: أضحكني رجلان؛ أما أحدهما فلا يقبل الله صلاته، وأما الآخر فلا ينظر الله إليه»(١).

مغفرة الله لذنوب الراكعين الملتزمين بأوامره، وزيادة الإحسان إليهم.

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

وقوله: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٤-٢٥].

محبة الله للمصلين الراكعين الساجدين، حيث أمر الله إبراهيم مرة بتطهير بيته الحرام بمكة المكرمة، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦].

وأمر إبراهيم مع ولده إسماعيل مرة ثانية، فقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، [البقرة: ١٢٥].

ثانيًا: ثمرات دنيوية على مستوى الجماعة:

كل الطاعات لله عز وجل لها فوائد وجني ثمارٍ يانعة على مستوى الفرد والجماعة، وقد ذكرنا سابقًا على مستوى الفرد، ونوجز هنا أهم الثمرات الدنيوية التي تستفيد منها الجماعة المسلمة، وهي:

١. الحث على صلة الفرد المسلم بإخوانه يوميًا خمس مراتٍ، عن طريق أداء الصلاة مع الجماعة، قال تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾، وقوله: ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾، وقوله: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ﴾، وقوله: ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾، وقوله: ﴿ٱرْكَعُوا وَٱسْجُدُوا﴾، وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، مما يجعل الجماعة في ترابط دائم وتعاضد مستمر في السراء والضراء.

٢. الحث على ارتياد المساجد التي بنيت لأداء الصلاة والذكر وقراءة القرآن؛ مما يؤدي إلى إعمارها بجماعة المسلمين، وإبقاء دور المسجد في العبادة والعلم وجميع ما يلزم لأحوال المسلمين، قال تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾،

(١) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٦١٢.

وقوله: ﴿وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، فإن (مع) تفيد وجوب أداء الصلاة بشهود الجماعة، وهذا يكون في المساجد[1].

٣. تزكية الجماعة الراكعة لله تعالى بأنهم من عمّار بيت الله الحرام في مكة؛ لذا أمر الله خليله إبراهيم وولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام بتطهير بيته المكرم لهم، فقال: ﴿أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥][2].

٤. الركوع خضوعًا لله تعالى بعد المعصية من أسباب قبول التوبة وتكفير الذنوب، وزيادة الإحسان للعبد من خالقه، قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨][3].

٥. وجود الركوع في الصلاة من خصوصيات أمة محمدٍ عليه أفضل الصلاة والسلام، وقد ذكر هذا بعض المفسرين في تفسير آية: ﴿وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾، حيث قال: إنما خص الركوع بالذكر لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع![4].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٣٤٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ٧/ ٦٤٤.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ١٩٩.

ثالثًا: ثمرات أخروية على مستوى الفرد والجماعة:

يحرص كل مسلم في هذه الدنيا على القيام بطاعة الله سبحانه، جاعلًا من دنياه مزرعة لآخرته؛ ليحصل على إرضاء مولاه، ويقطف ثمار ما زرعه في دنياه يوم القيامة والحساب، فيفوز برضى الله وجنته، وقد بين الله عز وجل في آيات الركوع بعض ما يكون للعبد من جزاء في الآخرة، نوجزها بما يلي:

١. بشارة الله سبحانه لمن اتصف بهذه الصفات التسع بأنهم من المؤمنين، وذكر من ضمنها صفة ﴿الرَّاكِعُونَ﴾، قال الله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

٢. الوعد بالفلاح في الآخرة للمؤمنين الراكعين، الساجدين، العابدين الله، الفاعلين للخير، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧].

٣. للراكعين الساجدين سيما وعلامة

تميّزهم بها من غيرهم في أرض المحشر من أثر السجود، وقد وصف الله تعالى محمدًا صلى الله عليه وسلم والذين معه بذلك، فقال سبحانه: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾[الفتح: ٢٩].

٤. تقريب الله تعالى للعبد المؤمن المستغفر من ذنبه، الراكع لربه والمنيب إليه، ومنحه الدرجات العالية في الجنة على توبته، قال الله تعالى بعد قبول توبة نبيه داوود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥](١).

٥. الوعد بالمغفرة والأجر العظيم في الآخرة لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، ومن سار على نهجهم، قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

٦. كشف كذب المجرمين الذين لم يركعوا لله في الدنيا أمام الخلائق في أرض المحشر يوم القيامة، وأن لهم العذاب الشديد في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ﴾، ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٤٨-٤٩].

موضوعات ذات صلة:

التسبيح، الذكر، السجود، الصلاة

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٩.





عناصر الموضوع

مفهوم الروح	٣١٨
الروح في الاستعمال القرآني	٣١٩
الألفاظ ذات الصلة	٣٢٠
إسناد الروح إلى الله تعالى	٣٢٢
حقيقة الروح وصفاتها	٣٢٣
الموصوفون بالروح في القرآن	٣٢٦
نعيم الروح وعذابها	٣٤٢

المجلد السادس عشر

مفهوم الروح

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ر و ح) تدل على سعة وفسحة واطراد، وأصل ذلك كله الريح[١].

والرُّوحُ: النَّفْس[٢]. ويذكّر ويؤنّث، والجمع الأَرْواح. وسُمِّي القرآن رُوحًا، وكذلك جبريلُ وعيسى عليهما السلام[٣].

والرَّوْحُ: برد نسيم الريحِ. والرائحةُ: النسيم، طيبًا كان أو نتنًا[٤].

قال ابن الأثير: «قد تكرر ذكر الروح في الحديث، كما تكرر في القرآن، ووردت فيه على معان، والغالب منها أن المراد بالروح الذي يقوم به الجسد وتكون به الحياة، وقد أطلق على القرآن، والوحي، والرحمة، وعلى جبريل»[٥].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال البغوي في تفسيره: «والروح جسم لطيف يحيا به الإنسان»[٦].

وقال القرطبي: «الروح: جسم لطيف، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق، فالروح خلق من خلقه، أضافه إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا»[٧].

وقال عنها المراغي: «إنها جسم نوراني، علويّ، خفيف، حي، متحرك، ينفذ في جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء في الورد، والنار في الفحم»[٨].

وقال ابن عاشور: «والروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني، الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنينًا»[٩].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٤٥٤.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٥/ ١٣٩.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ١/ ٣٦٧.
(٤) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ٥٠٨.
(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٢٨٧١.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٨٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٢٤.
(٨) تفسير المراغي ٤/ ١٧٦.
(٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٦.

الروح في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ر و ح) في القرآن الكريم (٥٧) مرة، وتكررت (الروح) (٢١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	٢١	﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]

وجاءت الروح في القرآن على خمسة أوجه[٢]:

الأول: مادة الحياة في الإنسان وذوات الأروح: ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] يعني: الروح التي هي سبب الحياة.

الثاني: جبريل عليه السلام: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] يعني: جبريل عليه السلام.

الثالث: الوحي: ومنه قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢] يعني: بالوحي.

الرابع: الرحمة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] يعني: قوّاهم برحمة منه.

الخامس: الأمر: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] يعني: وأمر منه.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٣٢٦.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٢٩-٢٣٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ النفس:

النفس لغة:

تطلق النفس في اللغة على معنين: الروح، وذات الشيء وحقيقته.

فمن الأول: قولهم: خرجت نفس فلَان، أي: روحه.

ومن الثاني: قولهم: قتل فلَان نَفسه، وَالْمعْنَى: أَنه أوقع الهلاك بذاته كلها[(١)].

النفس اصطلاحًا:

يقول المناوي عن النفس: «هي جوهر مشرق للبدن ينقطع ضوؤه عند الموت من ظاهر البدن وباطنه، وأما وقت النوم فينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن دون باطنه، فالموت انقطاع كلي، والنوم انقطاع خاص. وعلى ذلك فيكون تعلقها بالإنسان على ثلاثة أضرب: إن غلب ضوء النفس على جميع أجزاء البدن ظاهره وباطنه فهو حال اليقظة، وإن انقطع عن ظاهره فقط فهو النوم، وإن انقطع بالكلية فالموت»[(٢)].

الصلة بين النفس والروح:

قال بعض اللغويين: النفس والروح واحد، وقال آخرون: بل هما متغايران؛ إذ النفس هي مناط العقل، والروح مناط الحياة، وسميت النفس نفسًا لتولّد النّفس منها واتصاله بها، كما سموا الروح روحًا؛ لأن الروح موجود بها[(٣)].

ويقول الألوسي: «اختلف الناس في الروح والنفس، وهل هما شيء واحد أم شيئان؟ فحكى ابن يزيد عن أكثر العلماء أنهما شيء واحد؛ فقد صح في الأخبار إطلاق كل منهما على الآخر»[(٤)].

وقال ابن تيمية: «والروح المدبرة للبدن التي تفارقه بالموت، هي الروح المنفوخة فيه، وهي النفس التي تفارقه بالموت، قال النبي صلى الله عليه وسلم لما نام عن الصلاة: (إن الله قبض أرواحكم حيث شاء وردها حيث شاء)[(٥)]، وقال له بلال رضي الله عنه: (أخذ

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٣٢.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٢٨.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٨٤، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٢٣٢.
(٤) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، الألوسي ص١٦٥.
(٥) أخرجه أبو داود، كتاب الصلاة، باب من نام عن الصلاة أو نسيها، ١/ ١٢٠، رقم ٤٣٩.



بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت يا رسول الله)[1]، وقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ﴾[الزمر: ٤٢]. قال ابن عباس وأكثر المفسرين: يقبضها قبضين: قبض الموت، وقبض النوم، ثم في النوم يقبض التي تموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى حتى يأتي أجلها وقت الموت»[2].

٢ الحياة:

الحياة لغة:

مادة (حيّ) تدور حول أصلين: أحدهما خلاف الموت، والآخر الاستحياء الّذي هو ضدّ الوقاحة. فأمّا الأوّل فالحياة والحيوان، وهو ضدّ الموت والموتان. ويسمّى المطر حيًّا لأنّ به حياة الأرض، والأصل الآخر: قولهم استحييت منه استحياءً»[3].

الحياة اصطلاحًا:

الحياة: في الأصل: الروح وهي الموجبة لتحرك من قامت به، ذكره العكبري.

وقال الحرالي: الحياة تكامل في ذات ما أدناه حياة النبات بالنمو والاهتزاز مع انغراسه إلى حياة ما يدب بحركته وحسه إلى غاية حياة الإنسان في تصرفه وتصريفه، إلى ما وراء ذلك من التكامل في علومه وأخلاقه. وقال في موضع آخر: الحياة كل خروج عن الجمادية من حيث إن معنى الحياة بالحقيقة تكامل الناقص[4].

الصلة بين الحياة والروح:

قال العسكري: «إن الروح من قرائن الحياة، والحياة عرض والروح جسم رقيق من جنس الريح، وقيل: هو جسم رقيق حساس، وتزعم الأطباء أن موضعها في الصدر من الحجاب والقلب، وذهب بعضهم إلى أنها مبسوطة في جميع البدن وفيه خلاف كثير»[5].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، رقم ٦٨٠.
(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ٩/ ٢٨٩.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ١٢٢.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٤٩
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٦١.

إسناد الروح إلى الله تعالى

أسند الله تعالى الروح إلى نفسه في كثير من آيات كتابه العزيز، من ذلك توضيحه وبيانه لعباده أن أمر الروح منه هو، ولم يسنده لأحد غيره سبحانه، وأنه من اختصاص الله دون غيره من خلقه، فقال في ذلك: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وفي موضع آخر من كتابه الكريم نجد أنه سبحانه أسند الروح لنفسه، وقد وردت في القرآن كثيرًا في سياق الإشارة إلى هبة نسمة الحياة لآدم والمسيح والناس، مضافة إلى الله عز وجل، كما في آيات سورة الحجر، وذلك بعد خلقه للبشر، وتسويته معظمًا لهم ورافعًا من شأنهم، وذلك بأنه بعد أن سوّى خلقه وأكمله، نفخ فيه من روحه، فقال في ذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٨ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

وفي موضع آخر: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وقال في مكان آخر: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

ونتابع المواضع التي أسند فيها الله سبحانه وتعالى الروح لنفسه، موضّحًا أن الروح من أمره هو، نقرأ في ذلك هذه الآيات: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥]، التي يبين لنا فيها أن الروح -أيًا كان معناه- لا ينزل ولا يلقى إلا بأمره سبحانه وتعالى، وإلى هذا المعنى أشار في قوله: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ٢].

وقوله جل شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢].

وأسند الله تعالى الروح لنفسه مرة أخرى عندما أراد خلق عيسى عليه السلام من أمه مريم العذراء، مبينًا المعجزة العظمى والقدرة الخارقة في خلقه، فقال في ذلك مرة: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

مسندًا الروح التي أرسلها إلى مريم لنفسه.

وقال في موضع آخر: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

وفي غيره: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾

[التحريم: ١٢].

موضحًا في ذلك أن النفخ فيها من روحه هو سبحانه وتعالى. كما سمى هذه الروح المسنودة إليه: كلمة، وأسندها لنفسه كذلك، فقال: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾[النساء: ١٧١].

وفي سورة يوسف أسند سبحانه وتعالى الروح الذي يأتي بمعنى الرحمة والفرج -حسب إفادة كثير من المفسرين- أسنده لنفسه، مبينًا في ذلك أن الفرج والرحمة لا تكون إلا منه وحده، فقال: ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

كما بيّن سبحانه وتعالى تأييده للمؤمنين به، ناسبًا الروح التي أيدهم بها إليه هو دون غيره من خلقه، فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وعندما أسند الله تعالى الروح لنفسه كان لذلك دلالات عديدة، نتطرق إليها فيما يأتي:

أولًا: أن هذا الأمر من اختصاص الله وحده لا ينازعه فيه أحد من خلقه، ولم يطلع سبحانه أحدًا من عباده على هذا الأمر، وفيه دلالة كذلك على أنه من المأمورات التي قضاها وقدرها على مخلوقاته؛ لذلك يقول ابن القيم في كتابه الروح: «وقال بعضهم: الأرواح من أمر الله، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق، فمعلوم قطعًا أنه ليس المراد ها هنا بالأمر الطلب الذي هو أحد أنواع الكلام، فيكون المراد: أن الروح كلامه الذي يأمر به، وإنما المراد بالأمر ها هنا المأمور، وهو عرف مستعمل في لغة العرب، وفي القرآن منه كثير كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١] أي: مأموره الذي قدّره وقضاه، وقال له كن فيكون.

وكذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[هود: ١٠١]. أي: مأموره الذي أمر به من إهلاكهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾ [النحل: ٧٧].

وكذلك الخلق يستعمل بمعنى المخلوق، كقوله تعالى للجنة: أنت رحمتي، فليس في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

ما يدل على أنها قديمة غير مخلوقة بوجه ما، وقد قال بعض السلف في تفسيرها: جرى بأمر الله في أجساد الخلق وبقدرته استقر، يعنى خلقًا من خلقي»[(١)].

وإلى هذا المعنى وهذه الدلالة أشار شارح الطحاوية حين قال: «وقد أجمعت الرسل على أنها محدثة مخلوقة، مصنوعة

(١) الروح، ابن القيم، ص١٤٤.

مربوبة مدبرة، وهذا معلوم بالضرورة من دينهم، أن العالم محدث، ومضى على هذا الصحابة والتابعون، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه في الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة، واحتج بأنها من أمر الله، وأمره غير مخلوق، وبأن الله أضافها إليه بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبقوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]»[1].

ثانيًا: ومن دلالات هذا الإسناد، أن الروح خلقٌ من خلق الله تعالى كما بيّن ذلك صاحب أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، قائلًا في حديثه عن الآية: «أي: من خلق ربي، أو من فعل ربي؛ إذ الأمر بمعنى الفعل وارد، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَمۡرُ فِرۡعَوۡنَ بِرَشِيدٖ﴾ [هود: ٩٧].

أي: فعله. والجواب وقع من قبيل صرف الأهم، أي: إن عقولكم لا تدرك هذا، فإن له مقدمات طبيعية تدق عن الأفهام، وتقصر دونها الأوهام، لكن الأهم، أن تعلموا أن الروح من عالم الأمر، أي: الخلق.

وقال الحافظ ابن الجوزي في موضع آخر: «رأيت كثيرًا من الخلق والعلماء لا ينتهون عن البحث عن أصول الأشياء التي أمروا بعلم جملها من غير بحث عن حقائقها، كالروح مثلًا، فإن الله تعالى سترها بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥]، فلم يقنعوا، وأخذوا يبحثون عن ماهيتها وحقيقتها، ولا يقنعون بشيء، ولا يثبت لأحدهم برهان على ما يدعيه، وكذلك العقل، فإنه موجود بلا شك، كما أن الروح موجودة بلا شك، وكلاهما إنما يعرف بآثاره لا بحقيقة ذاته، قال: فإن قال قائل: فما السر في كتم هذه الأشياء؟ قلت: لأن النفس لا تزال تترقى من حالة إلى حالة، فلو اطّلعت على هذه الأشياء لترقّت إلى خالقها، فكان ستر ما دونه زيادة في تعظيمه؛ لأنه إذا كان بعض مخلوقاته لا تعلم حقيقته فهو سبحانه أجل وأعلى»[2].

وجاء في أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية: «ويأتي أمر الله، بمعنى مأموره، أي: الشيء الذي وجد أو سيوجد بأمره، كقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وقوله: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

ونحوها، وقد جمع الله بين الأمر بمعنى المأمور، والأمر بمعنى كلامه الذي يأمر به في أول سورة النحل، بقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ

---

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٥٦٢.

(٢) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، مرعي الكرمي ص١٩٠، وص٢١٤.

﴿مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل: ١-٢]»[1].

ويقول السهيلي في ذلك: «وقوله: ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ أيضًا ولم يقل: من أمر الله، ولا من أمر ربكم، يدل على خصوص، وعلى ما قدمناه من أنه لا يعلمه إلا من أخذ معناه من قول الله سبحانه، وقول رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الإيمان بالله ورسوله»[2].

ثالثًا: ودل إسناد أمر الروح للواحد الأحد على عجز البشر وقلة علمهم، وعظم قدرة الخالق وجلال قدره وعلمه، نطالع ذلك في البداية والنهاية: «أي خلقٌ عجيبٌ من خلقه، وأمرٌ من أمره، قال لها: كوني فكانت. وليس لكم الاطلاع على كل ما خلقه، وتصوير حقيقته في نفس الأمر يصعب عليكم بالنّسبة إلى قدرة اللّه تعالى وحكمته»[3].

وفي شرح القسطلاني أن إسناد أمر الروح لله تعالى يدل دلالة واضحة على عجز الخلائق عن إدراك ماهيتها: «﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾، أي: مما استأثر الله بعلمه، فهو من أمر ربي لا من أمري، فلا أقول لكم ما هي، والأمر بمعنى الشأن، أي: معرفة الروح من شأن الله لا من شأن غيره، وعجزت الأوائل عن إدراك ماهيته بعد إنفاق الأعمار الطويلة على الخوض فيه، إشارة إلى تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له؛ ليدل على أنه عن إدراك خالقه أعجز»[4].

وهذا ما جاء في العقائد الإسلامية في إطار حديثه عن إسناد أمر الروح لخالق الكون: «فالروح من أمر الله الذى لا يعلمه غيره، ولم يطلع عليه أحدًا سواه، ولم يعط الإنسان الوسائل التي توصله إلى هذا اللون من العلم والإحاطة به، فعلم الإنسان قليل ومحدود، وهو لم يدرك حقيقة المادة، ولا الكون المحسوس المحيط به، فكيف يتطلع إلى إدراك سر من أسرار الله، وغيب من غيوبه؟! كانت الروح هي المميزة للإنسان عن غيره في هذا العالم، وبها صار عالمًا وحده، وبالروح أسجد الله للإنسان ملائكته، وسخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وجعله سيد هذا الكون، وخليفته في الأرض»[5].

وفي هذا العجز البشري الذي استمر عبر العصور عن معرفة كنه الروح والتوصل إلى حقيقتها، يقول ألكسيس كاريل: «لقد بذل الجنس البشري مجهودًا جبارًا لكي يعرف نفسه، ولكن بالرغم من أننا نملك كنزًا من الملاحظات التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار العلماء والروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم

(١) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله الجربوع ٢/ ٥٠٤.
(٢) الروض الأنف، السهيلي ٣/ ٩٦.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير ٣/ ٦٩.
(٤) إرشاد الساري، القسطلاني ٧/ ٢١٢.
(٥) العقائد الإسلامية، سيد سابق ص ٢٢٤.

جوانب معينة فقط من أنفسنا، إننا لا نفهم الإنسان ككل، إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة، وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من موكب من الأشباح، تسير في وسطها حقيقة مجهولة، وواقع الأمر أن جهلنا مطبق، فأغلب الأسئلة التي يلقيها على أنفسهم أولئك الذين يدرسون الجنس البشري تظل بلا جواب؛ لأن هناك مناطق غير محدودة في دنيانا الباطنية ما زالت غير معروفة»[(١)].

رابعًا: ومن دلالات إسناد أمر الروح لله تعالى أن ذلك من علمه الذي لا يحيط به أحدًا من خلقه، وأنه سر من الأسرار التي أخفاها الله تعالى عن خلقه، وأنها من شئونه التي لا يجوز الاطلاع عليها، قال ابن جرير: «﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، يعني: أنه من الأمر الذي يعلمه الله دونكم، فلا تعلمونه، ويعلم ما هو»[(٢)]. وممن قال بذلك المراغي في تفسيره: «الأمر واحد الأمور: أي: الروح شأن من شئونه تعالى حدث بتكوينه وإبداعه من غير مادة، وقد استأثر بعلمه، لا يعلمه إلا هو؛ لأنكم لا تعملون إلا ما تراه حواسكم وتتصرف فيه عقولكم»[(٣)].

وهذا القرطبي يقول حول دلالة الإسناد في الآية: «دليل على خلق الروح، أي: هو أمر عظيم وشأن كبير من أمر الله تعالى»[(٤)]، ويتجه الأصفهاني إلى أن الدلالة في ذلك أنه نوع من الإبداع الإلهي، فيقول: «أي: هو من الإبداع الذي لا يمكن للبشر تصوره، فنبّه أن الأرواح كلها مرجوعة إليه وراجعة»[(٥)]، وقال في المفردات: «أي: من إبداعه وعبّر عنه بأقصر لفظة، وأبلغ ما يتقدّم فيه فيما بيننا بفعل الشيء، وعلى ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

فعبّر عن سرعة إيجاده بأسرع ما يدركه وهمنا»[(٦)].

وسار ابن عاشور في هذا الاتجاه قائلًا: «الروح من أمر الله، أي أنه كائن عظيم من الكائنات المشرفة عند الله، ولكنه مما استأثر الله بعلمه. فلفظ أمر يحتمل أن يكون مرادف الشيء، فالمعنى: الروح بعض الأشياء العظيمة التي هي لله، فإضافة أمر إلى اسم الجلالة على معنى لام الاختصاص، أي أمر اختص بالله اختصاص علم»[(٧)]. وفي البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: «﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، أي: سر من أسراره»[(٨)]، كما جاء ذلك في

(١) الإنسان ذلك المجهول، ألكسيس كاريل ص١٧.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ١٥٧.
(٣) تفسير المراغي ١٥/ ٨٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٢٤.
(٥) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٤٣٥.
(٦) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨٨.
(٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٨.
(٨) البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٢٩١.

التفسير الوسيط: «﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾، أي: من علم ربي، أي: أنكم لا تعلمونه»[1].

وجاء في شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري في دلالة إسناد أمر الروح لله تعالى قوله: «يعني: أنها كانت ووجدت بأمر الله، فأمر الله ليس هو الروح، وإنما وجدت الروح بأمره، وهو سابق لما وجد به»[2]. ويقول صاحب زهرة التفاسير في تفسيره للآية: «أي: أنها خلق من خلقه، والعلم بها من شأنه وأمره الخاص به»[3]، أما السعدي فقد اتجه اتجاهًا مغايرًا عندما رأى أن دلالة الإسناد هنا ردع للذين يسألون أسئلة في غير موضعها، وليس من وراءها فائدة مرجوة، فقال: «وهذا متضمن لردع من يسأل المسائل التي لا يقصد بها إلا التعنت والتعجيز، ويدع السؤال عن المهم، فيسألون عن الروح التي هي من الأمور الخفية، التي لا يتقن وصفها وكيفيتها كل أحد، وهم قاصرون في العلم الذي يحتاج إليه العباد؛ ولهذا أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجيب سؤالهم بقوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾، أي: من جملة مخلوقاته التي أمرها أن تكون فكانت، فليس في السؤال عنها كبير فائدة، مع عدم علمكم بغيرها. وفي هذه الآية دليل على أن المسئول إذا سئل عن أمر الأولى بالسائل غيره أن يعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه، ويرشده إلى ما ينفعه»[4].

ولسيد قطب فلسفة أخرى في دلالة هذا الإسناد نطالعها في تفسيره القيم: في ظلال القرآن، حيث يقول: «وليس في هذا حجرٌ على العقل البشري أن يعمل، ولكنّ فيه توجيهًا لهذا العقل أن يعمل في حدوده، وفي مجاله الذي يدركه، فلا جدوى من الخبط في التيه، ومن إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه؛ لأنه لا يملك وسائل إدراكه. والروح غيب من غيب الله لا يدركه سواه، وسر من أسراره القدسية أودعه هذا المخلوق البشري، وبعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها. وعلم الإنسان محدود بالقياس إلى علم الله المطلق»[5].

ويرى صاحب النكت في القرآن الكريم أن إخفاء أمر الروح عن العباد، وجعلها من أمر الله؛ لما في ذلك من مصلحة لهم، فيقول: «وقيل: في قوله: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾، أي: من الأمر الذي يعلمه ربي، ومما يسأل عنه أن يقال: لم لم يجابوا عن الروح؟! والجواب: لما في ذلك من المصلحة؛ ليوكلوا إلى علم ما في عقولهم من الدلالة،

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ١٢٦.
(٢) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، الغنيمان ٢/ ٢٢٧.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٤٤٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٦٦.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٩.

مع ما في ذلك من الرياضة. وقيل: إنهم وجدوا في كتابهم: أنه إن أجابهم عن الروح فليس بنبي»[1].

وقال ابن القيم في هذه الدلالة: «فينبغي أن يعلم أن المضاف إلى الله سبحانه نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وإرادته وقدرته وحياته صفات له غير مخلوقة، وكذلك وجهه ويده سبحانه. والثاني: إضافة أعيان منفصلة عنه: كالبيت، والناقة، والعبد، والرسول، والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه ومصنوع إلى صانعه، لكنها إضافة تقتضي تخصيصًا وتشريفًا يتميز به المضاف عن غيره، كبيت الله، وإن كانت البيوت كلها ملكًا له، وكذلك ناقة الله، والنوق كلها ملكه وخلقه، لكن هذه إضافة إلى إلهيته تقتضي محبته لها وتكريمه وتشريفه، بخلاف الإضافة العامة إلى ربوبيته حيث تقتضي خلقه وإيجاده، فالإضافة العامة تقتضي الإيجاد والخاصة تقتضي الاختيار، والله يخلق ما يشاء ويختار مما خلقه، كما قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]»[2].

خامسًا: وفي إسناد الروح إليه تعالى

في قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] [ص: ٧٢]، دلالة على تكريم بني آدم وتفضيلهم على غيرهم، والإحسان إليهم، ومن قال بذلك الواحدي والسمعاني: «وأضاف روح آدم إليه إكرامًا وتشريفًا، وهي إضافة الملك»[3]، «وأضافها إلى نفسه تشريفًا وتكريمًا»[4].

ويسير النيسابوري في هذا الاتجاه ببيان أن دلالة الإضافة للتشريف والتكريم فيقول: «ولا خلاف في أن الإضافة في قوله: روحي للتشريف والتكريم، مثل: ناقة الله، وبيت الله»[5].

ويتجه ابن عاشور الاتجاه نفسه في تفسيره التحرير والتنوير بقوله: «وإضافة الروح إلى الله إضافة تشريف؛ لأنه روح مبعوث من لدن الله تعالى بدون وساطة التطورات الحيوانية للتكوين النسلي، وجعلها وابنها آية، هو من أسباب تشريفهما والتنويه بهما»[6].

وجاء هذا الرأي في روح البيان عندما قال: «يشير بتشريف هذه الإضافة إلى اختصاص الروح بأعلى المراتب من الملكوت الأعلى، وكمال قربه إلى الله، كما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾

(١) النكت في القرآن الكريم، علي بن فضّال ص٢٩٦.
(٢) الروح، ابن القيم ص١٥٤.
(٣) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٥.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٣٨.
(٥) غرائب القرآن، النيسابوري ٤/ ٢٢٠.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٣٨.

[ق: ١٦]، وإلى اختصاصه بقبول النفخة فإنه تشرف بهذا التشريف وخص به من سائر المخلوقات»[(١)].

وقال بهذه الدلالة صاحب التفسير المظهري: «أضاف الروح إلى نفسه؛ تشريفًا لآدم أو تشريفًا للروح»[(٢)].

وهذا ما قال به عبد الكريم الخطيب في التفسير القرآني للقرآن، حيث يقول: «تجد أن الروح التي تلبس الكائن الحي -من إنسان أو حيوان- هي روح، وهي من أمر الله، ولكننا إذ ننظر في قوله تعالى في خلق آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]، نجد مزيدًا من الإحسان والتكريم للإنسان، بإضافة روحه إلى الله سبحانه وتعالى»[(٣)].

وجاء في التفسير الوسيط أن دلالة ذلك تشريف للإنسان وخيريته على إبليس الذي رفض السجود إليه، فقال في معرض تفسيره للآية، ومقارنته بين أصل الإنسان وأصل إبليس: «كذلك هو خير منه روحًا، لقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، بإضافة روحه إلى الله تعالى؛ تشريفًا لا تبعيضًا، ونشرت فيه من الروح المنسوب إليّ نسبة تشريف وملك وإيجاد، فأرواح العباد منسوبة إلى الله نسبة ملك وإيجاد، وليست جزءًا من روحه تعالى، فهو منزه عن التجزئة والتبعيض»[(٤)].

سادسًا: وذهب فريق ممن تحدث عن دلالة إضافة الروح لرب العزة والجلالة إلى المكانة السامية والعالية للروح، من هؤلاء: الإمام الطبري في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: فإذا سوّيت خلقه، وعدّلت صورته، ونفخت فيه من روحي، قيل: عني بذلك: ونفخت فيه من قدرتي»[(٥)].

ويرى الإمام الرازي في تفسيره أن ذلك يدل على قدرته سبحانه وتعالى عندما قال: «ميّز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء، وتعديل المزاج والأشباح، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء، ثم أضاف الروح إلى نفسه بقوله: ﴿مِن رُّوحِي﴾، دل ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد. ولما أضاف الروح إلى نفسه دل على أنه جوهر شريف علوي قدسي»[(٦)].

ومنهم ابن عادل في كتابه اللباب: «فأضاف الروح إلى نفسه، وذلك يدل على أنه جوهر شريف علويّ قدسيّ»[(٧)].

---

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٤/ ٤٦١..
(٢) التفسير المظهري، محمد ثناء الله ٨/ ١٩٢.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٢/ ١١٦٣.
(٤) التفسير الوسيط، مجمع البحوث ٥/ ٥٣٨، ٣/ ١٣٨٧.
(٥) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٤٤.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٠٤-٤١٠.
(٧) اللباب في علوم الكتاب ١٦/ ٤٥٤.

ويعقد ابن الجوزي مقارنة بين هذه الإضافة وبين الحديث الشريف حول خلق آدم عليه السلام فيقول: «أما قوله: (خلق الله آدم على صورته)[(١)]، فللناس فيه ثلاثة مذاهب: أحدها: مذهب جمهور السّلف، وهو السّكوت عن تفسير هذا وأمثاله. والثّاني: أن الهاء راجعة إلى آدم، فيكون المعنى: أنه خلقه على تلك الحال، ولم ينقله من نطفة إلى علقة، وهذا مذهب أبي سليمان الخطابيّ. والثّالث: أنّها ترجع إلى الله سبحانه، فهي مضافة إضافة ملك لا إضافة ذات، كما أضاف الرّوح التي نفخت في آدم إليه، فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

وهذا مذهب ابن عقيل، قال: وإنّما خص آدم بإضافة الصّورة إليه لخصيصة فيه»[(٢)].

ويؤيد أبو السعود الدلالة التي تميز الإنسان، وأن ذلك تشريف وتكريم له، فيقول: «﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩]؛ أضافه إليه تعالى تشريفًا له وإيذانًا بأنّه خلقٌ عجيبٌ وصنعٌ بديعٌ، وأنّ له شأنًا له مناسبةٌ إلى حضرة الرّبوبية، وأنّ أقصى ما تنتهي إليه العقول البشرية من معرفته هذا القدر الذي يعبر عنه تارةً بالإضافة إليه تعالى وأخرى بالنسبة إلى أمره تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾»[(٣)].

وقال الماوردي: «﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٩] فيه أربعة أوجه:

أحدها: من قدرته، قاله أبو روق.

الثاني: من ذريته، قاله قتادة.

الثالث: من أمره أن يكون فكان، قاله الضحاك.

الرابع: روحًا من روحه، أي: من خلق، وأضافه إلى نفسه لأنه من فعله وعبر عنه بالنفخ؛ لأن الروح من جنس الريح»[(٤)].

ويقول ابن عاشور في الآية: «ثم أعقب بقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾، فجيء بفعل الإلقاء، وبكون الروح من أمره، وبصلة من يشاء من عباده، فآذن بأن ذلك بمحض اختياره وعلمه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]»[(٥)].

وللمفسرين في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أقوال: فقالوا: «مجيئه بمعنى الباء، قال: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥].

وقال: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١] أي: أمره ابتداء الغاية»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب بدء السّلام ٨/ ٥٠، رقم ٦٢٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب يدخل الجنة أقوام ، ٤/ ٢١٨٣، رقم ٢٨٤١.

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، ابن الجوزي ٣/ ٤٩٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٨١.

(٤) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٣٥٦.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٤/ ١٠٨.

(٦) الوجوه والنظائر، أبو هلال العسكري

وذكر أبو حيان قوله: «أي: بأمره، ويظهر أن ﴿مِنْ﴾: لابتداء الغاية، وقال ابن عباس: من أمره: من قضائه»[1].

وفي التفسير الحديث، وفي معرض تعليقه على إضافة الروح لله تعالى، يقول: «وتعليقًا على ذلك نقول: إن القرآن استعمل تعبير: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]، في صدد خلق آدم في سورة ص، وتعبير: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩]، في صدد خلق الإنسان في سورة السجدة، هذا أولًا. وثانيًا: إن القرآن ذكر في سورة مريم: أن روح الله تمثّل لمريم بشرًا ليهب لها غلامًا، ولم يذكر أسلوب الهبة. وروح الله في سورة مريم يعني على ما تلهمه العبارة بكل قوة، بل وصراحة، ملك الله، وبين هذا وبين ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١].

و﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] فرق واضح»[2].

وقال الشيخ طنطاوي في تفسيره: «وهذه الخاصية هي التي تجعل من هذا الإنسان، إنسانًا ينفرد بخصائصه عن كل الأحياء الأخرى التي تشاركه في هذه الحياة»[3].

وجاء في إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل في صدد حديثه عن إضافة الروح لله تعالى: «أما قوله في حق آدم: ﴿مِن رُّوحِى﴾، فهو إضافة خلق إلى خالقه، وملك إلى مالكه؛ لأن الأرواح كلها بيد الله تعالى لا أنها جزء منه، تعالى الله عن ذلك، وإضافته إليه إضافة تشريف: إمّا لآدم عليه السلام كما قال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾، أو لأنها جوهر لطيف شريف علوي.

وأما النفخ فالمراد به -والله أعلم- خلقها وإيجادها، وقال بعضهم: كيفيّة النفخ لا يعلمها إلا الله تعالى، ونسبة إضافة الرّوح في آيات مريم كلها نسبة إضافة ملك وخلق وتشريف، كما قدمناه في آدم عليه السلام؛ لأن نفخ جبريل كان بأمر الله، وسمي المسيح عليه السلام روح الله إمّا تشريفًا له، أو لأنّه كان بأمره وخلقه من غير واسطة لأب»[4].

ويرى بعضهم أن دلالة ذلك خصوصية لآدم وعيسى عليهما السلام: «وأما الخبر الذي مخرجه مخرج الخصوص، ومعناه معنى الخصوص، فهو قوله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ

ص٤٤٠.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٤٤.
(٢) التفسير الحديث، محمد عزت ٥/ ٢٨٥.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٤٧.
(٤) إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، ابن جماعة الكناني ص١٤٢.

﴿كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠].

فكان مخرج الخبر لآدم عليه السلام مخرج الخصوص، ومعناه معنى الخصوص، وكذلك كان مخرج الخبر لعيسى عليه السلام مخرجه مخرج الخصوص ومعناه معنى الخصوص»[١].

ويفصّل الشيخ العثيمين في هذه الإضافة قائلًا: «والمضاف إلى الله عز وجل إما صفة، وإما عين قائمة بنفسها، وإما وصف في عين قائمة بنفسها... أن يكون عين قائمة بنفسها ولكنها في عين أخرى، مثل: روح الله، كما قال الله عز وجل: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقال في آدم: ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩].

فهنا ليس المراد روح الله عز وجل نفسه، بل المراد من الأرواح التي خلقها، لكن أضافها إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا»[٢].

وجاء في تسلية أهل المصائب: «ولا خلاف بين المسلمين، أن الأرواح التي في آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بني آدم كلها مخلوقة لله، خلقها وأنشأها وكونها واخترعها»[٣].

ونطالع في فتح البيان في مقاصد القرآن ما قاله حول إضافة الروح لله تعالى: «﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السجدة: ٩].

أي: جعله حيًا حساسًا بعد أن كان جمادًا، وبالإضافة للتشريف والتكريم، وهذه الإضافة تقوي أن الكلام في آدم لا في ذريته»[٤].

وقد فصّل أصحاب الاختصاص كثيرًا في دلالات إضافة الروح لله تعالى، وأكثرهم اتفق على أن ذلك يدل على المكانة التي جعلها الله تعالى للروح، وتشريفًا وتكريمًا للجنس البشري الذي خلقه الله تعالى بيديه، وسواه وأحسن خلقه، ثم نفخ فيه ليمنحه الحياة التي قدّرها له.

(١) الحيدة، الكناني ص٥٥.
(٢) شرح الأربعين النووية، ابن عثيمين ص٣٦٥.
(٣) تسلية أهل المصائب، المنبجي ص٢١٨.
(٤) فتح البيان، القنوجي ١١/ ١٨.

حقيقة الروح وصفاتها

أولًا: حقيقة الروح:

عند الحديث عن حقيقة الروح، وبما أننا نتحدث عنها من خلال القرآن الكريم، فالأجدر بنا أن نستخلص هذه الحقيقة من كتاب الله تعالى، ومن خلال آياته الكريمة. والآية الكريمة التي تحدثت عن حقيقة الروح مجردة، هي آية الإسراء: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].

وبدايةً لابدّ من معرفة ما هي الروح التي وقع السؤال عنها، ثمّ نشرع في ما هي حقيقتها، وفقًا لما جاء في أقوال أهل الاختصاص، واختلف المفسّرون في الروح التي وقعت محلًا للسؤال مذاهب متفرقة، يأتي تفصيلها لاحقًا إن شاء الله تعالى ويرجوعنا إلى كتب السلف التي تحدثت عن الروح وعن حقيقتها، نجد تفسير هذه الحقيقة عند السيوطي، بعد أن أورد حديث سبب نزول الآية: «... فاختلف الناس في الروح على فرقتين: فرقة أمسكت عن الكلام فيها؛ لأنها سر من أسرار الله تعالى لم يؤت علمه البشر، وهذه الطريقة هي المختارة. وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: سئل ابن عباس عن الروح، قال: الروح من أمر ربي لا تتأولوا هذه المسألة فلا تزيدوا عليها، قولوا كما قال الله تعالى وعلّم نبيه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

وأخرج ابن جرير بسند مرسل أن الآية لما نزلت قالت اليهود هكذا نجده عندنا. قلت: فمسألة أبهمها الله تعالى في القرآن والتوراة، وكتم عن خلقه علمها، من أين للمتعمقين الاطلاع على حقيقة أمرها؟!»[1].

وفي تفسير المراغي: «وللعلماء في حقيقة الروح أقوال كثيرة، أولاها بالاعتبار قولان:

الأول: إن الروح جسم نوراني، حي، متحرك من العالم العلوي، مخالف بطبعه لهذا الجسم المحسوس، سار فيه سريان الماء في الورد، والدّهن في الزيتون، والنار في الفحم، لا يقبل التبدل والتفرق والتمزق، يفيد الجسم المحسوس الحياة وتوابعها ما دام صالحًا لقبول الفيض وعدم حدوث ما يمنع السريان، وإلا حدث الموت. واختاره الرازي وابن القيم في كتاب الرّوح.

الثاني: إنه ليس بجسم ولا جسماني، متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف، وإلى هذا ذهب حجة الإسلام الغزالي وأبو القاسم الراغب الأصفهاني، ثم أكد عدم علم أحد بها؛ لقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]»[2].

وقال ابن عادل الحنبلي وهو يتحدث عن

(١) شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، السيوطي ص٣١٠.
(٢) تفسير المراغي ١٥/ ٨٩.

حقيقة الروح: «فهم قالوا: ما حقيقة الروح وماهيته؟ أهو أجسامٌ موجودة داخلة في البدن مولدةٌ من امتزاج الطبائع والأخلاط؟ أو هو عبارة عن نفس هذا المزاج والتركيب؟ أو هو عبارة عن عرض قائم بهذه الأجسام؟ أو هو عبارة عن موجودٍ يغاير هذه الأجسام والأعراض؟ فأجاب الله عنه بأنّه موجودٌ مغاير لهذه الأجسام ولهذه الأعراض؛ وذلك لأن لهذه الأجسام ولهذه الأعراض أشياء تحدث عن امتزاج الأخلاط والعناصر، وأمّا الروح فإنه ليس كذلك، بل هو جوهرٌ بسيطٌ مجردٌ، ولا يحدث إلا بمحدثٍ يقول له: كن فيكون، فأجاب الله عنه بأنه موجود محدث بأمر الله وتكوينه، وتأثيره في إفادة الحياة بهذا الجسد، ولا يلزم من عدم العلم بحقيقته المخصوصة نفيه»[1].

وفي حقيقة الروح قالوا: «وأما حقيقة الروح فهي لطيفة ربانية، وعنصر من عناصر العالم العلوى تتصل بمدد رباني إلى العالم السفلى»[2].

وفي فيض الباري: «أن القرآن لم يتعرض في الجواب إلى حقيقة الروح ومادته، بل ذكر العلة الصّورية فقط، ويريد أن الروح محركٌ للبدن وانتهاء شعورها أمر الرب، فهذا علتها الصورية فقط، أما حقيقتها فلا يعلمها إلا هو»[3].

وقال ابن حجر: «قال ابن بطال: معرفة حقيقة الروح مما استأثر الله بعلمه، بدليل هذا الخبر، قال: والحكمة في إبهامه اختبار الخلق؛ ليعرّفهم عجزهم عن علم ما لا يدركونه؛ حتى يضطرهم إلى رد العلم إليه»[4].

وقال ابن عاشور: «واختلف المفسرون في الروح المسئول عنه المذكور هنا، ما هو من هذه الثلاثة؟ فالجمهور قالوا: المسئول عنه هو الروح بالمعنى الأول، الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني، قالوا: لأنه الأمر المشكل الذي لم تتضح حقيقته، وأما الروح بالمعنيين الآخرين فيشبه أن يكون السؤال عنه سؤالًا عن معنى مصطلح قرآني. وقد ثبت أن اليهود سألوا عن الروح بالمعنى الأول؛ لأنه هو الوارد في أول كتابهم وهو سفر التكوين من التوراة؛ لقوله في الإصحاح الأول: «وروح الله يرف على وجه المياه». وليس الروح بالمعنيين الآخرين بوارد في كتبهم»[5].

وفي إعانة الطالبين: «واختلف في حقيقة الروح، فقال أكثر أهل السنة والجماعة: الأولى أن نمسك المقال عنها، ونكف عن

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ١٢/ ٣٧٤.

(٢) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ١٠٦.

(٣) فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه ١/ ٣١٣.

(٤) فتح الباري، ابن حجر ٨/ ٤٠٣.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٧.

البحث فيها، وأنها مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحدًا من خلقه»[(١)]. وإليه أشار ابن رسلان في زبده بقوله[(٢)]:

والروح ما أخبر عنها المجتبي
فنمسك المقال عنها أدبا

وفي لوامع الأنوار البهية: «وقد تنازع الناس في حقيقة الروح، واختلفوا فيها اختلافًا كثيرًا مع القطع باتصالها بالبدن، وإنها تخرج منه وتعرج إلى السماء، وقد تخبط فيها الفلاسفة ومن وافقهم تخبط الذي به مس من الشيطان؛ لكونهم رأوها من غير جنس البدن وعالمه وصفاته، فعدم مماثلتها للبدن لا ينفي أن تكون الصفات الثابتة لها من الصعود والنزول والاتصال والانفصال حقًّا»[(٣)].

وهكذا يتضح لنا أن حقيقة الروح -وبحسب معظم المفسرين- أنها مما استأثر الله بعلمه، ولم يطلع على ذلك أحدًا من خلقه، ويجب علينا ألا نخوض فيها بأكثر من تفويض العلم فيها لرب العباد.

ثانيًا: صفات الروح:

ونتناول هنا الصفات التي اتصفت بها الروح بناءً على النصوص الشرعية التي تحدثت عن ذلك، فمن النصوص الثابتة القوية في وصف الروح الإنسانية، ما ثبت في صحيح البخاري ومسلم والمسند وسنن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف)**[(٤)].

وقال صاحب التحفة المهدية، معددًا الصفات التي اتصفت بها روح الإنسان: «فإن روح ابن آدم تسمع، وتبصر، وتتكلم، وتنزل، وتصعد، كما ثبت ذلك بالنصوص الصحيحة، والمعقولات الصريحة، ومع ذلك فليست صفاتها وأفعالها كصفات البدن وأفعاله»[(٥)].

وجاء في كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: «ومذهب أهل السنة والجماعة: أنّ الروح والعقل من الأعيان، وليسا بعرضين كما ظنّته المعتزلة وغيرهم، وأنهما يقبلان الزيادة من الصفات الحسنة والقبيحة، كما تقبل العين الناظر غشاوة ورمدًا، والشمس انكسافًا؛ ولهذا وصف الروح بالأمّارة

(١) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، الدمياطي ٢/ ١٢٢.
(٢) غاية البيان شرح زبد ابن رسلان، شهاب الدين الرملي ص١٨.
(٣) لوامع الأنوار البهية، السفاريني الحنبلي ١/ ٢٦٦.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ١٣٣، رقم ٣٣٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب الأرواح جنود مجندة، ٤/ ٢٠٣١، رقم ٢٦٣٨.
(٥) التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، فالح بن مهدي الدوسري ١/ ١٠٧.

بالسّوء مرة، وبالمطمئنّة أخرى»[1].

وقال ابن القيم في كتاب الروح: «وقد وصفها الله سبحانه وتعالى بالدخول، والخروج، والقبض، والتوفي والرجوع، وصعودها إلى السماء، وفتح أبوابها لها وغلقها عنها، فقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام: ٩٣].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَـٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد، وقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧-٨].

فأخبر أنه سوّى النفس، كما أخبر أنه سوّى البدن في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

فهو سبحانه سوّى نفس الإنسان كما سوّى بدنه، بل سوّى بدنه كالقالب لنفسه، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له»[2]. هذا ما قيل في الصفات التي اتصفت بها الروح ونلحظ أنها جميعًا مما أثبتته النصوص الشرعية.

الموصوفون بالروح في القرآن

من خلال تتبع الآيات نجد أنها وصفت بعض الأشياء بالروح، ومن ذلك:

أولًا: جبريل عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣] . والروح الأمين الذي نزل بالقرآن على محمد صلى الله عليه وسلم، هو جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧]، أرسل إليها جبريل عليه السلام.

وقال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤].

أي: تنزل الملائكة وجبريل معهم، وهو الروح في ليلة القدر[3].

وفي قوله تعالى: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥]، أي: يرسل جبريل.

والمراد بالروح في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ [النبأ: ٣٨] : جبريل عليه السلام[4].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥]، قال قتادة والحسن: هو جبريل[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ

(١) كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي ١/ ٨٨٣.
(٢) الروح، ابن القيم ص٣٨.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٥٤٤.
(٤) انظر: غرائب التفسير، الكرماني ١/ ٦٤٠.
(٥) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٢/ ٣١٣.

﴿الرُّوحِ﴾[الإسراء: ٨٥] قيل: هو جبريل عليه السلام[1].

قال ابن عاشور: «ويطلق لفظ (الروح) على الملك الذي ينزل بالوحي على الرسل، وهو جبريل عليه السلام ، ومنه قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]»[2].

وعن قتادة في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾، قال: جبريل عليه السلام[3].

وقال السمعاني في تفسيره لآية القدر: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ [القدر: ٤].

قال: «الأكثرون على أنه جبريل عليه السلام»[4].

«أي: يتنزل فيها جبريل عليه السلام، الذي هو مختص بتبليغ الوحى، والاتصال بالنبيّ، أما الملائكة الذين يحفون به، فهم وفد الله معه لحمل هذه الرحمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى عباد الله»[5].

وفي تفسيره لآية النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢] يقول الثعلبي: «يعني جبرائيل»[6].

(١) أوضح التفاسير، ابن الخطيب ١/ ٣٤٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٧.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨١٧.
(٤) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٨٣.
(٥) التفسير القرآني للقرآن، الخطيب ١٦/ ١٦٣٦.
(٦) الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٤١٩.

ويلحظ في بعض الآيات التي وصفت جبريل عليه السلام بـ(الروح)، أنها أضافت وصفًا آخر إليه وهو (القدس).

وقد جاء ذلك في عدة آيات، منها:

قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾[البقرة: ٨٧].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠].

قال الطبري: «روح القدس الذي أخبر الله تعالى ذكره أنه أيّد عيسى به، هو جبريل عليه السلام»[7].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢].

والقدس بمعنى المقدس والمطهر، وهو تعبير تكريمي كما هو المتبادر[8].

وقد صرحت بعض الآيات بأن الملك الموكل بإنزال الوحي هو جبريل عليه السلام، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

وقد وصفت آية سورة الشعراء الملك الموكل بإنزال الوحي بأنه ﴿الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

(٧) جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٢٠.
(٨) التفسير الحديث، محمد عزت ٥/ ١٨٤.

وفي الحديث الشريف: عن سعيد بن المسيب رضي الله عنه، قال: (مر عمر في المسجد وحسان ينشد فقال: كنت أنشد فيه، وفيه من هو خير منك، ثم التفت إلى أبي هريرة، فقال: أنشدك بالله، أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أجب عني، اللهم أيده بروح القدس)؟ قال: نعم)[1].

وفي سنن الترمذي: عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع لحسان منبرًا في المسجد يقوم عليه قائمًا، يفاخر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو قالت: ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما يفاخر، أو ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم)[2].

و(روح القدس) هو: جبريل عليه السلام، وسمي بذلك من حيث إنه ينزل بالقدس من الله، أي: بما يطهّر نفوسنا من القرآن والحكمة والفيض الإلهي[3].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة ٤/ ١١٢، رقم٣٢١٢.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب، باب ما جاء في إنشاد الشعر، ٤/ ٤٣٥، رقم٢٨٤٦. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٤/ ٢١٤، رقم ١٦٥٧.

(٣) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٣٦٩.

وقيل: «ومعنى روح القدس: الروح المقدسة، أي: الطاهرة من الأدناس»[4].

ثانيًا: رحمة الله:

ومن الأمور التي وصفت بـ(الروح) رحمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧] أي: من رحمة الله[5].

وفي قول تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[المجادلة: ٢٢].

قال الرازي: «أي: برحمة منه. وقال عليه الصلاة والسلام: (إنما أنا رحمة مهداة)[6]»[7].

ثالثًا: الوحي:

ومن الأمور التي وصفت بأنها (روح) الوحي الذي أنزله الله على نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال الله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ

(٤) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، محمد بن يوسف الصالحي ١/ ٤٦٦.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٣٣.

(٦) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم ٢٩٨١، ٣/ ٢٢٣، والحاكم في المستدرك، رقم ١٠٠، ١/ ٩١.
قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرطهما.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٣٤٥، ١/ ٤٦٣.

(٧) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٧١.

﴿عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

أي: ينزل الوحي من أمره على من يشاء من عباده[(١)].

وقال الضحاك: يعني بالروح: الكتاب ينزله على من يشاء[(٢)].

وفي قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ [النحل: ٢].

قال ابن عباس: بالوحي[(٣)].

قال السعدي: «سماه روحًا؛ لأن الروح يحيا به الجسد، والقرآن تحيا به القلوب والأرواح، وتحيا به مصالح الدنيا والدين، لما فيه من الخير الكثير والعلم الغزير»[(٤)].

رابعًا: عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

قال أبيّ بن كعب: «لما أخذ الله الميثاق على بني آدم كان عيسى روحًا من تلك الأرواح، فأرسله إلى مريم، فحملت به»[(٥)].

قال الرازي: «جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئًا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب، وإنما تكوّن من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح»[(٦)].

وقيل: سمي روحًا؛ لأنه كان يحيي الأموات أو القلوب[(٧)].

وفي الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل)[(٨)].

قال سيد طنطاوي: «وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، أي: ونفخة منه؛ لأن عيسى حدث بسبب نفخة جبريل في درع مريم، فكان عيسى بإذن الله. فنسب إلى أنه روح من الله؛ لأنه بأمره كان، وسمى النفخ روحًا؛ لأنه ريح تخرج من الروح»[(٩)].

خامسًا: النصر والتأييد:

ومما فسر به الروح في بعض المواضع: النصر والتأييد.

قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٦٣.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٧٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٢.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٥٠١.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ١١/ ٢٧١.
(٧) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١١١.
(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) ٣٤٣٥، ٤/ ١٦٥.
(٩) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ٤٠١.

قال البغوي: «قوّاهم بنصر منه. قال الحسن: سمى نصره إياهم روحًا؛ لأن أمرهم يحيا به»[(١)].

وقال ابن عباس: «قوّاهم بنصر منه في الدنيا على عدوهم»[(٢)].

وقال المراغي: «أي: إنه قوّاهم بطمأنينة القلب، والثبات على الحق، فلا يبالون بموادّة أعداء الله، ولا يأبهون لهم»[(٣)].

سادسًا: النفس:

مما وصف بأنه روح النفس الإنسانية التي بها الحياة.

قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: (إني مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث بالمدينة، وهو متكئ على عسيب، فمر بنا ناس من اليهود فقالوا: سلوه عن الروح، فقال بعضهم: لا تسألوه فيستقبلكم بما تكرهون، فأتاه نفر منهم فقالوا له: يا أبا القاسم، ما تقول في الروح؟ فسكت، ثم قام، فأمسك بيده على جبهته، فعرفت أنه ينزل عليه، فأنزل الله عليه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا﴾[الإسراء: ٨٥][(٤)].

قال الشوكاني: «اختلف الناس في الروح المسئول عنه، فقيل: هو الروح المدبر للبدن الذي تكون به حياته، وبهذا قال أكثر المفسرين، قال الفراء: الروح الذي يعيش به الإنسان لم يخبر الله سبحانه به أحدًا من خلقه، ولم يعط علمه أحدًا من عباده، فقال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، أي: إنكم لا تعلمونه»[(٥)].

وقال القرطبي في تفسيره: «وذهب أكثر أهل التأويل إلى أنهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد، وقال أهل النظر منهم: إنما سألوه عن كيفية الروح ومسلكه في بدن الإنسان، وكيف امتزاجه بالجسم واتصال الحياة به، وهذا شيء لا يعلمه إلا الله عز وجل»[(٦)].

ويقول الشيخ الفوزان: «بيّن أنها من خصوصياته سبحانه وتعالى، وأنه هو الذي خلقها، وهو الذي يعلمها، ولا يعلمها أحد من الخلق، فهي سر من الأسرار، ولا تزال سرًّا، وهذا من معجزات القرآن، فإنه

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٦٣.
(٢) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٤/ ٢٦٨.
(٣) تفسير المراغي ٢٨/ ٢٨.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب قوله تعالى: (وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا)، رقم ١٢٥، ١/ ٣٧، ومسلم في صحيح، كتاب صفات المنافقين، باب سؤال اليهود النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح، ٤/ ٢١٥٢، رقم ٢٧٩٤.
(٥) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٤٧.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٠/ ٣٢٤.

مع تقدم الطب والمهارة فيه، ومع حرص الناس على البحث في هذا الشأن، لم يعرفوا شيئًا عن حقيقة الروح ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾، على أن المراد بالروح: ما يحيا به الإنسان»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

قال ابن الجوزي: «هذه الروح هي التي يحيا بها الإنسان، ولا تعلم ماهيّتها، وإنما أضافها إليه؛ تشريفًا لآدم، وهذه إضافة ملك. وإنما سمي إجراء الروح فيه نفخًا؛ لأنها جرت في بدنه على مثل جري الريح فيه»[2].

فـ«الروح: يطلق على الموجود الخفي المنتشر في سائر الجسد الإنساني، الذي دلت عليه آثاره من الإدراك والتفكير، وهو الذي يتقوم في الجسد الإنساني حين يكون جنينًا بعد أن يمضي على نزول النطفة في الرحم مائة وعشرون يومًا»[3].

قال الشعراوي: «وسمّي الشيء الذي يتصل بالمادة، فتدبّ فيها الحياة روحًا، فقال: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وسمّي المنهج الذي ينزل من السماء لهداية الأرض روحًا، وسمّي الملك الذي ينزل به روحًا؛ لأنه يعطينا حياة دائمة باقية لا فناء لها، وهكذا يتم الارتقاء بالحياة؛ لذلك سمّى المنهج روحًا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

وسمّى الملك الذي نزل به روحًا: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣].

إذن: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

أي: الحياة الحقيقية التي لا تفوتها ولا تفوتك، ولا يفارقك نعيمها، ولا ينغّصه عليك شيء، كما أن التنعّم في الدنيا على قدر إمكاناتك وأسبابك، أمّا في الآخرة فالنعيم على قدر إمكانات المنعم سبحانه وتعالى»[4].

(١) مجموع فتاوى صالح بن فوزان ١/ ١٥٨.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٥٣٤.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٩٦.
(٤) المصدر السابق ١٥/ ٩٥٢٦.

نعيم الروح وعذابها

إن العنصر المهم في الإنسان هو روحه، فهي التي تشعر بالنعيم والعذاب، وهي التي تتفاعل معه.

يقول ابن القيم: «إن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه وبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، ويحصل له معها النعيم أو العذاب، ثم إذا كان يوم القيامة الكبرى أعيدت الأرواح إلى الأجساد، وقاموا من قبورهم لرب العالمين ومعاد الأبدان، متفق عليه بين المسلمين واليهود والنصارى»[(١)].

فالأرواح تتذوق النعيم أو العذاب الذي يكون عليها في القبور.

أولًا: نعيم الروح:

دلت النصوص الشرعية أن الأرواح تنعّم بما ينالها من نعيم قدّره لها ربّ العباد؛ مكافأة لعمل صاحبها بأوامر الله تعالى، واقتداء بشرعه، من ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: **(الميت تحضره الملائكة، فإذا كان الرجل الصالح، قالوا: اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، اخرجي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج، فيعرج بها حتى ينتهي بها إلى السماء، فيستفتح لها، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان ابن فلان، فيقال: مرحبًا بالنفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب، ادخلي حميدة، وأبشري بروح وريحان ورب غير غضبان،، فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عز وجل)**[(٢)].

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشيّ، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى القيامة)**[(٣)].

وفي مسند أحمد عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: **(خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر، ولمّا يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، كأنّ على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت**

(١) الروح، ابن القيم ص٥٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣، رقم ٤٢٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميّت يعرض عليه بالغداة والعشيّ ٢/ ٩٩، رقم١٣٧٩.

في الأرض، فرفع رأسه، فقال: (استعيذوا بالله من عذاب القبر) مرتين، أو ثلاثًا، ثم قال: (إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون -يعني بها- على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم فيشيّعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض؛ فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله، فآمنت به وصدقت، فينادي مناد في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة. قال: فيأتيه من روحها، وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره. قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي، ومالي)»[(١)].

وقال المراغي في تفسيره: «وقد أثبت علماء الأرواح حديثًا، نعيم الروح وعذابها، وشبهوا ذلك بما يراه النائم حين نومه، فقد نرى نائمين في سرير واحد، يقوم أحدهما مذعورًا كئيبًا وجلًا مما شاهد في نومه، بينما نرى الثاني مستبشرًا فرحًا بما لاقى من المسرّة والنعيم، فيروى أنه كان في حديقة غناء وشاهد كذا وكذا مما فيها من بهجة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٤٩٩، رقم١٨٥٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

وبهاء، وجمال ورواء»[١].

وجاء في شرح الطحاوية لأبي العز الحنفي، وهو يتحدث عن مراتب الأرواح في عالم البرزخ: «إن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى عليين، في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم، ومنها أرواح في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه، كما في المسند عن محمد بن عبد الله بن جحش: (أن رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله: ما لي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: (الجنة)، فلما ولّى، قال: (إلاّ الدين، سارّني به جبريل آنفا)[٢][٣].

ومن النعيم الذي أعده الله تعالى لعباده المؤمنين رؤيته -جل شأنه وعظم قدره-. جاء ذلك في موسوعة فقه القلوب: «ومن نعيم الروح رؤية الرب جل جلاله ورضاه، والقرب منه»[٤].

(١) تفسير المراغي ٢٤/ ٧٨.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، رقم١٧٢٥٣، ٢٨/ ٤٩١.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ١٤٢٥، ١/ ٣٠٠.
(٣) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ٢/ ٥٨٤.
(٤) موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٥٣٩.

وبهذا اتضح بما لا يدع مجالًا للشك، وبهذه النصوص البينة الواضحة الجلية القطعية في دلالاتها، أن الأرواح تنعّم وتشعر بما ينالها من هذا النعيم الذي كتبه لها رب العزة والجلالة.

ثانيًا: عذاب الروح:

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣].

قال السمعاني فيها: «قيل: للعذاب، وقيل: لقبض الأرواح. ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: أرواحكم، فإن قال قائل: الروح إنما تخرج كرهًا، فما معنى قوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾؟ قيل: إنما قال ذلك تغليظًا عليهم، كمن يخرج من الدار كرهًا، ويقال له: اخرج»[٥].

وقال البغوي: «﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾، بالعذاب والضرب، يضربون وجوههم وأدبارهم، وقيل: بقبض الأرواح. ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾، أي: يقولون ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾، أي: أرواحكم كرهًا؛ لأن نفس المؤمن تنشط للقاء ربه، ونفس الكافر تكره ذلك»[٦].

(٥) تفسير القرآن، السمعاني ٢/ ١٢٧.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ١٤٥.

وإلى هذا أشار رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. عن أنس عن عبادة بن الصامت رضي الله عنهما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أراد لقاء الله أراد الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه)[1].

وهذا خطاب لهم عند الموت، وقد أخبرت الملائكة وهم الصادقون أنهم حينئذ يجزون عذاب الهون، ولو تأخر عنهم ذلك إلى انقضاء الدنيا لما صح أن يقال لهم: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ﴾، فدل على أن المراد به عذاب القبر.

قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥-٤٧].

وهذا يحتمل عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا، وأن يراد به عذابهم في البرزخ، وهو أظهر؛ لأن كثيرًا منهم مات ولم يعذب في الدنيا، وقد يقال -وهو أظهر-: إن من مات منهم عذب في البرزخ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ. قال السمرقندي في تفسيره: «﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الطور: ٤٧]، يعني: من قبل عذاب النار، قد روى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: عذاب القبر، وقال معمر عن قتادة، قال: عذاب القبر في القرآن»[2].

ومنها قوله جل شأنه: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦].

فذكر عذاب الدارين ذكرًا صريحًا لا يحتمل غيره، فدل على ثبوت عذاب القبر.

قال السدي: «بلغني أن أرواح قوم فرعون في أجواف طير سود تعرض على النار غدوًّا وعشيًّا، حتى تقوم الساعة»[3].

وقال ابن كثير في تفسيره: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»[4].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٨/ ١٠٦، رقم٦٥٠٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ٤/ ٢١٩٩، رقم٦٥.

(٢) تفسير السمرقندي ٣/ ٣٥٦.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٤٦.

﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٩٤].

«فذكر ها هنا أحكام الأرواح عند الموت، وذكر في أول السورة أحكامها يوم المعاد الأكبر، وقدم ذلك على هذا تقديم الغاية للعناية؛ إذ هي أهم وأولى بالذكر، وجعلهم عند الموت ثلاثة أقسام، كما جعلهم في الآخرة ثلاثة أقسام»[1].

وكما وقفنا على ما جاء عن عذاب القبر في كتاب ربنا، فإن السنة النبوية المطهرة قد أفردت حيزًا معتبرًا لهذا الموضوع، وإذا تأملت أحاديث عذاب القبر ونعيمه وجدتها تفصيلًا وتفسيرًا لما دل عليه القرآن، وأحاديث عذاب القبر كثيرة متواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ رواها أئمة السنة وحملة الحديث ونقاده عن الجم الغفير والجمع الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن أدلة عذاب القبر من السنة النبوية:

ما جاء في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مر النبي صلى الله عليه وسلم بقبرين، فقال: **(إنهما ليعذّبان، وما يعذّبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة)، ثم أخذ جريدة رطبة، فشقها نصفين، فغرز في كل قبر واحدة، قالوا: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: (لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا)**[2].

و«هذا دليلٌ على أنّ العذاب محسوسٌ ومسموعٌ لمن كان له أذنان، لا أنه متخيّلٌ فقط، نعم هو في عالم آخر، والناس يريدون أن يسمعوه في هذا العالم، فيقعون في الخبط، ألا أنّ الحواس الخمس في هذا العالم، ثم لا يدري أحدهما ما في عالم الآخر، فلا تدري الشّامّة ما السمع والذوق؟ ولا تدري السامعة ما الشمّ والذوق؟ فهكذا لا يمكن أن يكتنه من في عالم الأجساد ما في عالم البرزخ، إلاّ أن يسمعه الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]. ولم يدّع الشرع أنّ أحوال البرزخ من أحوال عالم الأجساد، ليقال إنّا لا نسمع الصوت، ولا نرى أحدًا في القبر معذّبًا، إلى غير ذلك، فاعلمه»[3].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: **بينما النبي صلى الله عليه وسلم في حائط لبني النجار، على بغلة له ونحن معه، إذ حادت به فكادت تلقيه، وإذا أقبرٌ ستة**

(١) الروح، ابن القيم ص٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب ما جاء في غسل البول ١/ ٥٤، رقم٢١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، ١/ ٢٤٠، رقم١١١.

(٣) فيض الباري على صحيح البخاري، محمد أنور شاه ١/ ٤١٠.

أو خمسة أو أربعة -قال: كذا كان يقول الجريريّ- فقال: (من يعرف أصحاب هذه الأقبر؟) فقال رجل: أنا، قال: (فمتى مات هؤلاء؟) قال: ماتوا في الإشراك، فقال: (إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا، لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه)[1]. ففيه دلالة واضحة أن عذاب القبر مسموع لمن أراد الله أن يسمعه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير، فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال)[2]. ففي توجيهه صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالتعوذ دلالة على أن الأمر واقع وحاصل لا محالة.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه قال: خرج النبي صلى الله عليه وسلم وقد وجبت الشمس، فسمع صوتًا، فقال: (يهود تعذّب في قبورها)[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: (دخلت عليّ عجوزين من عجز يهود المدينة، فقالتا لي: إن أهل القبور يعذبون في قبورهم، فكذبتهما، ولم أنعم أن أصدقهما، فخرجتا، ودخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم، فقلت له: يا رسول الله، إن عجوزين، وذكرت له، فقال: (صدقتا، إنهم يعذّبون عذابًا تسمعه البهائم كلها)[4]، فما رأيته بعد في صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر)[5].

وفي الحديث الآخر: (وإذا كان الرجل السوء قال: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، اخرجي ذميمة، وأبشري بحميم وغساق، وآخر من شكله أزواج، فلا يزال يقال لها حتى تخرج، فينتهي بها إلى السماء، فيقال: من هذا؟ فيقال: فلان ابن فلان، فيقال: لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث، ارجعي ذميمة، فإنه لا تفتح لك أبواب السماء، فترسل إلى

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ٤/ ٢١٩٩، رقم٢٨٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١/ ٤١٢، رقم٥٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر ٢/ ٩٩، رقم١٣٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه ٤/ ٢٢٠٠، رقم٢٨٦٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب التعوذ من عذاب القبر ٨/ ٧٩، رقم ٦٣٦٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب التعوذ من عذاب القبر ٨/ ٧٨، رقم ٦٣٦٦، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب التعوذ من عذاب القبر ١/ ٤١٠، رقم٥٨٦.

الأرض ثم تصير إلى القبر)[1].

ومن العذاب الذي يصيب الروح في القبر، ما ورد على لسان سيد الخلق صلى الله عليه وسلم: (... وأمّا الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطرقةٍ من حديدٍ ضربةً بين أذنيه، فيصيح صيحةً يسمعها من يليه إلا الثّقلين)[2].

ومن عذاب القبر ما جاء في مسند أحمد عن البراء بن عازب، وفيه: (وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان بن فلان بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾[الأعراف: ٤٠].

فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين، في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحًا، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم، فيقول: هاه هاه، لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب، فأفرشوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد له ٢/ ١٤٢٣، رقم٤٢٦٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب الميت يسمع خفق النعال ٢/ ٩٠، رقم١٣٣٨.

رب لا تقم الساعة)[1].

«ومن عذاب الجسد ما يعذّب به أهل النار من النار التي تحرق أجسامهم، والحميم الذي يقطّع أمعاءهم، والطعام الكريه المر الذي تعافه النفوس من الزقوم والغسلين والضريع، ومن الشراب الماء الحميم، والصديد الكريه، كما قال سبحانه: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ [إبراهيم: ١٦ - ١٧].

وتعذّب أرواحهم بالصّغار والإهانة، وتحجب أبصارهم عن رؤية الله، وعذاب الاحتجاب عن الله وإهانته لهم وغضبه عليهم وسخطه والبعد عنه، أعظم عليهم من التهاب النار في أجسامهم وأرواحهم، كما قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٖ لَّمَحْجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ - ١٦]»[2].

قال الشيخ الفوزان: «تنبيه هام: وعذاب القبر وسؤال الملكين ينالان كل من مات، ولو لم يدفن، فهو اسم لعذاب البرزخ ونعيمه، وهو ما بين الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وسمي عذاب القبر باعتبار الغالب، فالمصلوب والمحرق والمغرق وأكيل السباع والطيور له من عذاب البرزخ ونعيمه قسطه الذي تقتضيه أعماله، وإن تنوعت أسباب النعيم والعذاب وكيفياتهما»[3].

موضوعات ذات صلة

الإنسان، الحياة، العقل، القلب، النفس، الوحي

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٤٩٩، رقم ١٨٥٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٤٤، رقم ١٦٧٦.

(٢) موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٥٣٩.

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان ص٢٧٧.



الرياء

عناصر الموضوع

مفهوم الرياء	٣٥٢
الرياء في الاستعمال القرآني	٣٥٣
الألفاظ ذات الصلة	٣٥٤
مجالات الرياء ومظاهره	٣٥٦
عاقبة الرياء	٣٦٥
علاج الرياء	٣٦٨

مفهوم الرياء

أولًا: المعنى اللغوي:

الرياء من الرؤية مصدر من الفعل راءيته مراءاةً ورئاءً، وجذرها (رأي)، وبالكسر: أريته أنّي على خلاف ما أنا عليه[(١)]، وهو مهموز العين (رئاء)؛ لأنه من الرؤية، ويجوز تخفيفها بقلبها ياء، فنقول: رياء، واسترآه: استدعى رؤيته، وأريته إياه إراءً وراءيته مراءاةً ورئاءً: أريته على خلاف ما أنا عليه[(٢)]، وفلان مراءٍ، وقوم مراؤون، والاسم الرياء، يقال: فعل ذلك سمعة ورياء، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦﴾ [الماعون: ٦]. يعني المنافقين إذا صلى المؤمنون صلوا معهم ليروهم أنهم على ما هم عليه[(٣)].

وقال الهروي وابن منظور: «المرائي يري الذي يراه أنه يفعل، ولا يفعل بالنية»[(٤)].

فالرياء: إظهار فعل جميل ليراه الناس؛ -لذلك قيل: رياء، أو رئاء-، وبهدف حمد الناس لا رغبة في ثواب الله.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الجرجاني: «الرياء: ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه»[(٥)].

وقيل: «الرّياء: وهو إظهار العمل للناس ليروه ويظنوا به خيرًا، فالعمل لغير اللّه نعوذ باللّه منه»[(٦)].

وقال الغزالي: «الرياء طلب المنزلة في قلوب الناس بالعبادة»[(٧)].

«وحقيقة الرياء طلب ما في الدنيا بالعبادة، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس»[(٨)].

فالرياء اصطلاحًا لا يختلف عن معناه اللغوي.

---

(١) انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد، ٢/ ١٠٦٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/ ٣٤١.
(٢) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٢٨٥.
(٣) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٤٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٨/ ١٠٥.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٥/ ٢٣٢، لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٣٠٢.
(٥) التعريفات ص١١٣.
(٦) المصباح المنير، الفيومي، ١/ ١٤٦.
(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص١٨٤.
(٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠/ ٢١٢.



الرياء في الاستعمال القرآني

ورد الجذر (ر أ ي) في القرآن الكريم (٣٢٨) مرة، وما يتعلق منها بموضوع الرياء (٥) مرات[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ٦﴾ [الماعون: ٦]
المصدر	٣	﴿كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]

وجاء الرياء في القرآن بمعناه في اللغة، والمراد به إظهار جميل الفعل رغبة في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٢٨٥.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٢٢٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ النفاق:

النفاق لغة:

والنفاق، بالكسر، فعل المنافق، والنفاق: الدخول في الإسلام من وجه والخروج من آخر، ونافق منافقة ونفاقًا، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره[(١)].

النفاق اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني بقوله: «إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب»[(٢)].

الصلة بين الرياء والنفاق:

أن النفاق إظهار الإيمان مع إسرار الكفر، والرياء إظهار جميل الفعل رغبة في حمد الناس لا في ثواب الله تعالى[(٣)].

٢ الكذب:

الكذب لغة:

الكذب: خلاف الصدق، وكذب كذبًا، فهو كذاب وكذبة[(٤)].

الكذب اصطلاحًا:

إخبار عن المخبر به على خلاف ما هو به مع العلم بأنّه كذلك[(٥)].

الصلة بين الرياء والكذب:

يختلف الكذب عن الرياء، فالكذب خبر مخالف للواقع، بينما الرياء مخالفة النية لظاهر العمل.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٠/ ٣٥٩.
(٢) التعريفات، ص٢٤٥.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ٢٢٩.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٨١.
(٥) الكليات، الكفوي، ص٥٥٦.



٣ الإخلاص:

الإخلاص لغة:

مصدر خلص، والإخلاص: التوحيد لله خالصًا[١].

الإخلاص اصطلاحًا:

التعريف المناسب للإخلاص هو القيام للعمل ابتغاء وجه الله تعالى.

الصلة بين الرياء والإخلاص:

هما ضدان، فالرياء فعل الشيء ليراه الآخرون، أما الإخلاص فهو ترك الرياء.

٤ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: (أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك)[٢]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٣].

الصلة بين الرياء والشرك:

يعتبر الرياء من الشرك الخفي كما قال أهل العلم عنه[٤]، قال أبو السعود عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]: «إشراكًا جليًّا كما فعله الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، ولا إشراكًا خفيًّا كما يفعله أهل الرياء ومن يطلب به أجرًا»[٥].

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر)، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرياء)[٦].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٧/ ٦٥.
(٢) تاج العروس، الزّبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٣) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٧٥، البحر المديد، ابن عجيبة، ٣/ ٣١٤.
(٥) إرشاد العقل السليم، ٥/ ٢٥١.
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٩/ ٣٩، رقم ٢٣٦٣٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٢٣، رقم ١٥٥٥.

مجالات الرياء ومظاهره

الرياء خلق ذميم يتصف به ضعاف الإيمان، يظهر على الإنسان بعلامات أهمها: النشاط في العمل ومضاعفة الجهد أمام الآخرين، والكسل والتقصير إذا بعد الإنسان عن الناس.

وإلى هاتين السمتين يشير سيدنا علي رضي الله تعالى عنه: فيقول: (للمرائي علامات: كسل إذا كان وحده وينشط إذا كان في الناس ويزيد في العمل إذا أثني عليه وينقص إذا ذم)(١).

وقد حذر الإسلام من هذه الصفة الذميمة، وبين عواقبها، ونفَّر منها في جميع مجالاتها، سواء كانت في العبادات أو الصدقات أو الجهاد في سبيل الله، فكل ذلك منهي عنه ويبطل الأعمال، وسوف نتناول هذه المجالات بشيء من التفصيل بإذنه تعالى.

أولًا: الرياء في العبادات:

خلق الله عز وجل الإنسان لغاية كريمة، واستخلفه في الأرض، وكرمه على سائر مخلوقاته بالعقل؛ ليقوم بهذا الهدف الأسمى، وهو العبادة، قال المولى عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالعبادة هدف سامي يقوم بها الإنسان طاعة لله عز وجل وإرضاءً وتقربًا له تبارك وتعالى، وحتى تقبل العبادة من العبد ينبغي أن يكون مخلصًا فيها لله عز وجل، بعيدًا عن الرياء، فالإخلاص واجب في الطاعات حتى تقبل، وقد جاءت النصوص المتضافرة في الكتاب والسنة لتبين أهمية الإخلاص، فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: (أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)(٢).

وقصة الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة(٣).

والرياء ينافي الإخلاص لله عز وجل، فالرياء شعبة من شعب النفاق؛ وصفة ملازمة للمنافقين.

وقد بين لنا ذلك القرآن الكريم الرياء

---

(١) انظر: آفات على الطريق، محمد نوح، ٢/ ٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، ٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥.

(٣) انظر: أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.

في العبادة، وأنها من صفات المنافقين في أكثر من موضع، قال المولى عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

فمن صفاتهم، أنهم يأخذون من الدين ما سهل عليهم، أو ما فيه مصلحتهم، ولا يفعلون ذلك لوجه الله بل رياءً للمؤمنين، وإذا أدّوا شيئًا من العبادات فإنما يستكرهون أنفسهم عليه، ويؤدونه بتكاسل وتثاقل، هذا ديدنهم؛ لذا عبر الله عز وجل عن ريائهم بالفعل المضارع (يراؤون) الذي يفيد الاستمرار، فأعمالهم كلها رياء وسمعة، لا لمرضاة الله عز وجل.

هكذا هم المنافقون لهم علامات يعرفون بها، من أوضحها وأبرزها الرياء، فلهم عبادةٌ يعبدون الله بها في بيوتهم، ولهم عبادة يعبدون الله بها أمام الناس، أساس مواقفهم الرياء، وقعد بهم الكسل عمّا أمروا من أوامر، فأصبح الإخلاص عليهم ثقيلًا.

ففي صحيح الحديث **(إن أثقل صلاة على المنافقين صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا)**[(١)]، فإن العتمة تأتي وقد أتعبهم عمل النهار فيثقل عليهم القيام إليها، وصلاة الصبح تأتي والنوم أحب إليهم من أن يقوم للصلاة؛ لأن صلاتهم لأجل الناس، لا طاعة لله عز وجل.

لذلك توعدهم الله عز وجل فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾﴾ يعني المنافقين[(٢)]، فقد نزلت فيهم، ثم نعتهم فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ فهم لا يرجون بصلاتهم ثوابًا إن صلوا، ولا يخافون عليها عقابًا إن تركوا، فهم عنها غافلون حتى يذهب وقتها، ثم وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾﴾ فهم يراؤون المؤمنين في صلاتهم، أو يراءون الناس بكل ما عملوه من أعمال البر ليثنوا عليهم[(٣)].

والمرائي يتحبب ويتقرب إلى العباد، ويبتعد من الله عز وجل، وهذا ما أشار إليه الإمام ابن الجوزي بقوله: «وقد لبس إبليس على جماعة من قوام الليل فتحدثوا بذلك بالنهار فربما قال أحدهم فلان المؤذن أذن بوقت ليعلم الناس أنه كان متنبهًا، فأقل ما في هذا إن سلم من الرياء أن ينقل من ديوان السر إلى ديوان العلانية، فيقل الثواب تلبيسه عليهم في القرآن، وقد لبس على آخرين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها، ١/ ٤٥١، رقم ٦٥١.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٤٧٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن الكريم، القرطبي، ٢٠/ ٢١١، لباب التأويل، الخازن، ٤/ ٤٧٨، التفسير المظهري، محمد ثناء الله، ١٠/ ٣٤٩، فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٦١٢.

انفردوا في المساجد للصلاة والتعبد فعرفوا بذلك، واجتمع اليهم ناس فصلوا بصلاتهم وشاع بين الناس حالهم وذلك من دسائس إبليس وبه تقوى النفس على التعبد لعلمها أن ذلك يشيع ويوجب المدح»[(١)].

واعتبر النبي صلى الله عليه وسلم الرياء في العبادة أشد خطرًا من فتنة المسيح الدجال، فقد جاء عن أبي سعيدٍ، قال: (خرج علينا رسول اللّه صلى الله عليه وسلم ونحن نتذاكر المسيح الدّجّال، فقال: (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدّجّال؟) قال: قلنا: بلى، فقال: (الشّرك الخفيّ، أن يقوم الرّجل يصلّي، فيزيّن صلاته، لما يرى من نظر رجلٍ)[(٢)].

فالمرائي يظهر ما ليس في قلبه من زيادة خشوع؛ ليعتقد فيه من يراه أنه متدين، والرياء يبطل العمل فلا ينتفع به صاحبه يوم القيامة. والدوافع للرياء في العبادة بينها لنا الإمام الغزالي رحمه الله فقال: «وإنما يبتلي به العلماء والعباد والمشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة فإنهم مهما قهروا أنفسهم وجاهدوها وفطموها عن الشهوات وصانوها عن الشبهات وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى التظاهر بالخير وإظهار العمل والعلم، فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فسارعت إلى إظهار الطاعة وتوصلت إلى اطلاع الخلق ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله وحده، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه الشهوات وتوقيه الشبهات وتحمله مشاق العبادات أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في التقريظ والإطراء ونظروا إليه بعين التوقير والاحترام وتبركوا بمشاهدته ولقائه ورغبوا في بركة دعائه وحرصوا على اتباع رأيه وفاتحوه بالخدمة والسلام وأكرموه في المحافل غاية الإكرام، وسامحوه في البيع والمعاملات وقدموه في المجالس وآثروه بالمطاعم والملابس، وتصاغروا له متواضعين وانقادوا له في أغراضه موقرين»[(٣)].

وللرياء ثلاثة أوجه حين يتصل بالعبادة، أشار إليها الإمام ابن القيم في جوابه على من يعمل العمل لله ولغيره، فلا يكون لله محضًا ولا للناس محضًا، هل يبطل العمل كله أم يبطل ما كان لغير الله ويصح ما كان

(١) تلبيس إبليس، ص ١٧٤.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب الرياء والسمعة، ٢/ ١٤٠٦، رقم ٤٢٠٤. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٥٠٩، رقم ٢٦٠٧.
(٣) إحياء علوم الدين، ٣/ ٢٧٥.

لله؟ فأجاب ابن القيم رحمه الله:

الوجه الأول: أن يكون الباعث لله، ثم يعرض له الرياء في أثناء العمل، فهذا المعول فيه على الباعث الأول ما لم يفسخه بإرادة جازمة لغير الله فيكون حكمه حكم قطع النية في أثناء العبادة وفسخها، أي ترك استصحاب حكمها.

الوجه الثاني: أن يكون الباعث الأول لغير الله، ثم يعرض له قلب النية لله، فهذا لا يحتسب له بما مضى من العمل، ويحتسب له من حين قلب نيته؛ فإذا كانت العبادة لا يصح آخرها إلا بصحة أولها وجبت الإعادة، كالصلاة، وإلا لم تجب كمن أحرم لغير الله ثم قلب نيته لله عند الوقوف والطواف.

الوجه الثالث: أن يبدأ العبادة لله والناس، فيريد أداء فرضه والجزاء والشكور من الناس، كمن يحج ليسقط الفرض عنه ويقال فلان حج، فهذا لا يقبل منه العمل؛ لأن حقيقة الإخلاص التي هي شرط في صحة العمل والثواب عليه لم توجد، والحكم المعلق بالشرط عدم عند عدمه[(١)]، ودل على ذلك أيضًا ما ورد أن «رجلًا جاء إلى عبادة بن الصامت رضي الله عنه فقال: أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلًا يصلي يبتغي وجه الله، ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد. فقال عبادة: ليس له شيء»[(٢)].

وذكر ذلك ابن رجب فقال رحمه الله «اعلم أن العمل لغير الله أقسام؛ فتارة يكون رياء محضًا؛ كحال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة أو التي يتعدى نفعها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة، وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله؛ فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه، وأما إن كان العمل لله وطرأ عليه نية الرياء؛ فإن كان خاطرًا ثم دفعه؛ فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه؛ فهل يحبط عمله أو لا؛ فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجّحا أن عمله لا يبطل بذلك»[(٣)].

وليس من الرياء أن يسرّ الإنسان بفعل الطاعة؛ لأن ذلك دليل إيمانه، قال النبي

(١) انظر: إعلام الموقعين، ٢/ ١٢٥.

(٢) انظر: ذم الرياء في الأعمال، الحسن الضراب، ص١٠٥.

(٣) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، الفوزان، ١/ ١٢١.

صلى الله عليه وسلم: **(من سرّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن)**[١].

والرياء قد يقع من المسلم في أي عبادة يقوم به قاصدًا بها الحمد والشكر من الناس لا ثواب الخالق عز وجل، ومن ذلك العالم وقارئ القرآن، فقد جاء في أحاديث كثيرة فضل العلم والعلماء، خاصة تعلم القرآن، قال عليه السلام: **(خيركم من تعلم القرآن وعلمه)**[٢]، لكن العالم أو قارئ القرآن إذا كانت نيته غير خالصة لله عز وجل، وكان القصد الرياء والسمعة فكان جزاؤه النار والعياذ بالله، كما قال صلى الله عليه وسلم: **(إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه...، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار...)**[٣].

وقال عليه السلام: **(من تعلّم علمًا ممّا يبتغى به وجه اللّه، لا يتعلّمه إلّا ليصيب به عرضًا من الدّنيا، لم يجد عرف الجنّة يوم القيامة)**[٤].

فعلى الإنسان أن يكون شديد الحذر، ويراقب نفسه؛ خوف الوقوع في الرياء، وأن يجدد النية الخالصة لله عز وجل، وأن يحذر المنافقين وصحبتهم لينجوا بنفسه، ويفوز برضا الله عز وجل.

ثانيًا: الرياء في الصدقات:

قد ينفق الإنسان في سبيل الله عز وجل، لكنه لا ينال الأجر والثواب من الله تعالى، فهذا هو المرائي الذي يريد بظاهر عمله غير الباطن.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذه الآية يخاطب الله عز وجل المؤمنين قائلًا لهم لا تُذهبُوا أجر صدقاتكم

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، ٤/ ٤٦٥ رقم ٢١٦٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٤٩٩، رقم ٢٥٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، ٤/ ١٩١٩، رقم ٤٧٣٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣ رقم ١٩٠٥.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، في المقدمة، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، ١/ ٩٢، رقم ٢٥٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٦٠، رقم ٦١٥٩.

بالمن والأذى، فالصدقة التي يعلم من صاحبها أنه يمن أو يؤذي الفقير بها، لا تقبل منه، وقيل: إنّ المن والأذى دليل على أن نيته لم تكن خالصة، فلذلك بطلت صدقته، كإبطال المنافق الذي يرائي بإنفاقه فيظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة؛ ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه؛ ولهذا قال: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾، فالرياء يبطل الصدقة، ولا تكون النفقة مع الرياء من فعل المؤمنين، لكن من فعل المنافقين لأن الكافر معلن بكفره غير مراء به، فمثل هذا المرائي بصدقته وسائر أعماله كمثل الحجر الأملس الصلب وعليه تراب فأصابه المطر الشديد العظيم القطر، فتركه أملس لا شيء عليه من ذلك التراب، فهذا مثل ضربه الله تعالى لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن المنان بصدقته يؤذي الناس، يرى الناس أن لهؤلاء أعمالًا في الظاهر، كما يرى التراب على الصفوان فإذا جاء المطر أذهبه وأزاله، وكذلك حال هؤلاء يوم القيامة، تبطل أعمالهم وتضمحل؛ لأنها لم تكن لله تعالى كما أذهب الوابل ما على الصفوان من التراب، والله لا يهدي القوم الكافرين إلى الخير والرشاد، وفيه تعريض بأن الرئاء والمن والأذى على الإنفاق من صفات الكفار ولا بد للمؤمن أن يتجنب عنها[1].

وقد بين المولى عز وجل في محكم كتابه أن صفة الرياء إنما هي من تزيين الشيطان، فمن اتصف بها فقد اتبع خطوات الشيطان، فيكون مصيره النار وبئس المصير، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٨].

فالآية نزلت في المنافقين، الذين كان انفاقهم رياءً وسمعةً، فقوله (رياء) مفعول له، للإنفاق، يعنى ينفقون لأجل أن يراهم الناس ويقولوا ما أجودهم، فالمراؤون يتحرّون بإنفاقهم رضى الناس، والإنفاق رياء كفر وشرك خفيّ؛ لذلك عطف عليه قوله ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾[2]، وكان الشيطان قرينهم لا يفارقهم.

والمعنى من يكن عمله بما سول له الشيطان فبئس العمل عمله، وقيل هذا في الآخرة يجعل الله الشياطين قرناءهم في النار يقرن مع كل كافر شيطان في سلسلة من

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٦٩٤، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٥٨، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٣٤، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٠٠.

(٢) انظر: التفسير المظهري، ٢/ ١٠٦، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٢، مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ٧٩.

النار[١].

ومع ذلك لا ينبغي للعبد أن يترك التصدق أو العمل الصالح خوف الرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، قال الفضيل بن عياض: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك[٢].

وقال عليه السلام مبينًا جزاء من ينفق رياء وسمعة: (إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد...، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار)[٣].

كما وجاءت الآيات صريحة الدلالة في تفضيل الصدقة سرًّا بعدًا عن الرياء، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالآية الكريمة ظاهرة في تفضيل صدقة السّر على صدقة العلانية، وذهب جمهور المفسرين في تفسير هذه الآية: إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، فكتمان صدقة التطوع وإخفائها أفضل من إظهارها، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات والفرائض، فيجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة؛ لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق للعن فيجب نفي التهمة بالإظهار، فالإظهار فيها أفضل، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفًا، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها[٤].

فالأعمال والعبادات الخفيّة، والطاعة في الخلوات، تفضل الأعمال الجليّة غير الفرائض الظّاهرة، فضلًا عظيمًا، وتحميه من أدران الرّياء، والتّطلع لحبّ الثناء من الناس، وقد جاء التّوجيه عن السلف الصالح

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٧٥، البحر المديد، ابن عجيبة، ١/ ٥٠٤، محاسن التأويل، القاسمي، ٣/ ١١٠.
(٢) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/ ٨٣٦.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٦٠، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٢/ ٣٠٤.

بحثّ العبد المؤمن على أن يكون له عبادة في السّر، فعن الزّبير بن العوام رضي الله عنه قال: (من استطاع منكم أن يكون له خبءٌ من عملٍ صالحٍ فليفعل)[1].

وقد مدح الله عز وجل المنفقين المخلصين في عبادتهم إياه على كل الأحوال فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

فقدّم تعالى صدقة السّرّ عن العلانية، وصدقة اللّيل عن النّهار لخفائهما، وبعدهما عن الرّياء والمباهاة، وحظوظ النّفس المريضة.

وجاء من السّبعة الذين يظلّهم الله عز وجل يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه في قوله عليه السلام: (رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)[2].

والعمل في السر يقطع الطريق على الشيطان في الرياء، كما قال عقبة بن عبد الغافر: «إذا عمل العبد في السر عملًا حسنًا، ثم عمل في العلانية مثله قال الله تعالى هذا عبدي حقًّا»[3].

لهذا وجب على الإنسان أن يراقب نفسه، ويحاسبها، وأن يكون متيقظًا، ويسد منافذ الشيطان ووساوسه التي تؤدي به إلى النار وبئس المصير.

ثالثًا: الرياء في الجهاد:

إن الإخلاص في العمل شرط من شروط قبول العمل، ونيل الأجر والثواب من الله عز وجل، ومن الطاعات التي يتقرب بها العبد من خالقه تبارك وتعالى الجهاد في سبيله، وقد عبر عنه بالقول (في سبيله) دليل على أن أساس قبوله النية الخالصة، وهناك من الآيات والأحاديث التي جاءت تنهى عن الرياء في الجهاد، وتبين ذهاب أجر المرائي.

فمن الآيات قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنفال: ٤٧].

فقد نهى الله عز وجل عن الخروج للجهاد بطرًا ورئاء الناس، والبطر هو الطغيان في النعمة وترك شكرها، والرياء المباهاة والتصنع وإظهار الجميل ليراه الناس مع إبطال القبيح[4].

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية:

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، ٧/ ١١٦، رقم ٣٤٦٢٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، ٢/ ٥١٧، رقم ١٣٥٧.

(٣) أخجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ٢١٢.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٥٣٧، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٣١٧.

«حذرهم بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من فشلهم وذهاب ريحهم، كالذين خرجوا من ديارهم هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل وقال: حتى نقدم بدرًا نشرب بها الخمور، وتعزف علينا القيان، ونطعم بها من حضرنا من العرب، فذلك بطرهم ورئاؤهم الناس بإطعامهم، فوافوها، فسقوا كؤوس المنايا مكان الخمر، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طربين مرائين بأعمالهم، وأن يكونوا من أهل التقوى والكآبة والحزن من خشية الله عز وجل، مخلصين أعمالهم لله»[1].

وجاءت الأحاديث تحذر من هذه الصفة الذميمة وتبين عاقبة من خرج للقتال رياءً، فورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار)**[2].

وجاء عن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل للذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال **(من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)**[3].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «قال رجل: يا رسول الله، إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني، فلم يرد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا حتى نزلت ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]»[4].

(١) الكشاف، ٢/ ٢٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، ٣/ ١٠٣٤، رقم ٢٦٥٥.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، ٢/ ١٢٢-رقم ٢٥٢٧.

قال الحاكم: صحيح على شرط البخاري ومسلم.

عاقبة الرياء

الرياء من السجايا الذميمة، والخلال المقيتة، الدالّة على ضعة النفس، وسقم الضمير، إذ هو الوسيلة الخادعة التي يتخذها المتلونون والمنحرفون ذريعة لأهدافهم ومآربهم دونما خجل واستحياء من هوانها ومناقضتها لصميم الدين والكرامة، وحسب المرائي ذمًّا أنه اقترف جرمين عظيمين: **الجرم الأول**: أنه تحدّى اللّه تبارك وتعالى، **والجرم الثاني**: أنه استخف بجلال المولى عز وجل، بإيثار عباده عليه في الزلفى والتقرب، ومخادعة الناس والتلبس عليهم بالنفاق والرياء.

ومع ذلك نجد المرائي حليف الهم والعناء، يستهوي قلوب الناس، ويتملق رضاهم، ورضى الناس غاية لا تنال، فيعود بعد طول المعاناة خائبًا، شقيًّا، سليب الكرامة والدين.

ومن الثابت أنّ سوء السريرة سرعان ما ينعكس على المرء، ويكشف واقعه، ويبوء بالفضيحة والخسران، نعوذ بالله من هذه الصفة.

فإن من أبرز آثار الرياء وعواقبه فقدان الأجر والثواب من الله عز وجل؛ لأن المرائي قد فقد أهم شرط لقبول الأعمال وهو إخلاص العمل لله عز وجل، فهو يريد بعمله الحمد من الناس على أعماله، لا الثواب من الله عز وجل، وقد جاءت الآيات والأحاديث مجتمعة على محق ثواب المرائي وبطلان عمله.

وقد بين المولى عز وجل في آيات عديدة قبح الرياء، وبطلان أعمال المرائين عند الله عز وجل يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: ٢٦٤].

قال المفسرون في معنى قوله تعالى: لا تبطلوا صدقاتكم: إنّ الصدقة التي يعلم من صاحبها أنه يمن أو يؤذي لا تقبل منه، أو أن ثوابها يمحقه الله عز وجل[(١)].

وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٦﴾ [هود: ١٥-١٦].

نزلت هذه الآية في كل من عمل عملًا وأراد به غير الله عز وجل[(٢)].

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٣٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ٢/ ٤١٨،

وقال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «هم أهل الرياء، يقال للقراء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك، ولمن وصل الرحمن وتصدّق: فعلت حتى يقال فقيل، ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جريء، فقد قيل»[(١)].

ويؤيد ذلك ما جاء في صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار**)[(٢)].

«وعن ابن عباس في هذه الآية: إن أهل الرياء يعطون بحسناتهم في الدنيا، وذلك أنهم لا يظلمون نقيرًا، يقول: من عمل صالحًا التماس الدنيا، صومًا أو صلاة أو تهجدًا بالليل، لا يعمله إلا التماس الدنيا، يقول الله: أوفيه الذي التمس في الدنيا من المثابة، وحبط عمله الذي كان يعمله التماس الدنيا، وهو في الآخرة من الخاسرين»[(٣)].

فجزاء المرائي ألا يقبل عمله في الآخرة، ويعتبر باطل لا ثواب عليه، لكنه يعطى أجره في الدنيا فمن عمل عملًا صالحًا في غير تقوى أعطى على ذلك أجرًا في الدنيا، فمن يصل رحمًا، أو يعطي سائلًا، أو يرحم مضطرًا، أو نحو ذلك من أعمال البر، فالله يجعل ثواب عمله في الدنيا بأن يوسع عليه في المعيشة والرزق، ويدفع عنه المكاره في الدنيا، وليس له في الآخرة نصيب، قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾، والعياذ بالله.

وقال الله عز وجل في أعمال المرائيين: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣/ ١٣٠، لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٧٦.

(١) الكشاف، ٢/ ٣٨٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، ٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣١١.

وهباءً أي: باطلًا لا ثواب له؛ لفوات شرط الثواب عليه من الإيمان والإخلاص لله[1].

وقد توعد الله عز وجل المرائين بالويل؛ فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾، والويل هو العذاب لهم، أو الهلاك، أو واد في جهنم ذال هو مصيرهم[2].

وكما قلنا فالرياء شعبة من شعب النفاق، فالمنافقين إنما يعبدون الله عز وجل رياءً وسمعة؛ لذا لا تقبل منهم أبدًا، قال الله عز وجل في حديثه عن المنافقين: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝٥٤﴾ [التوبة: ٥٤].

فهم لا يرجون ثوابًا ولا يخافون بتركها عقابًا، فهم يصلون ويعطون الزكاة ذلك رياء ونفاقًا[3].

وقد أوضح ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم وأكد أن الأعمال التي يقوم بها المرائي لا تنفعه يوم القيامة، ويقال له اذهب إلى من كنت ترائي فيه فالتمس عنده الثواب، فعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إنّ أخوف ما أخاف عليكم الشّرك الأصغر) قالوا: وما الشّرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: (الرّياء، يقول الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة: إذا جزي النّاس بأعمالهم: اذهبوا إلى الّذين كنتم تراءون في الدّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً)[4].

وفي النهاية فإن المرائي يفضحه الله في الدنيا وعلى رؤوس الأشهاد يوم القيامة، ذلك أن المرائي إنما يقصد بعمله هذا خداع غيره ليعطيه هذا الغير زمامه، وليسلم إليه قياده، ويأبى الله عز وجل ذلك نظرًا لما يمكن أن يصنعه هذا المرائي أو المسمع من إفساد في الأرض وإهلاك للحرث و النسل. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

لذا فإنه يفضحه في الدنيا، حتى يحذره الناس، ولا يغتروا به، أما في الآخرة فإن الفضيحة تكون مزيدًا من الانتقام والعذاب[5].

(١) انظر: التفسير المظهري، ٧/ ٢٠.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٥/ ٦١٢.
(٣) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة، ٢/ ٣٩٢.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٩/ ٣٩، رقم ٢٣٦٣٠.
وجود إسناده الألباني في السلسلة الصحيحة ٢/ ٦٣٤.
(٥) انظر: آفات على الطريق، محمد نوح، ٢/ ١٠.

علاج الرياء

الرياء خلق ذميم حذر منه الإسلام، وبين عاقبته، وبين لنا طرق علاجه، ولا يطلب العلاج إلا من أحس بالداء، قال يونس بن عبيد: «لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله»(١)، وأول طرق العلاج من هذه الصفة الذميمة هو الإخلاص.

وهناك العديد من الآيات والأحاديث، وما جاء من الآثار التي تبين فضل الإخلاص في الأعمال والطاعات والقيام بها في الخفاء.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾﴾ [البقرة: ٢٧١].

فالآية الكريمة ظاهرة في تفضيل صدقة السّر على صدقة العلانية، وذهب جمهور المفسرين في تفسير هذه الآية: إلى أن هذه الآية في صدقة التطوع، فكتمان صدقة التطوع وإخفاؤها أفضل من إظهارها، وكذلك سائر العبادات الإخفاء أفضل في تطوعها؛ لانتفاء الرياء عنها، وليس كذلك الواجبات والفرائض، فيجب إظهار الفرائض من الصلاة والزكاة؛ لأنها شعائر الإسلام وتاركها مستحق للعن؛ فيجب نفي التهمة بالإظهار، فالإظهار فيها أفضل، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها يقال بسبعين ضعفًا، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال بخمسة وعشرين ضعفًا، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها(٢).

وقد مدح الله عز وجل المخلصين في عبادتهم إياه على كل الأحوال فقال: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤].

فقدّم تعالى صدقة السّرّ عن العلانية، وصدقة اللّيل عن النّهار لخفائهما، وبعدهما عن الرّياء والمباهاة، وحظوظ النّفس المريضة.

وجاء من السّبعة الذين يظلّهم الله عز وجل يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه في قوله عليه السلام: (رجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتّى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه)(٣).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ١٨٩، رقم ٦٤٨٢.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣/ ٣٣٢، أنوار التنزيل، البيضاوي، ١/ ١٦٠، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٢٠٦، مفاتيح الغيب، الرازي، ٣٢/ ٣٠٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة،

والعمل في السر يقطع الطريق على الشيطان في الرياء، كما قال عقبة بن عبد الغافر: «إذا عمل العبد عملًا في السر، عمل حسنًا، ثم عمل في العلانية مثله قال الله تعالى هذا عبدي حقًا»[(١)].

وقال الثوري عن زيد: «إذا كانت سريرة الرجل أفضل من علانيته، فذلك الفضل، وإذا كانت سريرة الرجل وعلانيته سواء، فذلك النصف، وإذا كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور»[(٢)].

وجاء عن الفضيل أنه كان يقول: «خير العمل أخفاه، وأمنعه من الشّيطان، وأبعده من الرّياء»[(٣)].

ومع ذلك لا ينبغي للعبد أن يترك العمل خوف الرياء، فإن ذلك منتهى بغية الشيطان منه، إذ المقصود أن لا يفوت الإخلاص، قال الفضيل بن عياض: ترك العمل بسبب الخلق رياء، وفعله لأجل الخلق شرك[(٤)].

فالأعمال والعبادات الخفيّة، والطاعة في الخلوات، تفضل الأعمال الجليّة غير الفرائض الظّاهرة، فضلًا عظيمًا، وتحميه من أدران الرّياء، والتّطلع لحبّ الثناء من الناس، وقد جاء التّوجيه عن السلف الصالح بحثّ العبد المؤمن على أن يكون له عبادة في السّر، فعن الزّبير بن العوام رضي الله عنه قال: «من استطاع منكم أن يكون له خبءٌ من عملٍ صالحٍ فليفعل»[(٥)].

موضوعات ذات صلة:

الإخلاص، الشرك، الصدق، الكفر، النفاق

باب الصدقة باليمين، ٢/ ٥١٧، رقم ١٣٥٧.

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ٢١٢.

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ٢٢٨.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، ٩/ ١٩٣.

(٤) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي، ٤/ ٨٣٦.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف، ٧/ ١١٦، رقم ٣٤٦٢٥.